

د. صلاح عبد الله

مفتي

د. محمد محمد عبد الله

د. عبد المنعم

مفتي



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٠١٨٨٢

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مركز الدراسات والبحوث
فروع الأدب

أسرار التنوع

في

تشبيهات القرآن الكريم

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة

إعداد الطالبة

عبد الله محمد عبد الرزاق بن حسي

إشراف الدكتور

عبد الفتاح لايسين

١٤٠٩ / ١٤١٠ هـ

١٨٨٣
١٤٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى:

”وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ“ (الحشر/ ٢١)

وقال تعالى:

”وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ“ (المنكوت/ ٤٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم.

الدرجة العلمية: ماجستير.

الطالبة : ملك حسن عبد الرزاق بخش .

ملخص الرسالة

اقتضت طبيعة البحث لأن يكون في تمهيد وستة فصول وخاتمة. أما التمهيد فقد بينت فيه جهود السابقين في بيان أسرار التنوع ، ثم الفصل الأول عن تشبيهات الحياة الدنيا وأسرار تنوعها ، والثاني عن تشبيهات الانفاق ، والثالث عن تشبيهات الحق والباطل ، والرابع عن تشبيهات أعمال الكافرين ، والخامس عن تشبيهات أوصاف المخالفين ، والسادس عن التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند اليقظة . ثم الخاتمة وفيها عرضت أهم ما توصلت إليه من نتائج وأصول في أسرار التنوع ، ومن تلك الأصول :

- ١ - تناول المعنى الواحد في كل مرة من جانب من جوانبه التي تتلاءم مع الفرض والسياق .
- ٢ - الانتقال في تنوع التشبيهات من الصورة البسيطة التركيب الى الصورة الأكثر تركيباً تدرجاً في اقتناع النفس وتلاؤماً مع وفرة المعاني .
- ٣ - التعبير عن المعنى الواحد بصورتين متضادتين أو متقابلتين كالمثل المائي والناري والماء والنار عنصران يغلبان على أكثر تشبيهات القرآن .
- ٤ - مراعاة أحوال البيئة المعاشية والحضارية كالتعبير بصورة مستقاة من اليادية وأخرى من الحضرة .
- ٥ - مراعاة المستوى الفكري والحضاري والتقدم العلمي .
- ٦ - الانتقال من الحسي الى المعنوي كالتشيل للانفاق في سبيل الله في صورة المضاعفة الحسابية لاثارة محور الطمع في الربح ثم الانتقال الى ابتغاء مرضاة الله .
- ٧ - من أسرار التنوع وأصوله أن لكل مثل بناؤه ونظمه وعناصره وظلاله التي تتناسب مع السياق الذي ورد فيه فالماء المختلط بنبات الأرض يتلاءم مع الريح الطيبة والبحر والهشيم الذي تذرره الرياح يتلاءم مع الجنة الخاوية على عروشها والظلمات التي تتكاثف في بحر لحي تتناسق مع النور الذي يتضاعف في مشكاة فيها مصباح وهكذا .

الطالبة

المشرف

عميد كلية اللغة العربية

ملك حسن عبد الرزاق بخش

د / عبد الفتاح لاشين

د / محمد بن مريسي الحارثي

المفكرة
بسم الله

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمة

الحمد لله الذى فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين وآتانا به
مالم يوءت أحدا من العالمين والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن
ووصيته القرآن وميراثه القرآن القائل (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (*)
يقول العلامة الزمخشري صاحب عمدة التفاسير في البلاغة العربية "إن أملاً"
العلوم بما يفخر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من
غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق مسلكها علم التفسير".
ثم بين رحمه الله تعالى أن هذا العلم لا يتم تعاطيه وإجالة
النظر فيه لكل ذى علم وإنما لا بد من البراعة في علوم البلاغة المختصة
بالقرآن الكريم كملهي المعاني والبيان وأن البراعة فيها تحتاج إلى
تأني في إرتيادهما وتعجب في التنقير عنهما. (٢)

ومن هنا يتضح لنا دقة البحث في القرآن الكريم وشقته ووعورة
مسلكه على جلاله وفضله وشرفه الذى لا يدانى .

ولقد بهرني أثناء دراستي العليا جمال التشبيه في القرآن
الكريم وجلاله فأردت أن يكون موضوعا للبحث والدراسة . ولما كان التشبيه
في القرآن خصباً رحباً يتسع مجال القول فيه وباباً عجباً لا تنتهي

(١) الكشاف ١/١٦٠

(٢) المصدر السابق .

(*) أخرجه البخارى والترمذى وأبو داود (جامع الأصول في أحاديث الرسول)

(ب)

لطائفه ومعانيه وفق الله استاذى الدكتور محمد محمد أبو موسى أن يقنعني
على هذا الجانب منه ألا وهو أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم .
وهو باب دقيق المسلك صعب المرتقى لطيف المأخذ أشبه
بالسحر لم يسبقني إليه أحد بحمد الله فيما أعلم ولم أجد في جهود
العلماء السابقين من التفت إليه التفاتا مباشراً إلا ما ورد عن الرماني
الذى أشار إلى أسرار التنوع بطريق غير مباشر حين جمع النظر إلى نظيره
وعلق عليه .

وعلماء المتشابه
وتعد كتب المفسرين / هي الحقل الأول الذى نشأ فيه الكلام
عن أسرار التنوع لأن هؤلاء هم الذين وقفوا عند الآيات المتشابهة
والمحو إلى الفروق التي بينها، تأمل مثلاً قول ابن القيم حيث يقول :

"فان قيل : فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس :
قُلْ مَنْ رَزَقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ
وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ①

وبين قوله في سورة سبأ - قُلْ مَنْ رَزَقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ .

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغضها وألطفها فرقا فتدبر
السياق تجده تقيضاً لما وقع . (٢)

(١) سورة يونس آية (٣) .

(٢) التفسير القيم لابن القيم ص ٣٠٦ .

ثم يحلل ، ويبين مناسبة كل آية لسياقها الذي وردت فيه .
أما في الشعر فيعد عيد القاهر الجرجاني أول من فتح باب
أسرار التنوع في التشبيه بطريق غير مباشر وذلك في موازاته بيمسن
الأبيات المتشابهة في المعنى مثل بيت بشار :

كَأَنَّ مَنَارَ النَّقْعِ قَمُوقَ رَوْسِنَا
وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ

مع قول المتنبي :

يَزُورُ الْأَعْيَادِي فِي سَمَاءٍ عَجَاجِهِ
أَسْنَتُهُ فِي جَانِبَيْهَا الْكَوَاكِبُ

أو قول عمرو بن كلثوم :

تَبْنِي سَتَاتِيكَهَا مَنَ فَوْقَ أَرْوَاءِ سَهْمٍ
سَقْفًا كَوَاكِبَهُ الْبَيْضُ الْمَبَاتِيرُ

فقد أشار عيد القاهر إلى أن هذه الأبيات رغم أنه يجمعها معنى عام واحد
وهو تشبيه لمعان السيوف في السغبار بالكواكب بالليل " إلا أنك تجد لبيت
بشار من الفضل ومن كرم الوقع ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره
ولا يمكن إنكاره وذلك أنه راعى ما لم يراعه غيره وهو أن الكواكب تتهاوى
فأتم الشبه (١) .

وهكذا نبه عيد القاهر إلى هذه الفروق والدقائق وأسرار تنوعها .

وقد استقام البحث بعد ذلك في تمهيد وستة فصول وخاتمة.
وهذا التقسيم إنما هو بحسب الأغراض الظاهرة وإلا فإن التشبيه في القرآن الكريم
يجرى فيه ما يجرى في أبناء العشرة الواحدة من الصلات والشائج والطباع الخفية.
أما التمهيد : فقد بينت فيه جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع في
التشبيه وغيره أى بصورة عامة لأن كتب المفسرين وعلماء المتشابه هي الحقل الأول
الذى نشأ فيه الكلام عن أسرار التنوع بصورة عامة ثم تطرق النظر إلى التشبيه في
القرآن الكريم .
الفصل الأول :

درست فيه التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا وأسرار تنوعها
وفيه بينت لماذا بنى التشبيه مرة على التحليل والتفصيل كما في سورة
يونس ، وأخرى على الطى والدمج كما في سورة الكهف ، وغير ذلك من
فروق ودقائق ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

الفصل الثاني :

درست فيه التشبيه الذى يمثل الإنفاق ويتضمن :
- الإنفاق في سبيل الله ، والإنفاق الذى شابهته شائبة المن
والأذى أو الرياء أو الكفر الصريح ، وبينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيه
الإنفاق في سبيل الله مرة بالحببة التي أنبت سبع سنابل وأخرى بالجنة ذات
الريوة التي أصابها وابل ، كما بينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيهات الإنفاق
لغير سبيل الله بالصفوان الذى عليه تراب ، والجنة التي أصابها إعصار فيسه
نار فاحترقت ، والحرث الذى أصابته ريح فيها صر فأهلكته .

الفصل الثالث :

درست فيه التشبيه الذى يمثل الحق والباطل وأسرار تنوعه .
بينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيه الحق بالماء النازل من السماء والمعدن
الذى يوقد عليه ، وبالشجرة الطيبة الثابتة الأصل وأسرار التنوع وراء تشبيه
الباطل بالزبد الطافي ، وبالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض .

الفصل الرابع :

درست فيه التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين وأسرار تنوعها
وقعت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه أعمال الكافرين مرة بالرماد وأخرى بالسراب
أو الظلمات أو الهباء المنثور .

الفصل الخامس :

درست فيه التشبيه الذي يمثل أوصاف المنافقين وأسرار تنوعها
وقعت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه المنافقين مرة بالمستوقد نارا وأخرى
بأصحاب الصيِّب .

الفصل السادس :

درست فيه التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث وأسرار
تنوعها ، وقد وقعت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه الناس عند خروجهم
من الأجداث بالجراد المنتشر أو الفراش الموثوكذا . .
ثم الخاتمة : وفيها عرضت أهم ما توصلت إليه من نتائج وما
استخلصته من أصول في أسرار التنوع .

وقد التزمت في هذه الدراسة بمنهج معين :

أولا : وضعت مدخلا لكل فصل بينت فيه كيف ورد هذا المعنى الذي
تناوله التشبيه عن طريق الحقيقة كما ورد عن طريق المجاز . وكل
ذلك تبعالما يقتضيه السياق القرآني .

ثانيا : من أسرار المناسبة : بينت فيه بعض وجوه المناسبة بين المثل وبين مقاصد السورة وأغراضها وسياق الآيات لأن جزءاً كبيراً من بلاغة التمثيل هو من معطيات سياق يرتبط به .

ثالثا : من أسرار اللغة والنظم : حللت فيه المثل تحليلاً بيانياً وفتت فيه أمام كل كلمة وجملتها وأتوسمها توسماً واعياً من ناحية بنائها ومعناها اللغوية وعلاقتها بأخواتها وهكذا . .

وكل ذلك في ضوء السياق الذي وردت فيه محاولة استخراج ما وراء ذلك من وحي وأحوال وأسرار .

رابعا : من أسرار التنوع : وفيه عقدت موازنة بين آيات التمثيل وصوره ومعانيه واستخلصت فيه أسرار التنوع ووجوه المقابلة والتضاد وغير ذلك من الدقائق التي ظهرت أثناء الموازنة والمقارنة .

وبعد : فلئن كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم يقول :
 " قرب آية أقممت في تأملها شهوراً ومن أراد تصديق ذلك فليأمل شيئاً من الآيات قبل أن ينظر ما قلته ثم ينظره يظهر له مقدار ما تعبت وما حصل لي من قبل الله ومن العون " . (١)

فما عساي أقول وأنا إنما استضيء (بكشافهم) وأتزوّد من (جامع بيانهم) وأغترف من (بحر محيطهم) وأنظم من (روح معانيهم) و(نظم درهم) ثم أحرر ما كتبت (بمحررهم الوجيز) و(بالتحرير والتنوير) . . وهكذا .

(ز)

فلله هذه الودائع التي استخرجت منها ما زادنى
بصيرة وعلم وشحذ فكرى وقدح زناد عقلي وأورى جذوة قلبي
وأوقني على أن ما خلصت إليه من نتائج وأسرار ولطائف إنما هي غيض من
فيض .

ولا يزال القرآن الكريم مأدبة الله التي لا يشبع منها العلماء
ينطوى على لطائف وأسرار لا تتناهى نرجوا الله أن يعطف نحوه قلوب
طلبة العلم التقيه الزكية ليستخرجوا ودائعه ويكشفوا حجبه .
بقيت كلمات يمتلي بها القلب اجلالا واكارا وحمداً وشكراً لله
الذى وفقني لخدمة كتابه الكريم والانس بصحبته أياما خوالي ما أحسب
أن في الدنيا نعيماً يعدل نعيي بهم ولو لم يكن لي من هذا البحث
إلا هذه الثمرات لكفتني .

ثم أتوجه بخالص الدعاء وجزيل الشكر إلى (جامعة أم القرى)
هذه الأم التي ربنا وتمهدت فينا أكرم ما خلق الله فينا (عقولنا وقلوبنا)
ولها علينا فضل لا يدانيه فضل متفضل، وحسبها أنها تابعت بحوثنا،
وأغدقت علينا من سخاء نفسها وسخاء هذه الدولة الفتية رعاها الله وحماها
ما قوم اعوجاجها وزود مدارها طوال هذه السنوات الماضية .

وأخص بالشكر والتقدير الدكتور محمد بن مريس الحارثي عميد كلية
اللغة العربية على ما بذله من جهد حثيث في إتمام هذه المرحلة من
البحث .

كما أتقدم بالشكر والتقدير والعرفان لأستاذي الدكتور الفاضل المشرف
عبد الفتاح لاشين الذي تابع هذا البحث بجهد صابر وحرص شديد وله في كل
صفحة نظر فجزاه الله عنا خير الجزاء وحسبه فاتحة خير علي أن جعل الله
اجتنائي لشرة هذا البحث على يديه الكريمتين .

وأوجه جزيل شكرى وتقديرى وخالص دعائي إلى الأستاذين الفاضلين
الدكتور صباح دراز والدكتور الشحات عبد الرحمن أبو ستيت على ما تكرما به من
قبول هذا البحث للمناقشة نفعتني الله بحسن توجيهاتهما ورزقني حسن الأدب في
مناقشتها والالتزام بصائب رأيسهما فيما قوماني به وأرشداني إليه فجزاهما الله
عني خير الجزاء .

وجزى الله كل من كان له يد العون في إخراج هذا البحث على هذه
الصورة خير الجزاء .

وأخص بالشكر زوجي وقرّة عيني الدكتور الداعية عبد العزيز الجفري
والذى في ظل صحبته المباركة فتح الله علي بهذا العلم المبارك .
كما أخص بالشكر اخوتي الأحبة عبد الرحيم وخالد وماجد الذين
بذلوا في سبيل هذا البحث ما بذلوه فجزاهم الله جميعا عني خير الجزاء
وثقل موازينهم عند اللقاء .

وأخيرا أتقدم خافضة جناح الذل من الرحمة إلى والدي الكريمين
اللذين غرسا في نفسي حب العلم منذ النشأة وحملاني عليه حملا والذين إن ضاقت
بي الدنيا وتنكر لي أهلها خاصة وأنا أكتب هذا البحث تحت ظرف شديد
وجدت لقلبيهما بابا لا يوصد دوني أبدا أرجو الله أن يكون علي هذا ما تثقل
به موازينهما يوم القيامة * وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا *

وبعد : فهذا جهدى أرجو ربي أن يجعله خالصا لوجهه الكريم
وأن يغفر لي بهذا القصد ما وقعت فيه من فساد الرأى وعدم الاصابة في الاجتهاد

(ط)

وإنما غايتي أن يحرك الله هذه القلوب والعقول نحو هذا الباب الزاخر
بالبلاغة العالية واليتي لا تزال في أكمامها .

وما توفيتي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب . وآخر دعوانا أن الحمد لله
رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين .

تمهيد

جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع

- ١ - الرماني
- ٢ - ابن نايقا البغدادي
- ٣ - عبد القاهر الجرجاني
- ٤ - الخطيب الإسكافي
- ٥ - الفخر الرازي
- ٦ - الكرمانلي
- ٧ - الفيروزبادي

١ - الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى الرماني) ت : ٣٨٦ هـ

يعتبر الرماني أول من التفت إلى أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم التفاتاً غير مباشر - بمعنى أنه لم يكن عامداً له محيطاً بكل أغراضه - وذلك حينما جمع النظر إلى نظيره في باب التشبيه وعلق عليه .

فقال في قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيْحَةٍ يُحْسِبُهُ
الظَّمْثَانَ مِآءٍ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا

" فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع

عليه وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة ومظم الفاقة " (١)

ثم قرن هذا التمثيل بما يماثله في الغرض نفسه وهو تشبيه أعمال الكافرين

في قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَدَادٍ
أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ

(١) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

وقال معلقاً عليه : " فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمع المشبه مع المشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الإستدراك لما فات وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة " . (١)

كما ذكر من التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا تشبيهاً

أحدهما من سورة يونس وهي قوله تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

والثاني من سورة الحديد وهو قوله تعالى :

أَعْلَوْا إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُغَيْبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكِبَارَةٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ

وقال معلقاً على الأول : " وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتمع (المشبه) والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقير وإن طال مدته وصغير وإن كبر قدره " . (٢)

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

وقال معلقاً على الثاني : " فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر
به عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتمعا في شدة الإعجاب ثم في
التغيير بالانقلاب وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الإغترار بهما
والسكون إليها " . (١)

كما تناول التشبيه الذي يمثل هلاك قوم عاد وهو قوله تعالى

في سورة القمر :

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ مَّحْسُومٍ
مُّسْتَمِرًّا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
مُتَجَرِّجًا فَجَاءَتْهُمْ أَجْنَادٌ مُنْقَعِرُونَ

وقوله في سورة الحاقة :

كَانَتْهُمْ أَجْنَادٌ مُنْقَعِرُونَ

فقال معلقاً على التشبيه الأول : " وهذا بيان قد أخرج ما
لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما
واهلاكها إياهما . وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخسوف
من تعجيل العقوبة " . (٢)

(١) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

وقال في التشبيه الثاني : * وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبدية إلى ما يعلم، وقد اجتمعا في خلوات جساد من الأرواح ، وفي ذلك الإحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل * . (١)

والرمانى في تناوله للتشبيه في القرآن الكريم ينظر إليه من جهات عدة :

- ١ - ينظر إليه من جهة عنصر البيان والكشف وكيف يبرز التشبيه المعنى الذهني أى الأمر الذى يدرك بالفكر في الصورة المحسوسة التي تدرك بالحواس .
- ٢ - يقف أمام الصفة المشتركة التي تجمع بين طرفي التشبيه ويبين عن وجه الملاءمة الدقيقة بينهما * أى وجه الشبه والذى يكمن فيه المغزى والغرض وقد عبر عن ذلك بقوله : * وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقسة * . (٢)
- ٣ - يتذوق العناصر التي تكونت منها صورة التمثيل وما وراءها من إيحاءات وفيوضات وكيف وقعت موقعها الاًمكن والأبلغ

(١) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ .

فيقول في آية النور : " ولو قيل يحسبه الراي ماء شمس
يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغاً وأبلغ منه لفظ القرآن
لأن الظمان أشد حرصاً عليه وتعلق قلب به " (١)

٤ - يهتم بنسيج بناء التشبيه وصياغته والتي تكشف عن خبايا
المعاني فيقول : " وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن
التشبيه فكيف اذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعدويسة
اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة " (٢)

وهذا النظر المتوسم الواعي والحس المتذوق البصير لصور
التشيل وعناصر نسيجه وبنائه يعيننا على إدراك الفروق الدقيقة وأسرار
التنوع وراء هذه الصور .

(١) المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ وانظر الاعجاز البلاغي ، د . محمد محمد أبو موسى ،
ص ١٠١ - ١٠٤ .

٢ - ابن نايقا البغدادي ت : ٤٨٥ هـ

يعد ابن نايقا هو المصنف الفرد للتشبيهات القرآنية فسي
 كتابه "الجمان في تشبيهات القرآن" (١)

ومنهج في كتابه هذا يعتمد على تفسير المعنى القرآني
 في الآية ثم الاستشهاد لهذه المعاني بشواهد شعرية يتخيرها من
 أروع النصوص الشعرية التي جرت في كلام العرب وأندرها وهو
 لا يقصد بذلك إلى الموازنة بين الشعر والقرآن فإنها لا تأتي في هذا
 الباب، ولكنه إنما يضع بين يدي القارئ بلاغة الشعراء وغيرهم من
 أرباب البلاغة ليحلل بلاغة القرآن وينبه على مكان الفضيلة فيه،
 ويؤكد أن التفاوت بين التنزيل والشعر ظاهرٌ ظاهراً شديداً لا يخفى
 على ذي كياس إذا أسهمها نظره وعاطاها تأمله. (٢)

وهذه الأبيات الشعرية التي يسوقها ابن نايقا حول معنى
 واحد هي باب من أبواب أسرار التنوع في الشعر ولكن ابن نايقا لم يلتفت
 إليها ولم يقف عليها بالتحليل والموازنة ميان الفروق الدقيقة

(١) انظر الإتيان للسيوطي ٥٤ / ٢

(٢) الجمان ص ٧١

التي بينها وإنما يكتفى ببيان أن هذا المعنى الذي أخذه الشعراء من لفظ الكتاب الكريم وقفاً به دون بلاغة القرآن واستيفاء معانيه يقول :

" وكذلك كل ما ينقله الشعراء أو غيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن لا يبلغون شأوه ولا يدركون مثاله إعجازاً وإعوازاً وإبداعاً وامتناعاً " (١)

الجمان

وغلب على منهج ابن ناقياً في كتابه / أن يقرن النظر إلى نظيره في التشبيهات القرآنية ليزيد المعنى جلاءً ووضوحاً دون أن يعلق عليهم ————— وأولتفت إلى أسرار تنوعها والفروق الدقيقة التي بينها فيقول مثلاً في تشبيه الموج في القرآن قال تعالى :

وَهِيَ تَجْرِي بِمَنْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

" الجرى مر سريع كمر الماء على وجه الأرض . والسفينة تجرى بالماء والفرس يجرى في عدوه والموج جمع موجه وهي القطعة العظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير ، وأعظم ما يكون ذلك إذا اشتدت الرياح فدل التشبيه على عظم شأن الأمر من حال الماء وتطبيقه الأرض ومن ملاسة الرياح له ومن ذكر الاعتبار بجرى السفينة في هذه الأحوال

وناب لفظه مع اختصاره عن شرح كبير . ونحو هذا التشبيه قوله —

تعالى في سورة أخرى :

فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ
كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ①

ويكتفي ابن ناقياً بذلك دون أن يعلق على التمثيل الثاني ويذكر
الفرق بينهما ثم يورد تمثيلاً آخر في المعنى نفسه فيقول : " وقد
ورد في التنزيل في صفة موج البحر بالعظم والارتفاع تشبيه آخر
وهو قوله تعالى في سورة القمر :

هَذَا عَشِيرُهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ

لأن موج البحر يعظم فيصير كالظلل في ارتفاعه وتغطيته ما تحته " . (٢)

ويقرن بين قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ
فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ..

وبين قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ

(١) الجمان ص ١٢٦ .

(٢) السابق ص ١٢٨ .

فيقول : " بين الله أن أعمال الذين كفروا في ذهابها وإحباطها كرماد ذهب به الريح في يوم عاصف ، وكذلك بين أن العمل يبطل بالمن والاذى كما يبطل بالرياء " وكما يذهب الوابل التراب عن الصفا " (١)

وهذا يدلنا على أن تقسيمنا للتشبيهات في القرآن الكريم على تلك الأغراض التي تناولناها بالدراسة والتحليل إنما هو تقسيم بحسب الظاهر وإلا فإن التشبيه في القرآن يتلاحم ويتراحم ويؤكده بعضه بعضاً ولا يمكن فصله إلا للدراسة والموازنة .

وقد يذكر ابن ناقياً المعنى القرآني الذي ورد عن طريق

التشبيه ويورد المعنى نفسه من طريق الحقيقة فيذكر قوله عز وجل :

وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا نَهَزَهَا كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى وَعْقَبًا

ثم يذكر قوله تعالى :

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ

ويقول في تحليلهما وبيان معانيهما : " الثعبان : الحية الضخم الطويل

وأصله من ثعبت الماء ثعباً إذا فجره فسمي بذلك لأنه يجري كجري

الماء عند الانفجار ومعنى " بين " أى بين أنه حيه .

وأما تشبيهه بالجان : فالمراد به أنها في اهتزازها

وخفة حركتها وسرعتها كالجان وهي في صورة الشيطان . . . (١)

كما يقرن بين قوله تعالى :

وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢)

وقوله تعالى :

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكُونٌ (٣)

وقوله تعالى :

* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
مَّنْشُورًا (٤)

وهو هنا لا ينظر إلى المشبه به ولكنه ينظر إلى وحدة

المشبه به مع اختلاف المشبه .

(١) الجمان ص ١٧٤ .

(٢) الواقعة / ٢٣ .

(٣) الطور / ٣٤

(٤) الانسان / ١٩ .

٣ - عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ هـ :

يعد الإمام عبد القاهر الجرجاني أول من فتح باب أسرار التنوع في التشبيه في الشعر بطريق غير مباشر وذلك في موازاته بين الأبيات المتشابهة في المعنى مثل بيت بشار :

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبها

مع قول المتنبي :

يزور الأعمادي في سماء عجاجه
استنته في جانبها الكواكب

أو قول عمرو بن كلثوم :

تبس سنايكم من فوق أروهم
سققاً كواكب البيض الباتير

فقد أشار عبد القاهر إلى أن هذه الأبيات المتناظرة يجمعها معنى عام واحد وهو تشبيه لمعان السيوف في الفبار بالكواكب في الليل، ثم بين أن بيت بشار يفضلها جميعاً ويحلل سر هذه المزية والأفضلية فيقول :
"إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموضع ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره ولا يمكن إنكاره ، وذلك لأنه راعى ما لم

يراعه غيره، وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتى الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغصان وهي تملو و ترسب وتجي* وتذهب . . . وكان لهذه الزيادة التي زاها حظ من الدقة تجعلها في حكم

تفصيل يعد تفصيل . (١)

ولا يكتفى الإمام عبد القاهر بهذا التحليل الواعي الدقيق لسر المزية التي فضل بها بيت بشار بل أنه يذهب إلى أبعد من ذلك وهو قيام هذا المعنى في نفس قائله وكيفية إحاطته به وقدرته على تصور دقائقه فيقول عنه أنه قد نظم هذه الدقائق والمعاني كلها في

نفسه واستغرق في تقصيصها والإحاطة بها ثم أحضر إلينا صورتها بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبية وأكمله وهي كلمة (تهاوى) . (٢)

وهذا هو جوهر الفرق في أسرار التنوع بين تشبيهات الشعراء

وتشبيهات القرآن الكريم . .

(١) أسرار البلاغة ص ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق .

فتشبيهاث الشعراء وراءها هذه النفس التي تتغير عليها
الأحوال فتفاوت قدراتها في تصور المعاني والإحاطة بها لذلك
تفاضل أقوالها وتمايز بلاغتها .

بينما تشبيهاث القرآن الكريم لا تتفاوت بلاغتها وإن تنوعت
صورها واختلفت أسرارها فكل صورة بل كل كلمة في موضعها هي
البليغة وحدها .

٤ - الخطيب الإسكافي ت ٤٢٠ هـ :

تعد كتب المفسرين / هي الحقل الأول الذي نشأ فيه
 وعلماء المتشابه
 الكلام عن أسرار التنوع وذلك لأن هـ لا هـ هم الذين وقفوا عند
 الآيات المتشابهة والمحوا إلى الفروق التي بينها .
 ومن هـ لا هـ الخطيب الإسكافي الذي يقول في مقدمة كتابه :
 " إني منذ خصني الله بإكرامه وعنايته وشرفني بإقراءه كلامه ودرايته ،
 تدعوني دواع قوية يبعثها نظر ورؤية في الآيات المتكررة بالكلمات
 المتفقة والمختلفة وحروفها المتشابهة تطلباً لعلامات ترفع ليس إشكالها
 وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية
 كنهها . . . ففتقت من أكام المعاني ما أوقع فرقانا وصار المبهم المتشابه
 وتكرار المتكررتباناً ولطمعن الجاحدين رداً ولمسلك الملحددين سداً
 وسميته " درة التنزيل وغرة التأويل " . (١)

وسنستشهد بمثلين من تلك الآيات المتشابهة التي ذكرها

في كتابه .

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٧ ، ٨ .

الأول قوله تعالى :

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ①

وقوله تعالى :

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ②

يقول الخطيب : * وللسؤال أن يسأل عن اختصاص هذا المكان بالمؤمنين

واختصاص آخر سورة النمل بالمسلمين * (٣)

ثم تأمل كيف يعلل لذلك بالنظر في سياق كل آية فيقول :

* والجواب قبل ^{أن} هذه الآية في سورة يونس قوله تعالى :

ثُمَّ نُنزِلُ فِي رَسُولِنَا الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقَّقْنَا لِنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ

فقال بعده : وأمرت أن أكون منهم .

أما في سورة النمل فإن قبل هذه الآية منها :

وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ سَمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ

(١) يونس / ١٠٤ .

(٢) النمل / ٨١ .

(٣) درة التنزيل وفترة التأويل ص ٢١٥ .

فكأنه قال : أمرت أن أكون ممن إذا سمع بآياته آمن بها
 وكان من المسلمين الذين مدحوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم يسمعهم
 أى ينتفعون بما يستمعونه منه ، فلما تقاربت اللفظتان وكانتا تستعملان
 لمعنى واحد حملت كل واحدة منهما على اللفظ الذى تقدمها ولاءها* (١)
شاهد آخر :

قوله تعالى في سورة الأعراف :

قَالُوا إِنْ لَنَا لأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ
 الْمُقَرَّبِينَ

وقال في سورة الشعراء :

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ

يقول الخطيب : * للسائل أن يسأل عن زيادة (إذا) في سورة الشعراء
 وخلص سورة الأعراف منها .

والجواب أن معنى قوله (إذا) جواب وجزاء وكان من قول
 فرعون لهم إن غلبتم فجزأى أن أجازيكم بإعلاء رتبكم وتقريب

منزلتكم فلاجل ذلك أفعال هذا بكم ، فاختصت سورة الشعراء
بهذا دون غيرها لأنها موضع بني على فضل اختصاص لما جرى
لم يبين غيرها عليه من نحو ما تقدم وما يجيء بعد* (١)

(١) درة التنزيل وفترة التأويل ص ١٧٣.

٥ - الإمام فخر الدين الرازي ت ٦٠٤ هـ :

اهتم الإمام فخر الدين الرازي بالموازنة بين الآيات المتشابهة في المعنى والغرض، وبين الفروق التي بينها في كتابه المسمى " التفسير الكبير " وإن لم يستقصها كلها على الوجه الذي سلكه الكرمانسي في كتابه (البرهان) والذي تميز بالإيجاز والوضوح .
ومن تلك الآيات المتشابهة التي وُزِنَ بينها الرازي قوله تعالى في سورة الأعراف :

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُفُوا
هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا تُغْفِرُ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْحُسَيْنِينَ ①

وقوله تعالى في سورة البقرة :

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ
ارْغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْحُسَيْنِينَ ②

(١) آية ١٦١ / الأعراف .

(٢) آية ٥٨ / البقرة .

فقد تناول الرازي الفروق التي بينها وأوجه الاختلاف من وجوه

عده نذكر منها قوله : * إن أَلْفَاظَ هَذِهِ الْآيَةِ تَخَالَفَ أَلْفَاظَ الْآيَةِ

التي في سورة البقرة من وجوه :

الأول : أنه قال في سورة البقرة :

وَأَدْخُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ

وهاهنا قال :

وَأَدْخُلْ لَهَا سَكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ

الثاني : أنه قال في سورة البقرة فَكُلُوا بالفاء وهاهنا

وَكُلُوا بالواو .

والثالث : أنه قال في سورة البقرة (رغدا) وهذه الكلمة غير مذكورة في

هذه السورة * . (١)

إلى آخر الوجوه التي ذكرها . في الوجه الأول

ثم يعلل لهذا الاختلاف / بالنظر في معنى الكلمة وكيف أن

الدخول يسبق السكنى ولما كانت تلك السورة تسبق هذه كان الأمر

بالدخول أولا ثم السكن ثانيا ، يقول : * فالفرق أنه لا بد من دخول

القرية أولا ثم اسكنوها ثانيا * . (٢)

(١) ٣٧/١٥ - ٣٨

(٢) المصدر السابق .

ويعلل للوجه الثاني بقوله : " ان الدخول حالة مخصوصة
فما يوجد بعضها يتقدم فإنه إنما يكون داخل في أوله دخولاً
وأما ما بعد ذلك فيكون سكوتاً لا دخولاً .

وإن ثبت هذا فنقول : الدخول حالة منقضية زائلة وليس
لها استمرار فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده، فلهذا قال :

أَدْخَلُوا هَذِهِ الْفِكْرَةَ فَكَلُوا

وأما السكون فحالة مستمرة باقية فيكون الأكل حاصل منه عقبيه
فظهر الفرق . (١)

وهكذا نجد الرازي يعلل لموقع الفاء بالنظر إلى السياق الذي
وردت فيه وصلتها بما قبلها فالفاء هنا للتعقيب لأن الدخول حاله
منقضية .

بينما الواو في (وكلوا) لمطلق الجمع والاستمرار مع السكون
الدائمة لأن النعمة تقتضي دوام السكون مع دوام الأكل .

ثم يعلل للوجه الثالث بقوله : " وأنه ذكر في سورة البقرة (رَغَدًا)
وما ذكره هنا، فالفرق الأكل عقب دخول القرية يكون ألد لأن الحاجة
إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم ولما كان ذلك الأكل الذي لا جرم
ذكر فيه قوله " رَغَدًا " .

وأما الأكل حال سكون القرية فالظاهر أنه لا يكون في محل
الحاجة الشديدة ما لم تكن اللذة فيه متكاملة فلا جرم ترك قوله (رَغَدًا)
فيه " . (١)

وها هنا يعلل الرازي سر الاختلاف بالنظر بجانب السياق
إلى الحالة النفسية التي هم عليها عند دخولهم القرية وشدة حاجتهم
إلى الطعام فلا شك أن الطعام يكون ألد وأطيب عند شدة الحاجة
إليه فأتى عليهم النعمة بذكر كلمة (رَغَدًا) بينما هم في الحالة الثانية
متنعمون يأكلون من حيث شاءوا .

ومن الآيات المتشابهة التي وقف عندها الرازي قوله تعالى

في سورة الأنعام :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ

(١) ٣٧ / ١٥ - ٣٨ .

(٢) الأنعام / ٣٢ .

وقوله في سورة العنكبوت :

(١) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ

فيشير الرازي إلى أوجه الاختلاف بينها وهو أنه سبحانه قال هناك :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا * وقال في سورة العنكبوت * وما هذه الحياة

الدنيا * بزيادة (هذه) ثم يعلل لذلك بقوله : * لأن المذكور من

قبل ها هنا أمر الدنيا حيث قال تعالى : * فأحيا به الأرض بعد

موتها * فقال هذه، والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال بِحَسْرَتِنَا

عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْ زَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ

فلم تكن الدنيا

في ذلك الوقت في خاطره فقال (٢) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .

تأمل كيف أشار (بهذه) إلى قربها وشولها في حسه ولم يشير

في الآية الثانية بذلك لبعدها عنه .

وبهذه الحاسة الذواقة التي قد تستطرد أحيانا وتدفق وتلطف

أخرى وتتأمل في سياق الآيات وفروق الكلمات يعلل الرازي ويوازن ويقارن .

(١) العنكبوت / ٦٤ .

(٢) ٩٢ / ٢٥ - ٩٣ .

٦ - الكرماني (١) :

أفرد تاج القراء الكرماني كتابا في (أسرار التكرار في القرآن) سماه " البرهان في مشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان " وقد حدد منهجه في كتابه هذا حين قال :

" هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن والفاظها متفقة ، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو ابدال حرف مكان حرف أو غير ذلك ما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت ..

وأبين ما السبب في تكرارها والفائدة في اعاتها .." (٢)

ثم أنه يبين الحامل له على هذا العمل فيقول : " لأن الأئمة

رحمهم الله تعالى قد شرعوا في تصنيفه واقتصرنا على ذكر الآية ونظيرتها ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها وهو المشكل الذي لا يقوم باعبائه إلا من وفقه الله لأدائه " . (٣)

(١) محمد بن أبي نصر بن عبد الله الكرماني (مجهول التاريخ) ، صاحب كتاب " شواذ القراءات واختلاف المصاحف " .

النشر ج ١ باب ٣٥ - ٣٦ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٧ - ١٨ .

(٣) المصدر السابق .

ومن هذه الأسرار التي ذكرها في التكرار قوله عن آية

(٦٠) من سورة البقرة (فانفجرت) وكيف أنها وردت فـسـي

الأعراف (١٦٠) بصيغة **وَأَنْجَسَتْ** . ثم يعلل ذلك

بقوله : * لأن الانفجار انصباب الماء بكثرة ، والانجاس : ظهور الماء

وكان في هذه السورة (كلوا واشربوا) فذكر بلفظ بليغ ، وفي الأعراف

(١)

* **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** * وليس فيه (واشربوا) ، فلم يبالغ فيه * .

ومن ذلك قوله في سورة الزمر ، قال تعالى :

(٢) **ثُمَّ يَرْسِلْ جَلَدًا قَدِيرًا مَصْفُورًا يُضَعِّبُهُ وَجِلْدًا حَطَامًا**

وفي سورة الحديد :

(٣) * **ثُمَّ يَكُونُ حَطَامًا** * (٣)

ويعلل الكراني سر ذلك بقوله : * لأن الفعل الواقع

قبل قوله **ثُمَّ يَرْسِلْ** في هذه السورة مستند إلى الله تعالى وهو

قوله :

(٤) **ثُمَّ يَرْسِلْ جَلَدًا قَدِيرًا**

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ٣٠ .

(٢) الزمر / ٢١ .

(٣) الحديد / ٢٠ .

(٤) الزمر / ٢١ .

فكذلك الفعل بعده (ثم يجعله) .

أما الفعل قبله في سورة الحديد فمسند إلى النيات وهو :

(١) **أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَبَأِهِ**

فكذلك ما بعده وهو **ثُمَّ يَكُونُ** ليوافق في السورتين

ما قبله وما بعده . (٢)

(١) الحديد / ٢٠ .
(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٨٥ .

٧ - الفيروزآبادى ت سنة ٨١٧ هـ :

اعتنى الفيروزآبادى بالآيات المتشابهة في القرآن الكريم فسي كتابه المسنى (بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز) وإن لم يستقصها^{كلها} وأفرد لكل سورة ذكرها ففقره بعنوان المتشابهات * .
فمن ذلك قوله في سورة المنافقين :

* المتشابهات قوله تعالى :

(١) **وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**

وبعده : (لا يعلمون) ، لأن الأول متصل بقوله تعالى :

وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وفي معرفتها غموض يحتاج إلى فطنة والمنافق لا فطنة له ، والثاني متصل بقوله :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

أى لا يعلمون بأن الله معزلاً وليائه ومذلل لأعدائه * . (٢)

وقال في سورة المؤمنون :

(٣) **لَكُمْ فِيهَا قُوَاكُهُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ**

(١) المنافقون / ٧٠

(٢) بصائر ذوى التمييز / ١ / ٤٦٥

(٣) المؤمنون / ١٩٠

(فواكه) بالجمع و (منها) بالواو وفي الزخرف (١) (فاكهة) على التوحيد (منها تأكلون) بغير واو .

ثم يعملل الفيروزابادي لذلك بقوله : * راعى في السورتين لفظ

الجنة وكانت في هذه (جنات) بالجمع فقال (فواكه) بالجمع .

وفي الزخرف * وتلك الجنة * بلفظ التوحيد وان كانت هذه الجنة

الخلد لكن راعى اللفظ فقال (فيها فاكهة) وقال في هذه السورة

بزيادة الواو لأن تقدير الآية : منها تدخرون ومنها **وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**

تأكلون ، ومنها تبعون ، وليست كذلك فاكهة الجنة فانها للاكل

فقط . فلذلك قال : (منها تأكلون) ووافق هذه السورة ما بعدها

أيضا ، وهو قوله تعالى :

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ

فهذا للقرآن معجزة وبرهان * . (٢)

(١) الزخرف / ٧٣ .

(٢) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٣٣٠ .

الفصل الأول :

التشبهات التي تمثل الحياة الدنيا
وأسرار تنوعها .

المدخل :

ورد ذكر الحياة الدنيا وأحوالها في القرآن الكريم في موضع كثيرة منه، جاء بعضها على طريق التشبيه والتشليل، وبعضها الآخر على غير طريق التشبيه أي بأساليب متنوعة تتلاءم مع السياق الذي وردت فيه، بين فيها سبحانه أن متاعها مهما عظم فهو في الآخرة قليل

فَمَا تَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ① وَأَنَّ مَتَاعَ الْغُرُورِ ② وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَمٌ ③

وأنها قد غرت أقواما فأهلكتهم وأن سبب غرورهم بها اطمئنانهم إليها وطمعياتهم فيها وإنكارهم للبعث وظنهم أنها هي حياتهم الدنيا -

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ④

لذلك حذرنا منها غاية الحذر فقال :

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ⑤

كما جاء وصف زهرتها في الحديث النبوي الشريف إن يقسول

عليه الصلاة والسلام :

(١) التوبة / آية ٣٨ .

(١) الحديد آية ٢٠ .

(٢) الأنعام آية ٢٩ .

(٤) لقمان آية ٣٣ .

(إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ) (١)

وكان أخشى ما يخشاه عليه الصلاة والسلام على أمته ما يفتح

لهم من زهرتها وزينتها :

(إِنَّ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يَفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا
وَزِينَتِهَا) (٢)

وذلك لما سيؤدى إليه هذا الانفتاح من التكالب على نعيمها
والتنافس في متعها والتكاثر والتفاخر بزینتها ومن ثم التحاسد والتدابير
والتباغض والانشغال بهذه المتع عن طاعة الله .

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام في حديث طويل :

(فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَبْسُطَ الدُّنْيَا
عَلَيْكُمْ كَمَا بَسَطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتَهْلِكُكُمْ كَمَا
أَهْلَكْتَهُمْ) (٣)

(١) رواه مسلم ٢ / ٢٧٤ .

(٢) متفق عليه ، البخارى ٣ / ٢٥٨ .

(٣) مختصر صحيح مسلم ، تحقيق ناصر الدين الألبانى ص ٥٥٣ .

وقد جاء بيان أحوال الدنيا وسرعة انقضائها مع قوة استمرار
الإنسان بها عن طريق التشبيه والتشيل في مواضع معدودات من القرآن
الكريم جاء في سورة يونس قوله تعالى :

إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَذَا أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ①

وجاء في سورة الكهف : وَأَضْرِبْ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

كَمَاءٍ أُنزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا
تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا ②

وجاء في سورة الحديد :

أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ
وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكِبْرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ
أَجْعَبَ الْكُفَّارِ نَبَأُهُ رِثْمٌ يَمْشِي فَرَّارُهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا
وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا لَمَعَةٌ فِي الْغُورِ ③

(١) يونس آية ٢٤ .

(٢) الكهف آية ٤٥ .

(٣) الحديد ٢٠ .

ويلاحظ أن هذه التشبيهات تشترك في معنى عام وهو تقرير وتأكيد أن الحياة الدنيا آيلة إلى الفناء سريعة الانقضاء ، ومع ذلك فالإنسان قوى الفتنة / غافل عن حقيقتها وقد تحمله فتنته واغتراره بها إلى أن يظن القدرة عليها أو يفاخر بها على فقراء المسلمين ، أو يشغله العجب بها عن طاعة الله والإنفاق في سبيله حتى تنتهي هذه الدنيا وتتجلى حقيقتها الفانية إما بعقوبة من الله أو باستدراج الله لهم .

كما يلاحظ أن هذه التشبيهات تشترك في عناصر عامة هي الماء النازل من السماء ونبات الأرض المختلط به ، والفناء الذي يؤول إليه بعد زهوه ونضارته .

وتنفرد كل صورة من صور التشبيه بعد ذلك بعناصر خاصة تتلاءم مع السياق الذي وردت فيه .

وفي هذا الفصل سوف أجتهد في بيان مناسبة كل تشبيه لسياقه لأننا نعرف ابتداءً أن كل تشبيه جاء مطابقاً لسياقه ، وهذا لا يحتاج إلى إثبات لأنه ثابت ببلاغة القرآن فضلاً عن إعجازه . وإنما الذي أحاوله هو بيان هذه المناسبات وأسرار تنوعها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا
أَمْرًا نَافِلًا وَأَوَّاهَا رَاغِبَةً فَاصْبِرْ إِنَّهَا كَانَتْ تَمْتَعُ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ①

(١) الآية ٢٤ من سورة يونس .

من أسرار المناسبة :

يقول العلامة الإمام البقاعي رحمه الله تعالى (١)

ما ملخصه :

* ان الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تتنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقضي البلاغة شفاء الغليل ، بدفع عنا الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فإذا عقلت تبيين لك وجه النظم مفضلاً في كل آية ، وآية في كل سورة * .

ويقول الإمام البقاعي :

* وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة أن اسم كل سورة مترجم (دال) على مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين سماه (عنوانه الدال اجمالاً على تفصيل ما فيه) ومقصود كسل سورة هاد إلى تناسبها * . (٢)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور حـ / ١٨ / ١ - ١٩٠

(٢) نظم الدرر / ١٨ / ١ - ١٩٠

وقد علق الدكتور محمد محمد أبو موسى على هذا النص بقولسه

ما ملخصه :

* والنظر هنا يَنفَعِل في جهات أربع :

الأولى : نظرفي الغرض واستكشافه وتحديده ، وليس هذا بالأمر الهين لأنه لا يظهر إلا بفحص الكلام كلمة كلمة ، وتركيبا تركيبا ، وصورة صورة .

والجهة الثانية : النظر في المقدمات ، يعني معرفة منازل المعاني ومراتبها في ضوء المعرفة الواضحة للغرض الذي انعقد عليه الكلام وبهذا نوضح المعنى الذي هو بمثابة الأصل والمعنى الذي هو مهاد ووطاء وهذا باب من النظر يحتاج إلى مراجعة وأناة .

والجهة الثالثة : أن تنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المقصود يعني العلاقة بين المقدمة والمطلوب . . .

وهذا في الشعر يفيد أن الحديث عن الطلل والرحلة والصاحبة في قصيدة المديح غير الحديث عن الطلل والرحلة في قصيدة الهجاء ومدائح الكتاب والعلماء غير مدائح غيرهم وهكذا . . .

والجهة الرابعة : هي النظر في حركة الكلام وكيف تشير في سيرتها هواجس وأحوالا وأشجانا نرى الكلام يقف عندها ويتغفل

حتى يشبع أحوال الاستشراق هذه وذلك وفاءً لحسب
البلاغة كما قالوا وهو جيد لأنه استكشاف حالة المجازية
بين اللغة والنص". (١)

وإذا ما عدت إلى الآية الكريمة الواقع فيها المثل وجدت
أن من الدوافع العامة /تقتضي إبراز هذا المعنى في صورة المثل أن هذا
المعنى ما تقع الغفلة فيه ، غفلة لا توقظها اللغة المجردة ، فأكثر
أهل الأرض غافلون عن حقيقة هذه الحياة الدنيا مغترون بها ، هذا
إلى جانب أن تقرير هذا المعنى وتوكيده في النفس يمثل ركنا من أركان
الإيمان ، فالوقوف على حقيقة هذه الحياة الدنيا واليقين بسرعة انقضائها
وقلة بقائها ، ما يحمل النفس على الإقبال على الدار الآخرة ، والتأهب لها .
ولا سبيل إلى تحريك هذه الدوافع وإيقاظ تلك الغفلة إلا بفتح
باب من العيون إلى مكان العقول من قلبك يجعلك تبصر هذه الحياة
الدنيا في إقبالها وإدبارها ماء ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض
فإذا هو موني مغدق ، وإذا به قوام حياتك * حتى إذا أخذت
الأرض زخرفها وازينت * فإذا هي عروس فاتنة تسبي الأرواح وتأخذ
بمجامع القلوب ، وإذا الإنسان أسير فتنها وهو يظن أنه أسرها ومالكها
والقادر عليها قنطرة لا يشوبها فتور ولا وهن ، فيطفئ ويبقى فسي
الأرض ويففل عن الدار الآخرة والتأهب لها ، وسرعان ما يأتي أمر الله

(١) مقدمة البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ؛ د / محمد محمد أبو موسى

الطبعة الثانية ، مكتبة وهبه ص : ١٤ ، ١٥

فيحصد جذور هذه الحياة الدنيا ، ويظفي* هذا الوهج المتألق ويجعلها

حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأُمْسِ

ومن خلال هذا التشيل البديع ترى وتسمع وتفكر وتجسد
وتعقل وتحس ، حتى يتقرر ذلك في النفس أبلغ قرار وأكده وقد نفذ
إليها من منافذ شتى لا من منفذ الذهن وحده وباللغة المجردة .

وعند النظر والتأمل لسياق الآيات في سورة يونس قبل بد*
المثل يتبين لنا كيف تشهد الآيات السابقة لهذا المعنى وتوظي* له .

يقول عز وجل :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ①

هذا القول الكريم يوحى بأنهم لا يألمون لقاء* الله بالبعث
والإحيا* وآثروا هذه الحياة الفانية واطمأنوا إليها وانكبوا عليها قاصرين
مجامع همهم على لذائذها وزخارفها* . (٢)

وفي لفظ الاطمئنان ما يوحى بالغفلة والبعد والإغراق .

وفي قوله عز وجل بعد :

فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ②

(١) الآية ٧ من سورة يونس .

(٢) أبو السعود ١٢٢ / ٤ .

(٣) الآية ١١ من سورة يونس .

استدراجاً من الله سبحانه وتعالى وإمهالا للكافرين الغافلين
عن البعث والجزاء ، حتى يظن الظان منهم أنه ليس بمعذب وإنما هوفي
مهلة ثم يوءخذ على غرة منه .

وفي قوله عز وجل بعد :

كَذَلِكَ نُزِّلَ الْكِتَابَ فِي مَآكِنَ الْأَعْيُنِ ①

فيه من أسباب تعاديبهم في الغفلة والبغي والإسراف ما يزيّن
لهم سوء أعمالهم .

ثم يعقب ذلك قوله عز وجل :

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَ بِكُمْ
بِسُوحٍ طَيْبَةٍ وَرَجَوْا بِهَا جَاءَ تِيَّارٌ مِّنْ عَاصِفٍ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
لَئِن بَدِئْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكِرِينَ ② فَلَمَّا أَتَجَّهُمُ إِذَا هُمْ
يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ③

يصف جحود الإنسان الكافر وكنوده لربه ، وشدة افتتانه
بالحياة الدنيا وأن فطرته التي فطره الله عليها لا تصفوا ولا تتجلى إلا في

(١) الآية ١٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

وقت الشدائد والمحن عندما يحاط به ثم لا تلبث أن تغالطها الشهوات والشبهات وعبادة غير الله ، حينما يشعرون بالأمن ويمتد بهم الزمان فيطغون ويبغون في الأرض .

ثم تأمل كيف فعلوا هذا النداء * يَا أَيُّهَا النَّاسُ * بمافيه

من التهديد والبالغة في الوعيد ، ليكشف لهم حقيقة نعيمهم وأن العاقبة عليهم وأن ما هم فيه من المتعة والمنفعة العاجلة شي لا يعتد به سريع الزوال دائم الوبال * ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ * تأمل ما وراء "ثم" التي توحي بتراخي العسر عليهم وأن هذا التراخي استدراج من الله لهم ، ثم * فَتَنَّبِعْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * في الدنيا من الاستمرار في البغي وهو وعيد بالجزاء والعذاب .

وهكذا يوطن سباق الآيات لهذا التثليل ويقتضي هذا التحليل والتفصيل والذي يكشف لهم القناع عن حقيقة هذه الحياة الدنيا وحالها " العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها فسي سلك الأمثال، في سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غبا إقبالها واغترار الناس بها بحال ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يسبق لها أثرا أصلا بعدما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتفتت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح .^(١)

وقد ذكر أهل العلم في أسرار مناسبتها ووجوه شبهها كلاما

فقالوا :

قال الزمخشري : "شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها

وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه

حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرتها ورفيفه". (١)

وقال أبو حيان : " ومناسبة هذه الآية لما قلها أنه تعالى

لما قال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ضرب مثلا عجيبا غريبا للحياة الدنيا يذكره من يبغى فيها على سرعة

زوالها وانقضائها وأنها مجال ما تُعز وتسر تضمحل ويؤول أمرها إلى

الفسار". (٢)

وقال ابن القيم : " شبه الحياة الدنيا في أنها تتزين فسي

عين الناظر فتروقه بزینتها وتمجبه فيميل إليها ويهاها اغترارا بها حتى

إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها

وحيل بينه وبينها". (٣)

(١) الكشاف ٢/٢٣٣٠

(٢) البحر المحيط ٥/١٤١٠

(٣) التفسير القيم للإمام ابن القيم ١/٣٠٥٠

وقال الفخر الرازي : " اعلم أنه تعالى لما قال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَجَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَمَتَّعْتُمُوهَا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

أتبعه بهذا المثل العجيب الذي ضربه لمن يبغي في الأرض ويفتر بالدنيا ويشدد تسكه بها ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها". (١)

وقال الإمام البقاعي : " ولما كان السياق لإثبات البعث

وتخويفهم به وكانوا ينكرونه ويعتقدون بقاء الدنيا وأنها إنما هي أرحام تدفع وأرض تلبع دائما بلا انقضاء فهي دار يرضى بها فيطمئن إليها وللتفكير من البغي والتعزز بغير الحق وكانت الأمثال أجلى لمحال الإشكال قال تعالى مثلا لمتاعها قاصرا أمرها على الفناء ردا عليهم في اعتقاد دوامها من غير بحث". (٢)

(١) تفسير الفخر الرازي ٧٦/١٧

(٢) نظم الدرر ١٠١/٩

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى: **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ①** جاءت هذه الآية الكريمة بمنزلة البيان لجملته "متاع الحياة الدنيا" في الآية السابقة .
فلذلك لم تعطف على ما قبلها وإنما قطعت واستأنف بها ، وأنت "إنما" هنا لتشير إلى أن قصر الحياة الدنيا على هذا المثل المصور لبدايتها ونهايتها ، أمر واضح معلوم لا يجوز لذي عقل أن ينكره ، فما أشد جهل أولئك الغافلين عن هذه الحقيقة المطمئنين لهذه الحياة الدنيا المنكرين للبعث والجزاء . إن الأصل في الأداة "إنما" أن تأتي فيما هو معلوم وغير منكر ، كما أنها توحى بالتمريض بغفلة هؤلاء القوم وجهلهم وهون أجل مواعظ "إنما" وأغلقها بالقلب .

والقصر هنا قصر قلب يبنى على تنزيل المخاطبين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا فقلب عليهم المثل القرآني اعتقادهم وبصرهم بخطأ تصورهم .
(٢)

وقد التمس هذا على أبي حيان ، فنفى أن تكون "إنما" للحرص فقال : " وإنما هنا ليست للحرص لا وضعا ولا استعمالا ، لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالا غير هذا " .
(٣)

(١) انظر آية ٢٣ ، سورة يونس .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١١ / ١٤١ .

(٣) البحر المحيط ٥ / ١٤١ .

ولو أنه راعى السياق الذى وردت فيه "إنما" لما فاتته ذلك
(رحمه الله) لأننا لو نزعنا من "إنما" إفادتها القصر وجعلناها
للتوكيد فقط لأننا قد را عظميا من المعنى المقصود من إيرادها وهو حسم
شبهة المنكرين ، والتعريض بغيابهم وغلتهم . ولما كان وراء ذلك
أكثر من إثبات هذه الصفة للحياة الدنيا وليس هذا المراد فحسب ،
وإنما المراد هذا النفي بعد الإثبات المستفاد من إنما وهي نفي أن تكون
الحياة الدنيا كما توهموها فانكبوا عليها وتعلقوا بها وهذا هو محض المعنى .
والمشبه : حال الحياة الدنيا في سرعة انقضائها وانعدام نعيمها غيب
إقبالها واغترار الناس بها .

والمشبه به : هو الصورة المكونة من ماء ينزل من السماء فيختلط

به نبات الأرض فيزهو النبات ، وتتزين به الأرض ثم يصبح فنا .

والمثل : " الحال المائلة على هيئة خاصة " ، « وأصل الشول

الانْتِصَابُ وَالْمَثَلُ الْمَصُورُ عَلَى مِثَالِ غَيْرِهِ ، يُقَالُ مَثَلُ الشَّيْءِ أَيَا انْتَصَبَ
وَتَصَوَّرَ ، وَالْمِثْلُ عِبَارَةٌ عَنْ قَوْلٍ فِي شَيْءٍ يُشْبِهُ قَوْلًا فِي شَيْءٍ آخَرَ بَيْنَهُمَا
مِثَابَةٌ لِيَبِينَنَّ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ وَيَصَوِّرُهُ وَهُوَ أَعْمُ الْأَلْفَاظِ الْمَوْضُوعَةِ
لِلْمِثَابَةِ " . (١)

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب - مادة (م ث ل) .

ثم تأمل مشول الحياة الدنيا وانتصابها بين يديك ، بعد أن كانت
معنى مضمراً في نهنك ، وما وراء ذلك من قوة الإحساس بها ورويتها
مقبلة مدبرة وتوكيد هذا في النفس أبلغ توكيد .

"لأن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي
وتأنيها بصريح بعد مكنن" . (١)

وقوله تعالى : الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

" تعنى مدة الحياة الناقصة غير الأبدية ، لأنها مقدر
زوالها ، فهي دنيا ، وتشمل مدة بقاء الأشياء الحية ، ومقاة الأرض ، وقد
تعني مدة حياة الأقران أى حياة كل أحد ، ووصفها بالدنيا لقربها ،
أى الحاضرة غير المنتظرة كنى عن الحضور بالقرب" . (٢)

وفي هذا الوصف إشارة إلى نقصانها وقربها وزوالها وأن هناك
حياة أخرى تقابلها لها الكمال والبقاء .

وقوله تعالى :

كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ

وَالْأَنْعَامُ ﴿١٠﴾

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٢

(٢) التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣١

وراء اختيار هذه العناصر المكونة لصورة المشبه به ما وراءها من

اللطائف والدقائق .

ففي تنكير كلمة " ما " تشرىف وتعظيم لهذا الماء الذى به يد

الحياة ، وسأيوء كد هذا المعنى قوله " أنزلناه " إن لا يذكر القرآن

هذا الفعل بهذه الصيغة إلا في مواضع التشرىف والتكرىم والتعظيم كقوله

تعالى :

(١) **وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارَكٌ**

وقوله : **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** (٢)

وفي قوله : " من السماء " تأكيد لسو هذا الماء وطهارته

ونقاؤه وعلو مصدره .

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

" خَلَطَ مخالفٌ لَخَلَصَ مُضادٌ له ، تقول خَلَطْتُ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ

فاختلط ، والخليطُ المجاور ، ويقال : الخِلْطُ ؛ السُّمُّ يَنْبِتُ عودَهُ على

عَوْجٍ فلا يَزَالُ يَتَمَوَّجُ وَإِنْ قَوْمٌ وهذا من الباب لأنه ليس يَخَالِطُ في

الاستقامة " . (٣)

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنعام .

(٢) سورة القدر آية ١ .

(٣) المقاييس مادة (خلط) .

وقد يوحي هذا النص بأن النفس تولد على الفطرة ثم يخالطها
من المطامع والشهوات ما يشوب صفاً فطرتها ، وسياق الآيات الماضية
أرانا كيف تعود هذه الفطرة إلى التجلى والصفاً عندما يحاط بها فتخلص
الدين لله ، ثم كيف تخالطها الشهوات عندما تأمن مكر الله ويطول عليها
العمر .

وقد اختلف العلماء في معنى (الباء) في قوله
تعالى :

فَأَخْتَلَطُ بِهَا نَبَاتُ الْأَرْضِ

أهي للمصاحبة أم للسببية ؟ وهم باختلافهم هذا يفسحون معنى الكلمة
ويستخرجون ودائعها ، لأن الكلمة القرآنية رحبة سخية لا ينتهي عطاؤها ،
لأنها كلام الله ما دامت تلك المعاني لا تتضارب ولا تخرج عن مقتضى
السياق .

ومعنى المصاحبة : أن النبات اختلط بالماء نفسه فهو يجرى
فيه مجرى الغذاء ويخالطه . (١)

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١١ / ١٠٠ .

خذ مثلاً قول أبي حيان : " في معنى (الاختلاط) وأنه تشبث النبات بالها، وتلقفه إياه، وقبوله له لأنه يجري مجرى الغذاء، وكيف خالطه وداخله ففزي كل جزء منه . (١)

وما يفيض به هذا الجزء من المشبه به على المشبه من فيوضات فهذه الباء توحى بتشبث الإنسان بهذه الحياة الدنيا وتعلقه بهـسا وقبوله لها، وهي تجرى منه مجرى الدم. فأرضها مهاده، وسواها هـا دناره ومنها خلق وفيها يعاد ومنها يخرج تارة أخرى .

بينما يذهب الزمخشري وغيره من المفسرين إلى أن " الباء " هنا للسببية والمراد : اشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا " (٢) فتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجرائم " (٣)

وكلمة " نبات الأرض " : توءكد معنى الضعف والظراوة ثم ما آل إليه حاله بعد اختلاطه بالماء فزال وامتد وقوى واشتد وتكاثف وتكاثر واشتبك بعضه ببعض .

وهذا الجانب من المشبه به : يوحى بنضارة الميش ونعيمه وإقبال زهرة الحياة، وكيف تألقت نضرتها في العين وأشرقت بهجتها في النفس فأقبل عليها الإنسان وافتتن بها .

(١) البحر المحيط ٥/١٤١ .

(٢) الكشاف ٢/٢٣٣ .

(٣) أبو السعود ٤/١٣٧ .

فتأمل كيف استأنس الماء نبات الأرض ، فلان له واخفظ به أو
كيف أسرع في بعث الحياة ، ولا زال الجورطياً نديا فتكاثر النباتات
وتكاثف .

هذا ما توحى به الفاء في قوله " فاخفظ به " والتي تحوّن
بسرعة نماء الحياة وإقبالها ، وإن كل ذلك مترتب على نزول الماء . (١)

وقوله عز وجل :

مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

تأمل قيمة هذه الجملة التي أتت لتصف حال هذا النبات ، فليس هو
النبات الذي يبيح منظره وتسره النفوس فحسب ، وإنما هو فسوق
ذلك النبات الذي به قوام حياة الناس والأنعام ، لأن النبات كما يقسول
علماءنا ينقسم إلى مأكول وغيره (٢) ، والآية أجلت قيمة هذا النبات
وأوحت بالرغبة العارمة والتعلق الشديد بما هو قوام حياتهم ، ويقابل
ذلك التعلق الشديد بهذه الحياة الدنيا .

وسا يزيد هذا التعلق والرغبة فيه كثرة هذه النعم ووفرتها
وسخائها تأمل هذا حين تكون الأنعام مشاركة للناس في الأكل تجسد

(١) انظر التحرير والتنوير ١١/١٤٢ .

(٢) انظر البحر المحيط ٥/١٤٢ .

هذا في القرآن عند التذكير بنعم الله على خلقه :

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى
كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ①

ولكن شدة فرق دقيق بين قوله تعالى :

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ

وقوله : مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

إذا أردت أن تتف علىه فتأمل هذه الإضافة المفصحة عن أن
الأنعام سخرة مذلة لهم ، لأنها أنعامهم ، وأنهم المالكون لها القدر
عليها وما وراء ذلك من التكريم لهم .

ووازن بينها وبين هذه المشاركة في الفعل مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

والتي توحي باستوائهم في التمتع والتلذذ بنعم هذه
الحياة :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ②

وما وراء ذلك من الازدراء والإهانة والتحقير حين لا يكون هم الناس إلا
متاع الحياة الدنيا .

(١) الآية ٥٣ ، ٥٤ من سورة طه .

(٢) سورة محمد آية ١٢ .

ولو أنه أراد سبحانه وصف تنوع المأكَل لقال : (سَيَأْكُلُ
النَّاسُ وَيَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) ولكن هذه المشاركة في الفعل أوجت بهذه
المخالطة في طلب المتعة والتلذذ .

والتعبير بالأكل عن التمتع بالحياة تعبير سخي جدا يجسم
في الخيال صورة حسية لهذا التمتع ، يشارك في إدراكها الحس والذوق
وهو أبلغ في الإحساس ، مما يؤدى إلى تعميق هذا في النفس الحية ،
ومن ثم ترغيبها عنه .

وهذا الالتفات في صيغة الفعل (يَأْكُلُ) من الماضي السدى
عليه نسق الآيات إلى المضارع . فيه إيقاظ ولفت وتنبيه إلى ضرورة التأمل
والتفكر في هذه الصورة الحافظة بالحركة ، والسعي الحثيث المتجسّد
في طلب التمتع ، ترى فيه الناس والأَنْعَام لا يفتأون منكبين متهاككين ،
يأكلون كما أفاقوا من لذة فزعوا إلى أخرى في حرقة ونهم بالغ وعشق
حارق للحياة .

وإذا راجعت المثل واستقصيت التأمل ، وجدت أن المثل
يحكي قصة مضت وانتهت ويتحدث عن حياة قامت ثم بادت ، ولكن هذه
اللقطة " ما يأكل الناس والأَنْعَام " تظل تنبئ بالحركة ترى فيها
الناس والأَنْعَام لا يزالون يأكلون ، ولكن ماذا يأكلون ؟

يأكلون الحصيد و يأكلون الفناء ! !

نقلة نفسية عظيمة ترينا ما سوف يقع بأنه واقع الآن وأمام أعيننا
فهولا محالة واقع .

وأما قوله تعالى :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ ①

* ففي معنى الغاية المستفاد من (حتى) ما يؤيد أن بين بدع ظهور لذات الحياة الدنيا وبين منتهاها مراتب جملة وأطواراً كثيرة طويت في معنى حتى * . (٢)

وهذا من بديع إحكام هذا النظم الشريف وجليل سبكه وكيف يرتبط الكلام بعضه ببعض ، ويتناول الزمان في ذلك الفعل حتى يصل ما قبلها بما بعدها ، ويجعل ما بعدها غاية لما قبلها ولا يكون ذلك إلا باحدى وجهين إما بتقدير محذوف :

* أي فما زال ينمو حتى إذا *

أو يتجاوز في (فَاخْتَلَطَ) أي فدام اختلاط النبات بالماء حتى إذا * . (٣)

وراء ذلك ما وراءه .

فقوله * فما زال ينمو حتى إذا * وراءه توغل جذوره وكثرة قطوعه وقوة تماسكه + وراءه * فدام اختلاطه بالماء حتى إذا * بقاء نضارته وبهيجته ودوام طراوته وفتنته .

-
- (١) يونس آية ٢٤ .
(٢) التحرير والتنوير ١١/١٤٣ .
(٣) انظر البحر المحيط ٥/١٤٢ .

وورا ذلك إلا من إلى هذه التي تقوت بعد ضعفها بحيث طمع

الناس فيها وطمئنا أنها سلمت من الجوائح .

يقول صاحب التحرير والتنوير : " والقول في (حتى إذا أخذت

الأرض زخرفها) كالقول في قوله **حَتَّىٰ إِذَا أَكْنَمْتُمْ فِي الْفَلَاحِ** وهو

غاية ، شبه بها بلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه ونضوجه وتمامه ،
(١)
وتكاثر أصنافه وانهماك الناس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء ."

ولا يفوتك وأنت مسحور بهذا الكلام الذي قال عنه علماءنا :

" إنه أعمى من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر " . أن تقصف^(٢)

أمام هذا التعبير في أداة الشرط (إذا) فترى كيف أكسب الكلام قوة

أسر ، وشدة تلاحم ودقة سبك وأحالة من الخبر إلى تحقق الوقوع ، وعقد

آخره على أوله وجعل بعضه آخذاً بحجز بعض .

ولو قيل **حَتَّىٰ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا** لانحلت عقدة

الكلام وانفصمت عراه وتناثرت لآله وذهب ماؤه .

وهذه الجملة وهي قوله عز وجل :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ

وقف عندها المفسرون وقالوا عنها : إنها " كلام فصيح وجملة بديعة

اللفظ ، جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة ، وذلك على جهة التمثيل بالمعروس ،

إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتست وتزينت بأنواع الحلبي^(٣) ."

(١) التحرير والتنوير (١١/٤٣) ، ص ١٠٠ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٨٦ .

(٣) البحر المحيط ١٤٢/٥ وانظر الكشاف ٢/٢٣٣ .

فالمعنى مبني على استعارة وهي لينة في هذا المثل ما يجعله
أخصب وأشد تأثيراً وأقوى إيحاءً، لأن هذه العناصر البلاغية إنما تدمج
بعضها في بعض عندما تتكاثف المعاني وتتكاثر وتكون من الغزارة والوفرة،
بحيث لا يوجد سبيل للإبانة عنها إلا هذا، ولأن التعبير بها في
هذا الموضع، أغزر وأبين وأمكن، وهذه سمة من سمات الإعجاز في القرآن
الكريم ترى فيه هذه الصور البيانية لا تأتي توشيحاً ولا حلية لفظية،
وإنما تأتي في موضع لا يتم المعنى إلا بها، فتجد كل جملة في موضعها
بليغة .

ثم ماذا وراء هذه العروس التي أخذت الثياب الفاخرة من كل
لون واكتست وتزينت بأنواع الحلى والفتنة إلا تصويراً دقيقاً بالغ لحس
هذه النفس الغافلة والمفتتنة بهذه الحياة الدنيا .

أرأيت كيف تصل هذه اللغة الشريفة العالية إلى مضررات النفوس
وتتغرس في جذور القلوب لتبين عما يتراءى لها وتتوهمه، وكيف تتكاثف
عناصر التعبير تبعاً لقوة الإحساس بهذه الحياة الدنيا، وطفيانسه
على الناس، فإذا الأرض لم تعد أرضاً، بل غادة حسناء ترفل في شوب
عرسها .

ليس هنا تشبيه، لأن في التشبيه إيحاء بأن ثمة فرق
بين المشبه والمشبه به يحتفظ كل منها بخصائصه وحقيقته أما في
الاستعارة فوهم بالغ يغلب النفس " ترى فيه الجماد حياً ناطقاً والاعمج
فضيحاً والأجسام الخرس مبينة والمعاني الخفية بادية جليلة " (١)

ثم دع الخيال يتلمس ما وراء ذلك من شدة التعلق واستغراق القلب والمبالغة في الحفاوة والأُنس .

وإذا ما عدنا إلى الآية الكريمة ، وجدنا مفرداتها تتضافر جميعا لتوكيد هذا المعنى .

تأمل كلمة (أَخَذَتْ) وهل تجد كلمة تعطى عطاءها في هذا الموضع . " فالأخذ هو التناول باليد " (١) ووراءه القوة والقدرة والتمكن " والأخذ حَوَزَ الشَّيْءِ وَجَبَّهُ وَجَمَعَهُ . (٢)

ووراء هذا إيحاء بأن هذه العروس إنما تأخذ في أخذها القلوب وتسبى العقول وتستولى على النفوس لشدة اغترارهم بها .

ولو نزلت هذه الكلمة من مكانها ثم أبدلت بما يراد فيها لا نطقاً بهذا المعنى ، ولفظ القرآن أبلغ وأمكن .

والزخرف : " الزينة المزوقة ومنه قيل للذهب زخرف " (٣)

والمراد : " حسنها وهجتها " (٤)

(١) البحر المحيط ١٤٢/٥ .

(٢) المقاييس مادة (أخذ) .

(٣) المفردات للراغب مادة (زخرف) .

(٤) روح المعاني ١٠٠/١١ .

ومع هذه اللفظة يُشيع القرآن جواً ساحراً آخذاً يكاد يخطف
الأبصار بريقه وتألقه وكمال حسنه وفي إضافة الزخرف إليها دليل علس
يلغ احتفائها به .

وقوله تعالى : (وَأَزَيَّنَّتْ) : استيفاءً لأبعاد هذه الصورة الفصيحة
اللفظ عن بديع معناها وذلك بترشيح الاستعارة وإشاعتها وفي ذلك
إيغال في الوهم وزيادة في الافتتان ، وإغراق في البعد والغفلة .

وفي عطف (وَأَزَيَّنَّتْ) على قوله : " أخذت الأرض زخرفها " تأكيد
لما قبلها لأنك حين تتأمل المعنيين ، تجدهما من باب واحد ، وهذه الواو
الموءونة بتغايرهما كأنها أوهمت أن قوله (وأزينت) صفة جديدة مغايرة
للتى قبلها ، ومستقلة في إبراز حالة أخرى من حالات هذه العروس وهي
حرصها العميق على هذا التزين لما وراءه من تأثير وفتنة .

وما يوه كد ذلك صيغة الفعل ، وكيف داخلها الإدغام
الموحى بأنها تختفي بهذه الزينة وتحتفل بها ، وكان هناك نوعان من
الزينة ظاهر جلي ومدغم وخفي . (١)

وقد يكون قوله " وأزينت " والله أعلم من عطف الخاص على العام
وفي تضعيف حرف الزاي في " وأزينت " ما يوحي بأن هذه الأرض تكاثفت
فيها الزينة وتضاعف فيها الرونق .

(١) انظر نظم الدرر ٥/٨٧ .

وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا

وكلمة (ظَنَّ) في اللغة تأتي بمعنى الشك كما تأتي بمعنى " اليقين " . (١)

والسدى يظهر لي - والله أعلم - أنها لا تضيق عن هذين المعنيين مجتمعين فقوله عز وجل : * وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا * يقين مابعده يقين بالقدرة عليها والتمكن من تحصيل منفعتها ورفع ظلها وذلك لحسن نموها وسلامتها من العاهات . (٢)

وسا يوء كد هذا اليقين قوله :

أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا .

تأمل كل هذه التأكيدات من أن واسعة الجملة ، واختيار لفظ القدرة ، كل ذلك يدل على قدرتهم الدائمة عليها ، والتي لا يمتريها فتور ولا وهن وأن ذلك اليقين بالقدرة الدائمة عليها صادر من أهلها ، أي من خالطوها وألفوها زمناً أزال وحشتم بها وغربتهم فيها ، فأصبحوا من أهلها وما وراءه من الأئس بها .

وهذا المعنى يتلأم مع السياق السابق الذي ترى فيه أولئك الغافلين " يبيفون في الأرض " أي يسرعون في الفساد فيها متجاوزين كل حد .

(١) المفردات للراغب مادة (ظن) .

(٢) انظر الكشاف ٢٢ / ٢٢٣ .

فيقول الراغب : " وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا " تنبيهه
على أنهم صَارُوا فِي حُكْمِ الْعَالَمِينَ لِفِرْطِ طَمَعِهِمْ وَأَمَلِهِمْ " (١)

فإذا ما عدنا إلى هذا اليقين الذي خالط قلوبهم نجد أنه
مبني على الظن وغلبة الهوى وما سولته لهم أنفسهم حتى استيقنته قلوبهم
تأمل بناء الجملة كيف بنيت هذا اليقين على الظن فعبرت بهيئتها
عن معانيها .

ثم تأمل كيف ينهار هذا اليقين والظن البالغ الذي بنوه على
شفا جرف هار ، أمام إتيان أمر الله بغتة .

أَتَمَّ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَا حَاصِدًا كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ

ومعناه " نزل بها ما قدرناه من العذاب وهو ضرب زرعها
بما يحتاجه من الآفات والعاهات " (٢)

ويقول الزمخشري : " وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد
أمنهم واستيقنتهم أنه قد سلم " (٣)

تأمل ما وراء ذلك من عظم الخطب وشدّة الحسرة وهذا يتناسب
مع طغيانهم وشدّة الغفلة .

(١) الفردان للراغب مادة (ظن) .

(٢) روح المعاني ١٠١/١١ ، أبو السعود ١٣٧/٤ .

(٣) الكشاف ٢٢٣/٢ .

ثم تأمل ما توحى به لفظة " أمرنا " من السرعة، إذ من معاني الأمر : سرعة الإيجاد بأسرع ما يدركه الوهم :

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (١)

و كيف يتلاءم مع (أتى) " لأن أتى مجيء بسهولة " . (٢)

وفي الإضافة في كلمة (أمرنا) ما يوحى بالتعظيم والهيبة والإجلال والإكبار لهذا الأمر وعظيم القدرة التي تطوى الكل في ومضة .

ثم تأمل هذا التناسق الديدع بين قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْتُمْ رِيحًا

إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۗ

وقوله :

﴿ أَلَمْ نَأْمُرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا بِفَعْلَانَهَا حَصِيدًا ۗ

و كيف أحاط بهم الموت من كل جانب في الآية الأولى وإحاطة مكانية وهم في لجة البحر ثم لما أمهلهم الله أمنوا مكره وبلغوا في الأرض فنيهم عز وجل في هذه الصورة الماثلة بين أيديهم بأن قدرته محيطية بهم إحاطة زمانية وهما الليل والنهار إن لا يخرج كائن عن وقوعه فيهما

(١) المفران للراغب مادة (أمر) . القرآنية . ٥٠ .

(٢) المصدر السابق مادة (أتى) .

فهي زمانية مكانية فإن هم نجوم من الموت وأنستهم فرصة النجاة لحكمة
الله واستدراجاً لهم فلن يأمنوا إتيان أمر الله ليلاً أو نهاراً. وقد أحاط
بهم زمن غلقتهم أوزمن يقطتهم فيجعلهم حصيذا ويستأصلهم
استئصال هذا النبات الذي ضربه مثلاً لحياتهم فيهلكهم كما أهلك
القرون الأولى. (١)

فَجَعَلْنَاَهَا حَصِيدًا

الجعل : "عامٌ في الأفعال كُلمًا ومن معانيه تَصْيِيرُ الشَّيْءِ
على حالةٍ دُونَ حالةٍ وهو بعد مَرَحَلَةِ الخَلْقِ". (٢)

والحصيد : "أصلُ الحَصْدِ قَطْعُ الزَّرْعِ" وقوله : "فجعلناها
حصيذا" فهو الحَصَادُ في غَيْرِ إِبَانَةٍ على سَبِيلِ الإِفْسَادِ". (٣)
ومعنى فجعلناها حصيذا أى فجعلنا زرعها ونباتها شبيها بما
حُصِدَ مِنْ أَصْلِهِ. (٤)

-
- (١) انظر التحرير والتنوير ١١/١٤٣، وانظر روح المعاني ١١/١٠١.
(٢) الراغب مادة (جعل).
(٣) المصدر السابق مادة (حصد).
(٤) الكشاف ٢/٢٣٣، روح المعاني ١١/١٠١.

فبعد أن عظم الانتفاع بهذا النبات وكمل حسنه ومهجه ودنت
قطوفه ووطنوا أنهم قادرون عليه متمكنون من الانتفاع بغلته وقع اليأس منه
إن باغتهم أمر الله فأحاط بالزرع فجعله حصيدا . وفي إضافة الجعسل
الى الأرض وحذف نباتها من المبالغة والايحاء يشمل تلك الإصابة وعمومها
وعظيم خطيئها واستئصالها للزرع حتى كأن الأرض نفسها لم تكن لتغيرها
بتغير ما فيها . (١)

كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ

غنى: غنَّ القومُ في ديارهم أقاموا كأنهم استغنوا بها. والغانية
: المرأة .. استغنت بجمالها عن لبس الحلبي . (٢)

* وغنوا في ديارهم ثم فنوا وخرت ميانهم وحلت مغانيهم
* كأن لم يغنوا فيها * وقال بشر :

وَقَدْ تَفَنَّى بِنَا حِينًا وَتَفَنَّى

بها والدهر ليس له دوام . (٣)

(١) انظر روح المعاني ١١ / ١٠١ .

(٢) المقاييس مادة (غنى) .

(٣) أساس البلاغة (غنى) .

فقله تعالى :

كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَنْسِ

"أى كأن لم يعن نباتها أى لم يمكث ولم يقم". (١)

تأمل التقابل البديع بين تلك الصورة الغخيمة الحافلة بالبهجة والأنس والحركة والحياة ، وقد غني القوم فيها بالمكان ، وبلغوا الغاية في الاستغراق في الدنيا والاعطنان إليها والأنس بها ، وما آل إليهم حالها بعد ذلك .

فهذه الجملة توكيد لما قبلها " وبالغة في التلف والهلاك حتى

كأنها لم توجد قبل ولم تقم بالأرض بهجة خضرة نضرة تسر أهلها". (٢)

" والأنس مثل في الوقت القريب كأنه قيل كأن لم تغن أنفا". (٣)

كَذَلِكَ نَفَّصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ

" تذييل (*) جامع أى مثل هذا التفصيل ، نفصل ونبين الدلالات

كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع". (٤)

(١) روح المعاني ١١ / ١٠١

(٢) البحر المحيط ٥ / ١٤٢

(٣) الكشاف ٢ / ٢٣٣

(٤) التحرير والتنوير ١١ / ١٤٤

(*) معنى التذييل : أن يذيل التكلم كلامه بعد تمام معناه بجمله

تحقق ما قبلها . بديع القرآن ص ١٥٥

" والتفكر التأمل والنظر وهو تَفَعَّلُ مُشْتَقٌّ من الفكر " (١)

" وقال بعض الأديباء : الفِكْرُ في المعاني وهو فَرَكُ الأُمُورِ وَحُثُّهَا
طَلِبًا لِلوُصُولِ إِلَى حَقِيقَتِهَا " (٢)

فتأمل كيف يتلاءم التفكير مع هذا التفصيل .

وفي الآية تعريف بالذين لم ينتفعوا بهذه الآيات بأنهم ليسوا

من أهل التفكير . .

وجيء بـ " التفكير " بصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد
ومكرر . (٣)

ثم تم عرض الآيات صورة مقابلة لتلك الدار الفانيّة

لتمييز المعاني وتجلّي الصور .

(١) المصدر السابق (١) / ١٤٤ .

(٢) الراغب مادة (فكر) .

(٣) التحرير والتنوير ١٣ / ٨٥ .

يقول تعالى :

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ

وفيها ترغيب للناس إلى الدار الباقية بعد ترغيبهم عن الدار
البائدة . وتوحى هذه التسمية من كونها سالمة ما يكدر صفو عيشها
سالم أهلها ما يمتلى به أهل الدنيا من الآفات والعاهات والموت والهلاك ،
فضلا عن سلام من ربهم وسلام الملائكة عليهم وسلام بعضهم على بعض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

من أسرار المناسبة .

تتد أسرار المناسبة بين هذا المثل البديع وبين بداية السور
الكريمة التي أنزل الله فيها الكتاب على عبده :

لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَلَائِكِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ ①

تأمل هذا النعيم المقيم الذي لا انتها له ولا انقضاء . والذي يحيط
بهم فلا يفارقهم لحظة عين ، وقارنه بنعيم الحياة الدنيا السريعة الانقضاء
القريبة الفناء .

ثم تأمل قوله تعالى :

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْشُرَهُمْ بِهَا إِذْ هُمْ أَجْسَدٌ
وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝ ②

أى سنجعل ما عليها من زينة ونعيم حطاما وركاما كأرض جسرأء
لا نبات فيها ، وقارنه بتلك الحياة التي اختلطت بنبات الأرض فاختلقت
بنضرتها القلب ثم ما لبثت أن أصبحت هشيما تذروه الرياح .
وبعد أن بين سبحانه الحكمة من ذلك وهي اختيار الخلق أيهم

(١) سورة الكهف آية ٣٠ .

(٢) سورة الكهف آية ٧٠ .

أحسن عملاً يعرض لنا قصة من روائع قصص القرآن لمن أعرض عن الدنيا وزينتها وأقبل على الرحمن فاراً بدينه مثبتاً لنفسه على الإيمان فأواه الله / وهياً له من أمره رشداً وربط على قلبه فثبته غاية التثبيت .

ومن لطائف هذه القصة وأسرار مناسبتها للتمثيل الذي نحن بصدده أن الحياة الدنيا في حس المؤمن من قصيرة جداً تأمل قولهم بعد أن بعثوا من تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت فقالوا :

(١)
لَيْتُنَا يَوْمًا أَوْ نَحْنُ يَوْمًا (١)

وما وراءه من الإحساس بقصر الحياة الدنيا ، وهو المعنى الذي جاء المثل لتقريره وتوكيده وما وراءه من اليأس الذي ينكره الغافلون لافتخارهم بهذا الارتفاق العاجل وتعاليمهم على فقراء المسلمين .

فأمر عليه الصلاة والسلام أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين تتعالى عليهم قريش، ونبيه إلى أنهم هم الذين يجب أن يباهي صناديد قريش بمجالستهم لأنهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي إن دعوت قريش مفاخرها وآباءها وأموالها .

ثم بين عز وجل كيف أعد لهم من العقوبة ما يجانس عملهم فمن أحاطت به مفاخره وطوقته أنسابه وأمواله وحالت بينه وبين الإيمان بالله ورسله أحاطت به جهنم بسرادقها، وأغشوا بما كالمهل يشوى الوجوه

(١) الكهف آية ١٩ .

المتكبرة التي أنفت الإسلام ورفضته لأنه يساوى بينهم وبين هؤلاء
الضعفاء الذين تعاف أنفسهم مجالستهم لأنهم لا زينة لهم من بسرة
وسمت . (١)

سبحانه
ثم بين / أن هؤلاء الذين لم يعطوا في الدنيا حظاً، هولهم خالص
يوم القيامة على أهبى سمت وأكمل بزة :

أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ
مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝

وقارن بين هذا الارتفاق العاجل الذى فاخر به القوم وبين
ذلك الارتفاق الآجل الذى أعد لمن آمن وعمل صالحاً .

ثم لما بلغ بهم الحال إلى هذا المآل فأبطرتهم النعمة وطلبوا
طرد فقراء المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضرب لهم مثلاً
لرجلين أحدهما للموء من الذى يعمل بغاعة الله والآخر الكافر الذى أبطرت
النعمة وعاقبة كل منهما .

ومخالبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشيع في أجواء السورة
الكريمة لأنها نزلت تسلياً لهذا الحبيب الباخع نفسه على آثارهم حزناً
على أليؤء منوا فحسن إسناد ضرب الأمثال إليه .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٥ / ٣٠٥ .

(٢) الكهف آية ٣١ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

* وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ
وَحَفَافًا هُمَ ابْنَخِلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۝ كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا
وَلَمْ تَظَلِمِنَّهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۝ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ ثَمْرًا ۝ وَأَعْرَضُوا عَنْهَا ۝

تأمل هذا التصوير الرائع البديع الذى يصوربه القرآن منظر
هاتين الجنتين المشرتين بأنواع الكرم، المحفوفتين بأشجار النخيل فكان
ضعف تلك وطراوتها أحيط بقوة ^{هذه} ومكانتها ليحفظها من العاهات والافات
ف ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا وَلَمْ تَظَلِمِنَّهُ شَيْئًا ۝ (٢) غاية الوفاء ومنتهى العطاء
والسخاء والجودة والطيب .

ثم تأمل صفاء ها حين لا تتوزعها المشارب بل يمدها ويسقيها
نهر عظيم واحد ، وقارن هذه النعمة التي ينطق حالها بشكر المنعم
بصاحبها الذى بلغ به العجب والفخر والتطاول غايته ومنتهاه فما كان
منه إلا أن يجادل صاحبه الموء من الذى يذكره بالله بقوله :

(١) الكهف آية ٣٤ .

(٢) الكهف آية ٣٤ .

أَنَا كَيْتَرُ مِنْكَ مَا لَا وَأَعَزُّ نَفْسًا ① وَوَدَّخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ②

تأمل ظلمه لنفسه حين أشرك بالله وكذب بالبعث وبطر بالنعمة فكانه عرضها للهلاك (٢) فلم يحط ضعفها بسياج قوى من إيمان بالله وعمل صالح دائم كما أحيطت جنتاه بذلك وأمدت بما يديم حياتها ونضرتها، وأخذ العبرة والعظة من هذه الطبيعة والكون من حولنا أمر يبحث عليه الشارع الحكيم . فانظر إلى ضعف نفسه وقد توزعت في الهواء وخالطه الكبر والعجب والشرك بالله ثم تأمل كيف يتضاعف غروره ويتكاثف عجزه فيقول :

كَمَا أَظُنُّ أَنْ يُبِيدَ هَذَا وَمَا أَبَدَا ③

وهكذا تمتد جذور الأمل في الحياة ويشتد الحرص عليها وتعمم الفتنة بها فلا يتجاوز نظره إلى ما وراءها ، فيقول :

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

ثم يستخفه العجب والغرور فيقول لما حبه :

وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ④

(١) الكهف آية ٣٤

(٢) انظر روح المعاني ١٥ / ٢٧٥

(٣) الكهف آية ٣٥

(٤) الكهف آية ٣٦

فيتكر عليه صاحبه كفره ووجوده لنعم ربه ويقول له مقرعاً

وموحاً :

أَسْكَرْتَ بِالَّذِي خَلَقْتَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيْتَ سَوَاءً رَجُلًا ①

تأمل كيف يذكره بالنظر والتأمل في أصل نشأته وخلقتــ

إذ كيف يعجب بنفسه ويتعالى وهو من تراب .

* ثم من نطفة * أي من ماء مهين ، وفيه إشارة إلى ضعف

نشأته وهوانه فكيف يسند قوته إلى ما خوله الله من نعمة المال والولد

ويغفل عن الواهب المنعم القادر على سلبها ومحقتها .

* ثم سواك رجلاً * فأى وجود أعجب من مخلوق سوى ينكر

خالقه ، ورجولته تزدرى عقلها وكرامتها حين تنكر البعث وتشرك بالله .

ثم تأمل كيف يحمله على الإقرار بمجزه وضعفه والاعتراف بأن هذه

النعم من خالقه الذي لا قوة إلا به إن شاء أبقاها أو شاء أفناها . (٢)

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ③

(١) الكهف آية ٣٧ .

(٢) انظر روح المعاني ١٥ / ٢٧٩ .

(٣) الكهف آية ٣٩ .

ثم يخيره بغرسة الموت من الصادق الذي ينظر في العواقب بما

ستؤول إليه جنته إن هو ظل على معصيته لربه :

○ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ○ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُوَ اَطْلَابًا ①

أى لا تأمن أن تأتيها آفة من فوقها أو من تحتها .

ثم تأمل كيف أحاطت بثمره عاقبة كرهه :

وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ②

”والإحاطة الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم“ (٣)

والثمر: المال الكثير المختلف من النقدين والأنعام والجنات

والمزارع . وهو مأخوذ من ثمر ماله ، يقال ثمر الله ماله إذا كثر قال

النايضة :

فلما رأى أن ثمر الله ماله

وأثل موجودا وسد مفاقره (٤)

(١) الكهف آية ٤١ .

(٢) الكهف آية ٤٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٥ / ٣٢٦ .

(٤) المصدر السابق ١٥ / ٣١٨ .

وهذه الفاء في قوله : **فَأَصْبَحَ يَتَلَبَّسَ كَفِيَّةً** للتعقيب والتحسر
إذا وقع الأمر بفتة . (١)

* هُنَالِكَ الْوَلَايَةَ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا * +

تأمل كيف أتت هذه الجملة تذييلًا للجميل التي قبلها ، فالكافر
لما علم أن إلهه لم تفن عنه شيئًا أدرك أن الولاية لله فقال :

يَلَيْسَ لِي إِلهٌ إِلَّا اللهُ كَمَا كُنَّ عِبَادَ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

وهكذا نرى أن أعظم حائل بين المشركين والنظر في أدلة التوحيد
كان انهماكهم في الإقبال على الحياة الدنيا الزائلة وافتخارهم بهذا الارتفاق
العاجل ، واعتقادهم أن الحياة هي حياتهم الدنيا ، فأمر عليه الصلاة والسلام
أن يضرب لهم مثلاً آخر لهذه الحياة الدنيا التي غرتهم بهجتها بعد أن
ضرب لهم مثلاً بين فيه لهم أن ما يفتخرون به على فقراء المسلمين ليس أهلاً
لأن يفتخروا به لأنه إلى زوال . (٢)

قال تعالى :

**وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا
كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا
تُدْرَاهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝**

(١) انظر روح المعاني ٢٨٣/١٥

(٢) انظر نظم الدرر ٦٥/١٢

(٣) الكهف آية ٤٥

في ظل هذا الإحساس البالغ الأسي والحسرة الذي تتأجج
في صدر هذا الشرك وهو ^{وَيَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى}
^{عُرُوشِهَا} ينقله الحق نظرة أرحب يرى فيها حياته الدنيا ماثلة أمام عينه
ما ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض فيصبح هشيما تذروه الرياح
ويوقفه على أن الحسرة العظمى هي في خسرانه لحياته كلها :

خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ①

ثم تأمل كيف ناسب أن يبدأ المثل بقوله : " واضرب لهم
لأنه يتناسب مع قوله تعالى :

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ②

وكانها إيقاعات تشدد وتقوى وتتوالى لتنبه النفس الغافلة
لتقف على فقه هذه الأمثال الفريجة الصفة العجيبة الشأن وتأخذ العظة
الوجدانية من هذه الطبيعة حولها .

والمعنى : " اذكر لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها وسرعة
زوالها لئلا يفتروا بها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا " . (٣)

-
- (١) الحج آية ١١ .
(٢) الكهف آية ٣٢ .
(٣) روح المعاني ٥ / ٢٨٥ .

وفي تقديم الضمير "واضرب لهم" مزيد عناية واهتمام بضرب المثل
لهؤلاء الغافلين وكأنهم لشدة غفلتهم ضمير غائب، وغيبة الضمير
توحي بغقدان الحس، وفيه تحقير لهم وازدراء لشأنهم لعدم تشريفهم
بالخطاب، وإذا ما عدت إلى الضمير وجدته يتناسق مع ضمائر الجمع
في سياق الآيات كقوله تعالى: "وحشرناهم - وعرضوا . . .".

والمراد بمثل الحياة الدنيا أى الحياة القريبة الحاضرة، كنى عن
الحضور بالقرب. (١)

فهى قريبة فى حسهم وتصورهم بمتعتها لذاتها، ولكن حقيقة
أمرها وسرعة انقضائها بعيد عن إدراكهم لذلك مثلت لهم فى هذه
الصورة الحسية حتى تدرك كنهها العقول الغافلة والقلوب الشاردة التي
لا تقوى على إدراك غير المحس ولا تؤمن إلا بالحاضر :

كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

فاختلط به نبات الأرض: لكثرة وتكاثفه ووفرتة التف بعضه
ببعض فهو في غاية الخصب والنضارة والازدهار، أو المراد أن الماء دخل
في النبات حتى روى واهتز ورف. (٢)

فهو في غاية النضرة والبهجة .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق ١٥ / ٣٣١ وروح المعاني ٥ / ٢٨٥ .

وقارن هذه الحال بحال ذلك صاحب الذي بلغ أوج الكمال والقوة مع وفرة نعمه وكثرتها واعتزازه وافتخاره بنفسه وشمره .

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

"(والهشم : كسر الشيء الرخو كالنبات) (١)"

وهو اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول أى مهشوما محطما ،
فالهشم : الكسر والتفتيت . (٢)

(والهشم : ما تهشم وتحطم الواحد هشيمه) (٣)

وفي صيغة هشيم مبالغة تفيد شدة تهشمه ولوغه غاية التفتت والتلاشي .

والمعنى : " أى فأصبح ذلك النبات الملتف أتر بهجتـــــــــــــــــه
ونضارته هشيمًا تذرؤه الرياح " . (٤)

وقوله : تذرؤه " الرياح " أى تشيره وتفرقه في الهواء وتذهب به .
وهذه الجملة تأكيد لعدم بقاءه وتنصيص على زواله كأنه لم يكن

(١) المفردات للراغب . مادة (هشم) .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣١ .

(٣) روح المعاني ٥ / ٢٨٦ .

(٤) المصدر السابق .

لأن (ذرو) لها أصلان أحدهما الشّيءُ يُشْرِفُ عَلَى الشّيءِ ويظله والآخر
الشّيءُ يَتَسَاقَطُ مَتَفَرِّقًا . (١)

وقارن هذه بتلك الجنتين اللتين أظلت صاحبها ثم تساقطت
عنه وهوت على عسروتها وكذلك هي حياة الدنيا وما يسودها من مفاخرة
تساقط عنه فتصبح هشيما تذروه الرياح .

فإذا قوته التي فاخر بها وكاثرت بها وتعالى توّول إلى منتهمي
الضعف والذلة والهوان ، يقول الزمخشري * شبه حال الدنيا في نضرتها
وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر
وارفأ ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن . (٢)

وهي (رياح) وليست ريحا تلك التي تذهب بحياة الدنيا وتفرقها
وتذروها كأن لم تكن فهو جزاء يجانس عمله حين توزعت الهواء والمطامع
والشهوات من العجب والغرور والافتخار بكثرة ماله ونفقه وشره ثم الجحود
لنعم الله والشرك به وإنكار البعث والتهكم والسخرية بمن يذكره ويدعوه
وهكذا ..

وقارن بين قوله :

فَأَصْبَحَ يَتَكَلَّبُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

وقوله : فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

(١) المقياس مادة (ذرو) .

(٢) الكشاف ٢ / ٤٨٦ .

وأصبح بمعنى صار ولكنها تفيض من احياءتها وظلالها إذ توحى
بانبلاج وظهور صبح الحقيقة الثابتة التي غفلوا عنها تحت وطأة الشهوات
وظلمة الشرك والعجب فكان خواءها على عرشها أذهب ليل غفلتهم
فأصبح الحق جلياً لكل من تتأتى منه الروئية .

كما أن تهشم النيات وتفتته أى زوال الحياة الدنيا وسرعة
تقضيها جلى حقيقتها وأنها مهما بلغت من النضرة والبهجة فهي إلى
زوال فجد يرجم هذه طبيعتها الزهد فيها والرغبة عنها وألا يفتخر بها
عاقل فضلاً عن أن يكثر بها غيره .

ثم أنك إذا استقصيت التأمل وراجعت المثل وجدت أن المشمل
يحكى قصة مضت وانتهت ويتحدث عن حياة كانت خضراء وارفة ثم أصبحت
هشياً واهياً ولكن هذا الالتفات من الماضي الذى عليه نسق الآيات
الى المضارع في قوله " تذروه الرياح " فيه حياة لا زالت تنبض بالحركة
ترى فيه الرياح في عمل دؤوب وسعى حثيث متجدد تذروا الهشيم
وتظل هذه الصورة ماثلة أمام أعيننا حتى تتم العظة وتحصل العبرة .
فله هذه الطبيعة التي يمثل الله بها ما لا تدركه الحاسة
ولا يقف عليه بصر .

* وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا *
* * *

(١) (المقتدر : قوى القدرة كاملها) .

وجملة التذييل هذه موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأعدادها وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها وترتيب أسباب الفناء على أسباب البقاء وذلك اقتدار عجيب . (٢)

كما أن قوله (مقتدرا) جاء متناسبا مع الحياة الدنيا التي تطويعها يد القدرة في لحظة توطئة لأحداث القياسة الرهيبة بعد ذلك ولذا جاء باطلاق آخره ومتعلقه . (٣)

ثم نعود للآيات الكريمات ننظر في طريقة صياغتها ونظمها لنرى كيف أتى التمثيل ليخرج الأمر المعقول في صورة المحسوس .

والمشبه : هو حالة هذه الحياة الدنيا في إقبالها وهجتها ونعيمها وسواء أكان المراد الحياة الدنيا كلها أم حياة الأفراد أم المراد بها حياة الثمرات من المال والولد أى زينتها ، ثم توليها وزوال ذلك كله أو زوال نفع هذه الثمرات وانعدام التمتع بها .

(١) التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) من الإعجاز البلاغي في القرآن / د . صباح دراز ص ٦٧ .

والمشبه به : حال النبات المنبت بالماء يكون أخضرًا وارفًا ثم
يصير يابسًا تطيره الرياح كأن لم يكن .

وقد بُعِثت الآية على هذا الإيجاز البديع والترتيب والتعاقب
السريع الموحى بقصر الحياة الدنيا وما يقتضيه قَصْرُهَا من قصر مدة
التمتع بها وأنها وشيكة الارتحال سريعة الزوال . وتعاقب الفاء في الآية :

فَأَخْتَلَطَ بِهِنَّ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ

لم يدع للزمن فترة يتراخى فيها ويخلد إلى الأرض كما في سورة يونس
بل ربطت الكلام بعضه ببعض ورتبت ثانيه على أوله وثالثه على ثانيه
بهذا التعاقب السريع المنبني على الإيجاز .

يقول صاحب روح المعاني : * وعبر بالفاء في الآية للاشعاع
بسرعة زواله وصيرورته بتلك الصفة فليست فصيحة * . (١)

بمعنى أننا لو قدرنا المحذوف فقلنا : (فَزَهَا وَمَكَثَ فَأَصْبَحَ) لكننا
قد أغفلنا هذا الجانب العظيم المراد من نظم الآية وهو سرعة زوالها
كأنها لم تثبت ولم تمكث فتزهو .

كما أن في عدم ذكره وتقديره توكيد بأنه لم يكن، ورحم الله الإمام
عبد القاهر حين قال : * وتجديك أنطق ما تكون إذا لم تنطق * . (٢)
وقارن بين سرعة الفناء وطول أمل البقاء .

(١) روح المعاني ٥/٢٨٦

(٢) الدلائل ص ١٤٦ - تحقيق محمود محمد شاكر.

(٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة
وتفانح بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث
عجيب الكفار نباته ثم يهيج فترته مصفراً ثم يكون
حطاً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله
ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴿١﴾

(١) سورة الحديد آية ٢٠ .

من أسرار المناسبة :

من المقاصد الأساسية لسورة الحديد تحقيق إيمان المؤمنين وتزكيتهم في القلب وما ينبثق عن ذلك من تضرع واخبات وخشوع لله الذي يسبح له ما في السموات والأرض والذي وصف نفسه سبحانه بصفات الجلال والكمال والبقاء مع بداية هذه السورة الكريمة ما يحمل القلب على التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله الذي له ميراث السموات والأرض .

ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ①

ثم تأمل التوبيخ والتعجيب من أمر التقاعس عن تلبية نداء ربهم وعن تصديق إيمانهم والعلة وراء ذلك .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ
يَدْعُوكُمْ لِنُؤْمِنُوا بربِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ②

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ③

(١) سورة الحديد آية ٧ .

(٢) سورة الحديد آية ٨ .

(٣) سورة الحديد آية ١٠ .

ثم نوه سبحانه بفضل أولئك السابقين الى مرضاة ربهم :

لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ ①

وبين ما أعد لهم من خير عظيم وما أعد ضد ذلك للمتقاعسين
الغافلين أو المنافقين وبين لهم سبب ارتكاسهم وحرمانهم من الأجر
العظيم :

وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ
وَعَرَّيْتُمْ الْأُممَاتِ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورَ ②

ثم يحذر عز وجل عباده المؤمن من بلوغ هذه الحالة والوقوع
في سهوة قساوة القلوب التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم وبعابهم
عتابا بالفا تخبت له القلوب المؤمنة :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ
عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ③

ثم يطمعهم عز وجل في عونه ورحمته وقدرته على إحياء قلوبهم
بذكره كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء .

-
- (١) الحديد / ١٠ .
(٢) الحديد / ١٤ .
(٣) الحديد / ١٦ .

ويبين لهم أن من أسباب خصوبتها وإخباتها أن يصدقوا فسي
سبيل الله ففي ذلك تحقيق لإيمانهم وتزكية لقلوبهم وأن هوء لا الذين
حققوا إيمانهم وصدقوه :

أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِعَايِنَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ①

ولما كانت العواقب التي تحول بين العبد والإنفاق في سبيل
الله هو الشح والحرص على استبقاء المال لانفاقه في لذائذ الحياة
ومتعها من لهو ولعب وتفاخر وتكاثر مثلت لهم الدنيا من هذا الجانب
الذي يحرصون عليه ويتنافسون فيه .

(٢) وصدرت بما يوجب غاية اليقظة والحضور.

يقول الزمخشري : " وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلقة
جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون
لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات فبعث عليه العاصفة فهـاج
واصفر صارا حطاماً عقوبة لهم على جحودهم " .
(٣)

(١) سورة الحديد / ١٩ .

(٢) انظر نظم الدرر ١٢ / ٦٨ ، التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣٨ .

(٣) الكشاف / ٤ / ٦٠ .

ويقول صاحب التحرير والتنوير : " أعقب التحريض على الصدقات
والإنفاق بالإشارة إلى دحض نسيب الشح وأنه الحرص على استبقاء
المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا فضرِب لهم مثل الحياة الدنيا
بحال محقرة على أنها زائلة تحقيرا لها وتزهيدا فيها لأن التعلق
بها يعوق عن الفلاح كل ذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجب
وغيره وأشار إلى أنه ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة
ووقاية من العذاب الشديد وما عدا ذلك فهو متاع قليل " (١)

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٠

من أسرار اللغة والنظم :

اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو
وزينة وهم آخر بيوتكم وتكاثر في الأموال والأولاد ①

"اعلموا" : افتتح الكلام بـ "اعلموا" ليشير إلى أن الكلام الذي

(٢)

بعده له مغزى عظيم يجب التفات الذهن بلكيته إليه .

الغافلين

"والخطاب في (اعلموا) للمؤمنين/على طريقة الالتفات

(٣)

اقبالاً عليهم للاهتمام ."

تأمل كيف أن القصر انصب على ما في الحياة الدنيا من اللعب

واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر إذا حال بين العبد وطاعة ربه ،

فمتع الحياة أوحياة المتعة فانية كهذا الزرع الذي هذا مثله : فما أحراهم

أن يفنوا ما هوفان في الإعداد للآخرة التي آمنوا بها والسابقة إلى

جنة عرضها السموات والأرض .

وهذا القصر الإضافي في "إنما" لتنزيل المنكرين منزلة غير

المنكرين لأن لديهم من البراهين والأدلة ما لو فطنوا إليها لرأوها على

وجهها الذي وصفها بها القرآن من أنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر .

(١) سورة الحديد / ٢٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٣٩٣ .

(٣) المرجع السابق ٧٧ / ٣٩٤ .

كما أن فيه تعريضا بهم لغفلتهم عن هذه الحقيقة وتحذيرا لهم من أن يكونوا كالمنافقين الذين فتنوا أنفسهم وتربصوا وغرتهم الأمانى وغرهم بالله الفرور ، أو كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فغست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ، أو الكفار الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وأولئك أصحاب الجحيم .

ووراء وصف الحياة الدنيا باللعب بسهولة انخداع النفس بها وسرعة استجابتها لما هو في طبيعتها وفطرتها من حب اللعب الذى فيه من الانس والمسرة والحلاوة للنفس ما فيه وما هو إلا وهم وسراب لا يلبث أن ينجلى عن إضاءة اللاوقات والأزمان التي هي رأس مال الإنسان . . ثم إن الإفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذنه بخسة العقل . (١)

فضلا عما في تنكير (لعب) ما يوحي بأنه لعب عظيم بالسخ
(٢)
يكثر ويفلب على أحوال الناس في الدنيا ويستغرق جزءا عظيما من حياتهم .
وقد ورد وصف الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، قال تعالى :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ

وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُسْتَوُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٤٠١ .

(٢) المصدر السابق ٣٧ / ٤٠٢ .

(٣) سورة الانعام آية ٣٢ .

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١)

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ

أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٢)

وقدم اللعوب على اللهو في الأكثر * لأن اللعب زمانه الصبا

واللهو زمانه الشباب وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب * (٣)

بينما قدم اللهو على اللعب في سورة العنكبوت * لأن المراد

زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء * وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ *

أى الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لا بد لها بدأ بذكر اللهو لأنه

في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب . (٤) واللَّهُوُ : " مَا يَشْفَلُ الْإِنْسَانَ عَمَّا يَعْينُهُ وَيَهْمُهُ يُقَالُ

لَهُوْتُ بِكَذَا وَلَهَيْتُ عَنْ كَذَا اشْتَفَلْتُ عَنْهُ بِلَهُوٍ .

... وَيَعْبُرُ عَنْ كُلِّ مَا بِهِ اسْتِمْتَاعٌ بِاللَّهُوِ ...

وَمَنْ أَرَادَ بِاللَّهُوِ الْمَرْأَةَ وَالْوَلَدَ فَتَخَصَّصَ لِبَعْضِ مَا هُوَ مِنْ زِينَةٍ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي جُعِلَ لَهَا وَلَعِبًا * (٥)

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤ .

(٢) سورة محمد آية ٣٦ .

(٣) اسرار التكرار في القرآن للكرمانى ، ص ٦٨ .

(٤) المصدر السابق .

وانظر : ضفء الكلمة ص ٢٢٠ ضمن سلسلة من أسرار التعبير في القرآن ،
د/عيد الفتح لاشين .

(٥) الرابع ، مادة (لهي) .

وهكذا تتكاثف المعاني وتفيض وتغزر .

ترى هذا وتدركه في تكشيف الحياة الدنيا من تلبسها وإغرائها
وخداعها للنفس على مراحل زمنية تستغرق عمر الإنسان فكلما امتد به
العمر مرحلة قوى تعلقه بها واستفراقه فيها فهي تبدأ باللعب فترة
الطفولة لتغرى النفس ببراءة مقصدها ثم لا تلبث أن تستميل القلب فترة
الشباب والطاقة والنشاط فتلهيه عن غايته العظمى وهدفه الأسمى عما
يهمه ويعنيه من طاعة ربه والإقبال على آخرته فإذا لهن القلب أصبح
مصيدة للشيطان فزين له سوء عمله .

تأمل كيف وصف الحياة الدنيا بأنها زينة بعد هاتين المرحلتين

وقد تهيأت فيها النفس لاستقبال هذا التمويه والخداع والتزيين فإذا بها
ترى القبيح الفاسد والزائل الفاني جميلاً باقياً (١) فتحرص على عمارته
وتتفق في سبيل ذلك العمر والمال بدلا من إنفاقهما فيما هو خير
وأبقى .

ثم تأمل كيف أتت كل من كلمة (لهو وزينة) نكرة لتوحسي
بأنه لهو عظيم يشغل الناس ويشغلوا به ، وزينة طاغية تأسر القلب أسرا
بينما هي في الحقيقة زينة حقيرة باطلة لا يحصل من وراءها شرف ذاتي .

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ١٥ / ٢٣٤ .

فاذا ما غلبت هذه الامور على النفس وضربت بجذورها فـي
تربة القلب آتت أكلها وكان من ثمارها التفاخر والتكاثـر .

أرأيت كيف تتولد المعاني بعضها من بعض ، وكان الحياة
الدنيا شجرة انبثقت داخل نفسه فازينت فبلغ به العجب غايته أن يفاخر
ويكاثـر بزينتها من الاموال والاولاد وقارن هذا بأولئك الذين
يفخرون بالاضعاف المضاعفة عندهم .

وهكذا تتأكد المعاني وتتراقى الصفات وتقوى وتشتد .

فاللهو فيه معنى اللعـب وزيادة والزينة فيها معنى اللهسو
وزيادة والتكاثـر والتفاخر نتيجة ثمرة لإنهـار النفس بهذه الزينة وكان التكاثـر
امتداد لنفسه التي يفاخر بحسبها ونسبها . * وتفاخر بينكم * الفاء
والخاء والراء أصل صحيح يدل على عظم وقدم . من ذلك الفخر . ويقولون
عن الفخر هو عد القديم . والتفخر التعظم ونخلة فخور عظمة الجسذع
غليظة السعف . . . (١)

وهكذا يأتي الفخر بعد طول أمد لأنه عد القديم الذي
زين له ، ووراء طول الأمد قسوة القلب وظظة نفس تحول بين العبد
وامتاله أمرره ، وقارنه بأولئك المخبطة قلوبهم من المصدقين والمصدقات .

(١) المقاييس مادة (فخر) .

وتأمل ما وراء صيغة (تفاخر وتكاثر) على وزن تغافل من بلوغه غاية الانفعال والهيجان لأن هذه الصيغة تزيد من حدة التكاثر والتفاخر وطمعانيهما وتوحى بهذا التنافس والتباهي والعجب الذي غلب نفوس أهل الهوى .

ثم هو لا يتجاوز هذه البيونة **وَيَفَاخِرُ بَيْنَكُمْ** أي هذه المسافة الضيقة بينكم من الأنساب البالية والمتع الفانية ، وقارن هذا بما يتسابق إليه الموءنون " مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض فالتفاخر والتسابق هناك له ذلك البعد وتلك الرحابة التي تسع السموات والأرض أي الكون كله .

ثم تأمل كيف بدأ التكاثر بالأموال والأولاد أي بالعددين والعدد وما وراء ذلك من توزع نفسه واستفراق قلبه بما هو زائل مائل .

وقارن هذا التكاثر بما هو فان بالأضعاف الباقية

وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمُ أَوَّلَ أَدْوَابِهِمْ كَرِيمًا ①

ولما كانت هذه الأموال ^{قد} شغلت الناس عن الدار الآخرة وألهت القلوب عن الطاعة والإخبات لربها وجعلتهم يقصرون همهم على متعتها

بدلاً من اتخاذها وسيلة لتنعيم الآخرة.

ولما كان الإعجاب بها قد بلغ بالنفوس غاية العجب مثلت لهم هذه الحقيقة في هذا التمثيل البارع الذي يصور أطوار الحياة الدنيا وما فيها من شباب وكهولة وهرم وفناء ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها ثم إدارها بعد ذلك ، بأطوار الزرع وكلها أعراض زائلة وآخرها فناء . (١)

قال تعالى :
كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَسْبَغَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفُراً ثُمَّ يُكَوِّنُ حَطَاباً
وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ

فالمشبه : هنا أحوال أهل الدنيا الغالبة عليهم الصارفة لهم عن طاعة ربهم ، والمشبه به : نبات الغيث الذي بلغ غاية البسوة والخضوبة والجمال فلم يلبث أن اصفر ثم أصبح حطاباً .
تأمل كيف بدأ التمثيل (بغيث) وما وراء ذلك من العناية والاهتمام .

والغيث : هو الذي يأتي بعد قنوط الناس " وهو الحَيَاة النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ " . (٢)

(١) انظر التحرير والتشوير ٢٧ / ٣٠٤ .
(٢) المقاييس مادة (غَيْث) .

وفي تنكيه ما يوحي بأنه غيث متفرد في جوده وعظم نفعه
لذلك صدر به المثل حفاوة به واعظاما لشأنه .

ثم تأمل تركيب هذه الجملة القرآنية على هذا النمط البديع
الذي يكاد ينطق بما يختلج في صدورهم ويمتصر في نفوسهم من
نشوة الإعجاب .

وذروة الافتتان بهذا النبات الذي بلغ العجب به أن غلوا
عن مصدره فأوظفوا في البعد .

وأداروا ظهورهم للغيث وأقبلوا على نباته مفتتين معجيبين
فشغلوا بالمعمول عن العامل وبالنبات عن المنبت وقارن هذا بأولئك
الذين فتحت لهم الدنيا بعد جذب وشقاء وأوتوا من زهرتها ما آانس
نفوسهم وشغل قلوبهم فافتتنوا بها وغلوا عن واهب هذه النعم فلم
يوءوا حق شكرها .

أوباولئك الكافرين الذين إذا رأوا معجبا لم يتخط فكرهم
عما أحسوا به فيستغرقوا إعجابا .

وأعجب : " أمرٌ عجيب إذا استكبر واستعظم . وقد أُعجبتُ به وشيءٌ
معجِبٌ إذا كان حسناً جداً . " (١)

(١) المقاييس مادة (عجب) .

والكفار : * في اللغة من الكفر وهو ستر الشيء ، ووصف الليل
بالكافر لستره الأشخاص ، والزرع لستره البذر في الأرض ، وكفر
النعمة وكفرانها سترها بترك أداء شكرها . (*)

ثم تأمل كيف تتضافر عناصر التمثيل لتؤكد وتقوى معنى الإعجاب
وشدته وأخذها بمجامع القلوب .

وذلك لأن تخصيص الكفار بالذكر هنا * لا * نهم أهل البصر
بالنبات فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة * . (١)

(٢)
* فإذا أعجب الزرع نباته مع علمهم به فهو في غاية الحسن *
(٣)
ولكن في إظهار كلمة (كفار) بدلا من (زراع) كما في سورة الفتح
(يعجب الزرع) إحياءً بأن علمهم لم يتجاوز ستر هذا البذر في الأرض
وأن المنبت الحقيقي والزرع الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى .

ثم لاحظ كيف بنيت عناصر التمثيل على المبالغة لتؤكد
معنى الإعجاب وشدّة الغفلة فهم كفار على صيغة المبالغة لتوحي بكثرة

(*) الرابع مادة (كفر) .

(١) البحر المحيط ٢٢٤ / ٨ .

(٢) الفخر الرازي ٢٣٥ / ١٥ .

(٣) آية ٢٩ من سورة الفتح .

الأغطية والأسدال التي حجبت عنهم نور الفطرة والإيمان من اللهو
واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر تعظيماً لأمر الدنيا وإعجاباً بحاسنها
وحطام بناتها .

والنبت بما نبت من ذلك الغيث وحصل به ونشأ عنه وهو اسم
مصدر من (نبت) وهو هنا أطلق على النبات من إطلاق المصدر على الفاعل
للمبالغة . (١)

وفي إضافة النبات للغيث لتأكيد تفرده عن النبات بخصوصيته
وبهائه ونضارته وروائه فهو غاية الحسن .

كما أن في ذلك إيحاءً بأنه نبت ذلك الغيث وليس ما عملت
أيديهم وقارنه بتلك النعم من الأموال والأولاد وأنها ما وهبهم
الله ليستلهم فيها وليست ما كسبت أيديهم . * ثم يهيج فتراه مصفراً
ثم يكون حطاماً * .

يهيج : " يقال هاجَ البقل يهيجُ وإصفر وطاب " (٢)

" يهيج يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له " (٣)

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٦ .

(٢) الراغب مادة (هاج) .

(٣) حاشية الشهاب على البيضاوي ٦/١٦٠ .

ثم تأمل دقة أهل العلم في استنباط المغزى من التشيل إذ يقولون : * واصفرار النبات أعظم دلالة على التهيؤ للزوال وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متاع الدنيا * . (١)

ولم يقل : (فتراه يابسا) لأن الاصفرار يقابل الخضرة والجمال أي المرض الذي أعجبهم وحال بينهم وبين رؤية الجوهر .
ولم يقل (فتراه يبصر) والتي توحي بتجدد هذه الصفة وحدوثها حالا بعد حال ، وإنما أوحى بقوله مصدرا إلى ثبوت ذلك ودوامه وكأنه الأصل وكأن الهيجان هو الحادث الطارئ الذي ما لبث أن زال ليترتب عليه هذه الحقيقة الثابتة اللازمة له .

هذه الحقيقة التي تجلت في قوله (مُصَفَّرًا) والتي أفرغت النبات من كل معاني الحياة والسرواء والعطاء وجعلته خاويا تصرفه الريح ومن كانت هذه صفته اللازمة له لم يكن قط محط إعجاب .

ثم أنك إذا ما عدت إلى معنى (رأى) في قوله تعالى :
(فتراه مصفرا) لرأيته يقتضي معنى العلم هذا ما يشير إليه الراغب في أن (رأى) إذا عدى إلى مفعولين اقتضى معنى العلم . (٢)

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٤٠٦ .

(٢) الراغب مادة : (رأى) .

تأمل هذا وكيف أن كل راءٍ تأتي منه الروئية يرى النبات

مصفرا ببصيرته الموءمنة روءية إثر روءية .

(ثم يكون حطاما) .

* الْحَطْمُ كَسْرُ الشَّيْءِ مِثْلُ الْهَشْمِ وَنَحْوَهُ اسْتَعْمِلَ لِكُلِّ كَسْرٍ
وَمَتْنَاهُ * (١) .

حطم : " هو كسر الشيء ؛ يقال للمتكسر في نفسه حطم . ويقال

للفرس إذا تهدم لطول عمره حطم " . الْحَطْمُ راءٌ يصيب الدابة في

قوائمها أو ضعف . وَالْحَطْمَةُ السَّنةُ الشَّدِيدَةُ لِأَنَّهَا تَحَطِّمُ كُلَّ شَيْءٍ .

وَالْحَطْمُ السَّوَّاقُ بَعْنَفٍ يَحَطِّمُ بَعْضَ الْإِبِلِ بَعْضٌ * (٢) .

ثم تأمل جملة (ثم يكون حطاما) ولم يقل : (يجعله حطاما)

أى كأن هذه الحطامية في جبلته وطبعه وفطرته . (٣) .

ويتلاءم التحطيم هنا مع تلك الأموال المقدسة والقلوب

المستغلظة البالغة غاية الفخر والعجب والقوة والقسوة .

ولما كانوا قد بلغوا الغاية في الانهماك في الدنيا والإعراض عن

الآخرة عظم عز وجل أمور الآخرة الأبدية تنفيراً من الانهماك في الدنيا

(١) الراغب مادة (حطم) .

(٢) المقاييس مادة (حطم) .

(٣) نظم الدرر ١٩ / ٢٩٠ .

وحنا على ما يوجب كرامة العقبي فقال **وَفِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ سَلِيمٌ** (١)

وبهذا التذييل البديع تتأكد حقيقة هذه الدار التي غرت

وخذعت وألبست الأمور غير لباسها فأوهم النفع فيما فيه الضرر البالغ فقال

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

والغُرُورُ : الخديعة أو إظهار الأمر الضار الذي من شأنه

أن يحترز العاقل منه في صورة النافع الذي يرغب فيه . (٢)

وفي الراغب : " الغُرُورُ كُلُّ مَا يَخْرُجُ الْإِنْسَانَ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ

وَشَهْوَةٍ وَشَيْطَانٍ ، وَقَدْ فَسَّرَ الشَّيْطَانُ إِذْ هُوَ أَحَبُّ الْغَارِيِّنَ ، وَبِالدُّنْيَا

لَمَّا قِيلَ : الدُّنْيَا غُرٌّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ . (٣)

(١) حاشية الشهاب ٠١٦٠/٨

(٢) التحرير والتنوير ٠٤٠٧/٢٧

(٣) الراغب مادة (غرر)

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا :

أول ما يلفت النظر للتأمل والتفكر هذا البناء البديع المحكم
السيك المتقن المتلاحم ، الذي بنى عليه التشبيه التمثيلي في القرآن
الكريم ، وقد أفرغ إفراغا واحداً ، بحيث يرى وهو على حد واحد
من الاستواء والتلاحم والتحدر ، أخذاً ببعضه بحجز بعض متميزاً بصورته
وهيئته وسمته وملامحه عن صور التشبيه الأخرى ، وإن كان يتحسد
معها في الغرض والمعنى العام لأنه قد اتضح لنا بالتحليل والدراسة ،
أن كل تشبيه تمثيلي متميز يتناول جانب من جوانب هذا المعنى العام
لم يتناوله غيره .

ولما كان أهل العلم يرون أن لكل معنى في الجملة هيئة
وسمًا يعرفه به أهل العلم معرفة لا تلتبس .^(١)

صار بالضرورة لكل تشبيه في القرآن الكريم هيئة وصورة يتميز
بها ، وهي من جهة أخرى تتلاءم وتتناسق مع السياق الذي ورد فيه ،
لأن جزءاً كبيراً من بلاغة التشبيه ودقائق معانيه هي من معطيات هذا
السياق .

(١) انظر الصورة في التراث البلاغي ص ١٧٩ عن مجلة
اللغة العربية جامعة أم القرى السنة الثانية ١٤٠٤ - ١٤٠٥ هـ ،
د. محمد محمد أبو موسى .

١ - وأول تلك الأسرار في هذا التنوع هذا المطلع البديع لكل مثل من أنواع التشبيه التمثيلي ، والذي يتلاءم مع طريقة النظم في السياق الذي ورد فيه .

ففي سورة يونس (عليه السلام) ورد قوله تعالى :

لِنُنَابِغِيَكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ثم قارن طريقة النظم هذه مع طريقة النظم في التمثيل :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ

وفي سورة الكهف قال سبحانه :

وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ

وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وفي سورة الحديد يقول سبحانه :

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

أَعْلَمُوا أَنَّ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَعَبٌّ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي

الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

وهكذا وكأنها إيقاعات أو ضربات متواليات متناسقات تتلاءم

وتتلاحم مع السياق ، فيشتد ويقوى وتتكاثف معانيه ، وتغيض وتكون مسن

الغزارة والوفرة بحيث لا يحيط بها ، ويبين عنها إلا ضرب الأمثال

وقيامها ، فترى بداية كل مثل فضلا عن أنها تتناسق مع السياق من جانب

الإيقاع الخارجي طريقة النظم فانهما أيضا تتلاءم مع المعنى الذي
سيقت له .

٢ - تدور المادة اللغوية أو عناصر التشبيه التي كونت أساليجه

حول الماء النازل من السماء أو الغيث - نبات الأرض واختلاط الماء
به - الزخرف - الزينة - أهل الأرض وافتنانهم بها - الحصيد - الهشيم
الرياح - الكفار أو الزراع - الأحوال التي طرأت على النبات من الهيجان
والاصفرار والحطام .

هذه التشبيهات وإن كانت قد اشتركت في معنى عام وهو
تشبيه حال الحياة الدنيا في نضرتها وبهجتها وافتتان الناس بها
ثم ما توول إليه من الهلاك والفناء إلا أن لكل تشبيه معرضاً ومعنى
يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه .

ففي سورة يونس أتى التعبير بأسلوب القصر (إنما مثل
الحياة الدنيا) ليقلب معتقداً باطلاً تغلغل في قلوب القوم وحملهم
على التماذى في ذلك إنكارهم للبعث فاطمأنوا إلى الحياة الدنيا وغفلوا
عن الآخرة فناسب مجيء هذا الأسلوب ليحسم شبه المنكرين وليعرض
بغياوتهم وشدة غفلتهم .

فالتشيل هنا مبني على التفصيل والتحليل الذي يصف فيه
تغلغل هذه الحياة الدنيا في قلوب أهلها وشدة افتتانهم بها وفيه

إشارة إلى ناحية من نواحي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
وهو ظهور سلطان العلم وطغيانه على الناس حتى توهموا أنهم متمكنون
من الدنيا قادرون عليها عالمون بها كل العلم.

بينما نجد التمثيل في سورة الكهف مني على الطي والايجاز،
فالمراحل التي فصلت في سورة يونس مطوية هنا ، لأن الغرض الأساسي
بيان سرعة زوال هذه الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها ، وهذا يتناسب
ويتناسب مع عقيدة المشركين ، الذين يظنون إن هي إلا حياتهم الدنيا ،
والذي يمثله موقف هذا المشرك المعجب الذي بلغته شدة افتتانه
بجنته أن يقول :

مَا أَظُنُّ أَنْ يُبْعِدَهُمْ رَبِّي عَنْهُمُ إِذْ هُمْ يُقَالُونَ ﴿١٠١﴾ وَمَا أَظُنُّ أَنْ يَبْعِدَهُمْ رَبِّي عَنْهُمُ إِذْ هُمْ يُقَالُونَ ﴿١٠٢﴾

تأمل طول أمله بهذه الحياة الدنيا وكيف ناسب ذلك أن يبني التمثيل
على قصر مدة التمتع بها وسرعة زوالها ، وهي الحقيقة الثابتة التي تقابل
هذا الاعتقاد الواهم ، والتأمل لسياق الآيات في سورة الكهف يجدها
تتحدث عن افتخار المشركين بأموالهم وأولادهم على فقراء المسلمين
وضعفاءهم الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفسه
معهم .

ما يقتضي أن يتناول التمثيل أيضا سرعة زوال متعهم
وزينتها من الأموال والبنين لكونهما من أقوى أسباب التعالي على الناس
وطول الأمل وشدة الحرص .

وكان التمثيل يوحي بمعنى خاص يستقيه من السياق
بعد ذلك المعنى العام الذى يتبادر الى الذهن عند تلاوته ،
ومما يوءد كد أن التمثيل لا يضيق عن هذه المعاني قوله سبحانه بعد ذلك :

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَيْتُ الَّذِي فِيهِ كُنْتُمْ تُرَابًا
قُلُوبًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ①

التنوع قوله تعالى وأحيط بثمره : بينما كانت الإحاطة بهم
٣ - ومن أسرار في سورة الكهف / :

في سورة يونس ، وكيف جاء نسق التمثيل متناسقا مع هذا المعنى

الذى سبق له .

يقول سبحانه :

وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ②

وكيف يتناسب مع قوله تعالى :

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا

(١) الاية ٤٦ من سورة الكهف .

(٢) الاية ٤٢ من سورة الكهف .

لأن هذه الحالة التي بلغها صاحب الجنتين من العجب والافتتان والغفلة ، حينما استوفت جنته غاية الحسن والطيب والجمال وشعوره بالقوة والاعتدال ، ثم ما آل إليه حاله من ضعف وذلة وهوان بعد أن تفرقت عنه نعمته وخوت جنته .

وَلَوْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُوهُ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا

يتناسب مع بلوغ هذا النبات غاية قوته وتكافئه ونضارته ومهجته ، ثم ما آل إليه حاله :

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

فغاية القوة والاعتدال يقابلها منتهى الضعف والهوان .
بينما تجد الإحاطة بهم في سورة يونس إذ يقول سبحانه :

وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ ابْتِغَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرِينَ

إلى قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١)

(١) الآيات ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

وكيف يتناسب مع قوله تعالى :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ
عَلَيْهَا أَنَّهُمْ أَمَرْنَا لِيَالِكَا أَوْ تَهَارًا جَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ (١)

وهذا من بدیع التناسق والتلاوّم في نظم القرآن الجليل إذ كيف يتناسب
ويتلاءم استئصال جذور الحياة الدنيا التي تحصد وتطلع من منابتها وكأنها
لم تغن بالأمس بعد أن ظن أهلها وأيقنوا أنهم قادرون عليها

مع تهديدهم بأن عاقبة بغيهم ستعود عليهم لأن القوم بلغوا

الغاية في الفساد .

٤- ومن أسرار التناسق والتلاوّم / العناصر التي تكونت منها صورة التشبيه التمثيلي
لحياة الدنيا وهي الماء الذي اختلط بنبات الأرض ، وما جرت عليه من أحوال
وتعلقت به من مواصفات ، وما آل إليه حاله بعد ذلك هـ
بعينها العناصر التي يمثل بها لقيام البعث في القرآن الكريم ، لأنه لما

كان المخاطبون في الأمثال السابقة مشركين منكرين للبعث أو مؤمنين غافلين أو منافقين كما في سورة الحديد .
مثبت لهم الحياة الدنيا وقد مضت وفتت ، لتوء كد وتقرر الإيمان
باليوم الآخر فإذا البعث الذي ينكرونه أو يففلون عنه مائل لهم من بين
حصيد الفناء .

هـ - ومن التناسق البديع التناصب بين العاقبتين في المثليين
الكريمين اللذين ينتهيان باتيان أمر الله ومباغته لهم ، فالنسات
المخطط بالماء والذي بلغ غاية قوته وكمال بهجته ووفرته لا يترك
ليتابع مراحل الطبيعية نحو الفناء ، ولكنه يفاجأ ليلاً أو نهاراً بما
يقتلعه ويحتاجه من آفات وهايات فيجعله حصيدا .
أو يذهب ماؤه غوراً ، فيجف ويتهشم فتراه في أوج إقباله
قد أدير .

وكلمة (أصبح) توء كد معنى المباغة والمفاجأة التي أذهلتهم
بعد أن كشفت عنهم قناع الغفلة .
وهذا الذي يتناسب مع الطاغين المفسدين في الأرض المنكرين
للبعث ومع المفتخرين بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين .

بينما يتابع النبات في سورة الحديد أطواره ومراحله الطبيعية
فعنصر العقوبة غير موجود، لأن المخاطبين هنا أولئك الذين فتحت لهم
الدنيا بعد الفتح وأوتوا من زهرتها ما آمن نفوسهم واختلبها، وقد
يكون بعضهم حديثي عهد بالاسلام،
ولا زال التكاثر بالمال والتفاخر بالولد بقايا الجاهلية في نفوسهم
فلما فتحت لهم الدنيا وذاقوا من نعيمها بعد بؤس وجدب، فبلغ
فسي أعينهم فأيمة العجب،
ثم دعوا إلى الإنفاق في سبيل الله والمجاهدة بأموالهم وأنفسهم
تقاعست نفوس بعضهم، وحال بينها وبين المسارعة لتلبية نداء الله،
وداع الجهاد، حرصها على استيقان المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا
ومتاعها من اللعب واللهو والزينة، والتفاخر والتكاثر فحصر الله سبحانه
أسباب الشح هذه، وقصر الحياة الدنيا قصر اضيق على هذه الأمور التي
حالت بينهم وبين المسارعة بانفاق أموالهم في سبيل الله، فهي أصول تنضوى
تحتها كل متعة أو متاع. (١)

(١) انظر الأمثال في القرآن الكريم، محمد جابر الفياض ص ٣٣٨.

٧ - ومن أسرار التنوع أن التثيل في سورة الحديد أثر التعبير
بلفظة (كفار) والمراد بهم الزراع ، لأنهم أهل
البصر بالنبات فلا يعجبهم إلا المعجب حقا ، فهو إيمان
إلى بلوغ هذا النبات كمال الحسن ومنتهاه .

بينما عبر عنه في سورة يونس بقوله سبحانه :

* وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا *

لأن الحياة الدنيا لما كانت مثلة هناك بالعروس ، كان لفظ
أهلها ما يقتضيه النظم القرآني البديع لما في ذلك من
الإيمان إلى أنهم أهل البصر بها ومعرفة وجوه طلبها
والذين انقطعوا لها وجعلوها كل همهم وغاية أمرهم .

٨ - ومن أسرار التنوع أيضا إضافة النبات الى الغيث في سورة الحديد

بينما أضيف الى الأرض في سورة يونس والكهف ، لأن المقصود من إضافته للغيث التنويه برؤاه وقوته وجماله الذي لعب بالقلوب ، واختلب النفوس فآلبهاها عن طاعة الله وعن المسارعة لإعزاز دين الله ، ولا حسنه يتكاثف ويقوى ويشدد حتى باتت لا ترى كحسنة منهاه .

كما أن وراء إضافة النبات للغيث - والله أعلم - ايما بأن هذه النعم التي يفاخرون ويكاثرون بها إنما هي من رحمة الله وفضله الذي أغاثهم بها ثم هم يجحدونها ويمنعوها أداء شكرها .

بينما أضيف النبات الى الأرض في سورة يونس والكهف لأن المقصود (والله أعلم) الإشارة إلى ضعف نشأته التي توحى بها طراوة هذا النبات ورخاوته ، والإنسان في بدء خلقه ، كنبات الأرض ثم يشتد ساعده ويقوى فينسى ضعف نشأته ويفغل عن هدى ربه ، فيقسو قلبه ، فيطغى ويبغى ، ويفتخر ويتعالى ويفاخر ويكاثر .

٩ - ومن أسرار التنوع أن يقتضي النظم القرآني البديع ، وسياق الايات التعبير عن بلوغ النبات أقصى ما يتأتى له من النمو والنضارة والبهجة بقوله (ثم يهيج) لأنه اللفظ الذي يعني الذي سيق له ، ألا وهو اللعب

واللهو والتفاخر والتكاثر وما وراء ذلك من الهيجان والجلبة ، ففي لفظ
(يهيج) اضطراب وشوران يتلاءم مع شدة الانفعال والعجب التي
تصاحب حالة اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر فتبلغ أشدها وما عليه
واقع الناس اليوم من شدة افتتانهم بهذه الأمور وكذا هذا المعنى .

بينما فصل هذا المعنى في سورة يونس بقوله :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطْنَ أَهْلِهَا
أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا

لأن سياق الآيات هنا مبني على التحليل للحياة الدنيا وتفصيلها وهو الذي
يتناسب مع أهلها الذين رضوا بها وأنسوا وأطمأنوا إليها ، والذين هم
عن آيات الله غافلون .

بينما طوت سورة الكهف كثيرا من هذه المعاني ، لأن السياق
ليس سياق تحليل للحياة الدنيا ورسم خطواتها التي أوغل القوم فيها
فابعدوا .

وإنما هو تصوير للإقبال ثم الإعراض وهو الأشبه بحال صاحب
الذي أحيط بشمره بينما كانت له جنة لا يظن أن تبعد أبدا .

١٠ - ومن أسرار التنوع أيضا ملاءمة العناصر التي بني عليها التشبيه

للسياق الذي ورد فيه ففي سورة يونس نجد أن البحر والرياح الطيبة والموج
والماء والنبات كل هذا من واد واحد .

وفي سورة الكهف نجد الجنة التي أمست خاوية على عروشها والماء
والنبات والهشيم الذي تذرره الرياح أيضا من واحد واحد في التلاوم والتناسق
والاحكام .

وفي سورة الحديد تلح هذا التناسق بين اللهو واللعب والزينة
والتفاخر والتكاثر وما يحدثه من هيجان وثوران / حالة العجب بنبات الغيث
وحركة هذا النبات عندما يهيج فتراه صفرا ثم يكون حطاما .

وهكذا نجد أن تنوع التشبيه في القرآن الكريم يفسح مجالاً لدراسة
دقيقة تبحث الأسباب والأسرار التي من أجلها كان هذا التنوع ، وهي
فروق لا تظهر ولا تتجلى إلا بمقدار ما تعطى من المتابعة والمدارسة
والتحليل وجمع النفس ، وتفريغ الخاطر ، والنظر بسكون طائر ، وخفض
جناح .

وكما اقتربنا أكثر وجدنا أسراراً أجمل وخواطر أعظم وكان الرماني
يقصد إلى هذا اللون من البحث حين ساق آية يونس ، وآية الحديد في قرون
واحد ، وعلق على آية يونس بقوله :

(وقد اجتمعتا في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك
العبرة لمن اعتبر والمعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقيرٌ وإن طال مدته ،
وصغيرٌ وإن كبر قدره . (١)

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن
ص ٨٣ .

وقال في تعليقه على آية الحديد * وقد اجتمعتا في شدة الإعجاب

، ثم في التغير بالانقلاب ، وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار
(١)

بها والسكون إليها وهو بذلك يلفت الإنتباه إلى أسرار التنوع بطريق غير

مباشر.

(١) المصدر السابق ص ٨٣.

الفصل الثاني :

التشبهات التي تمثل الإنفاق وأسرار تنوعها .

ويتضمن :

- ١ - الإنفاق في سبيل الله .
- ٢ - الإنفاق المشوب بالمن والاذى أو الرياء أو الكفر .

المدخل :

ورد ذكر الإنفاق في القرآن الكريم في مواضع عديدة وعلى صور
بلاغية مختلفة جاء بعضها عن طريق التشبيه والتشيل وبعضها الآخر
عن غير طريق التشبيه حث فيها سبحانه النفوس على البذل والإنفاق
بألطف أنواع الخطاب فقال تعالى :

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُولَاهُ يُجْرِكُونَ (١)

ووعدهم بأنه سيخلفه وأنه يوفى إليهم غير منقوص :

يَوْمَ أَنْقَضُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّاقِينَ (٢)

يَوْمَ أَنْقَضُوا مِنْ خَيْرِ يَوْمٍ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَطْلُونَ (٣)

وأنه فوق ذلك سيتجر لهم بما أنفقوا وينميه وثمره لهم حتى

يصبح أضعافاً مضاعفة :

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (٤)

-
- (١) آية ١١ من سورة الحديد .
(٢) آية ٣٩ من سورة سبأ .
(٣) آية ٢٧٢ من سورة البقرة .
(٤) آية ٢٤٥ من سورة البقرة .

وان لهم فوق ذلك أجرا عظيما وعطايا كريما والآن من يوم الوعيد

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

ثم بين لهم سبحانه صفات قبول هذه النفقة الطيبة التي لها

هذا الفضل وهذه المزية .

فاشترط أن تكون من أطيب المال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ (١)

لَنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ حَتَّى تَنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ (٢)

وأن تكون خالصة لوجه الله :

وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لِيُضَاعَفَ لَكُمْ أَجْرُكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ (٣)

وأن لا يمن بها ولا يؤذى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى (٤)

وأن أعلى مراتب الإنفاق ، الإنفاق على كل الوجوه سراً وعلانيةً

حتى تصبح هذه الصفة خصلة قائمة في نفوسهم وجبلة تنطبع عليها

قلوبهم فلا يبالون أن ينفقوا على أية حال :

(١) البقرة / ٢٦٧

(٢) آل عمران / ٩٢

(٣) البقرة / ٢٧٢

(٤) البقرة / ٢٦٢

(٢)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ

ثم مثل سبحانه لهذه المعاني كلها في صور تشيلية رائعة

المعنى بديعة النظم خصبة التشبيه تنفذ إلى القلب من نوافذ شتى

ترى فيها تلك الأضعاف المضاعفة ماثلة في :

حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ

أوترى فيها تلك النفس الزكية المطمئنة ونفقتها بخيرها

الخصيب :

كثَلٌ حَبَّةٌ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَعَانَتْ أَظْفَارُ ضَعْفَيْنِ

كما ترى مقابل ذلك تشيلاً لمن شابت نفقته شائبة المن

أو الكفر

والأذى أو الرياء / فتراه كصفوان عليه تراب :

فَأَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صِلْدًا

أوترى أعماله جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار

فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ

١ - الانفاق في سبيل الله .

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ

أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ

سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾

(سورة البقرة) .

وقال تعالى :

وَمَثَلُ الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ

جَنَّةٍ بَرْبُورَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَانْتَأَتْ أَكْطُفُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ

فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٢﴾ (سورة البقرة) .

٢ - الإنفاق المشوب بالرياء أو المن والأذى أو الكفر -

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي
يُنْفِقُ مَالَهُ رِيسَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ مُصَلِّدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

(سورة البقرة)

أَيُّدٌ أَحَدٌ كُرْ أَنْ نَكُونَ لَهُ جَنَّةً
مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ
فَأَحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾

(سورة البقرة)

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَئِنْ كُنْ

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ (سورة آل عمران)

من أسرار المناسبة :

للآيات في القرآن الكريم سياق قريب يرتبط به وسياق عام لا تتفصل عنه ولذلك تتعدد وجوه النظر في أسرار المناسبة ولطائفها فالآية القرآنية أشبه بفرع في دوحه، وكلما عظمت هذه الدوحه وطالت دقت أسرار المناسبة ولطفت وبعدت وامتدت فإذا أردنا الوقوف على بعض تلك الأسرار في السياق العام لهذه الآيات نجدها تمتد إلى بداية السورة، كقوله عز وجل :

أَوْمِيًّا رَزَقْنَاهُمْ يُعْبِقُونَ (١)

إجمال لصفة من صفات المتقين ثم يأتي التفصيل بعد ذلك في ثنايا السورة، حيث يأمر الله عز وجل بالإنفاق ويصفه بأنه بشابه القرض لله ويرغب في ذلك، ويعد بمضاعفته أضعافا كثيرة، ثم يضرب الأمثال ويقص القصص لمن بذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيله، ثم يذكر البعث وإحياء الموتى وانتهاهم إلى الدار التي يوفون فيها أجورهم يوم لا تنفع فدية ولا خلا ولا شفاعة وإنما تنفعهم أعمالهم التي أهمها الإنفاق في سبيله، ثم يضرب المشل

(١) الآية ٣ من سورة البقرة.

الحديث عنه برهانا ودليل صدق على الإيمان بالله الذي تجلت صفته
في أعظم آية . والإيمان باليوم الآخر الذي أقيمت له الأدلة لأن المال
شقيق الروح لا يبدل ولا يبهان ما لم يعبر القلب بالإيمان واليقين .

ثم تأمل هذا الذي :

مَرَّ عَلَى اقْتَرَبِي وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا (١)

وكيف حفظ الله له طعامه ، وشرابه لم يتسنه بينما فنيت راحلته ثم بعثت ،
وما وراء ذلك من إثبات القدرة لله على كل شيء ، فالقادر على حفظ قوت
الإنسان الذي هو مظنة التطف والفساد قادر على حفظ جزء الأعمال
التي هي الزاد ليوم المعاد .

وهكذا يقر المؤمن من بقدرته ربه إيماننا وبقينا :

قَالَ أَكْبَرُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)

ثم تأتي مرحلة أعلى وأعظم مرحلة الاطمئنان القلبي بروءيسة
الحياة ، تبعث بعد موت في هذه الاطيار الممزقة بين يدي رجل مؤمن
من
قد بلغ إيمانه علم اليقين ولكنه الشوق العالي الذي يحرك قلبه ، فلا يهدأ

(١) البقرة / ٢٥٩ .

(٢) البقرة / ٢٥٩ .

ولا يطمئن حتى يأنس بروءية صنع الله وقدرته تمثل بين يديه فإذا هو
عين اليقين .

ويا لهذه النفس الموءنة العالية كيف تتشوق إلى هذا الأُنس
والاطمئنان من الرحمن الرحيم . ويا لله لهذا الود والرحمة الربانية تفر قلب
عبده الأواه الحليم .

فإذا كان إبراهيم طلب من ربه ذلك وهو من هو إيماناً و يقيناً
فما أخرى هذه النفوس الموءنة التي نوديت بصفة الإيمان وحرضت على الإنفاق
في سبيل الرحمن أن تطمئن وتأنس بمعابنة وروءية ما أنفقته يبعث ومثل
بين يديها أضعافاً مضاعفة ليكون ذلك تحريضاً لها وتأليفاً لقلبها، ما دنا
سياق
في/الحديث عن البعث فهذه الشمس تأتي من المشرق فتولد معها الحياة
والدفء، وتلك القرية الخاوية على عروشها تعود إليها نضارتها وخصوبتها
بعد يبس وجفاف، وهذه العظام تنشز ثم تكس لحماً بعد رفات ورسم،
وتلك الطيور ترفرف في السماء، وقد جمعت عليها أشلاؤها بعد فناء،
وهذه الحبة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة واللحم
يضاعف لمن يشاء، كل هذه المظاهر يظهر فيها روح الحياة والخصوبة
والتوالد والتكاثر .

ثم تذوق بديع هذا التناسق بين العناصر التي مثلت كيف
تبعث الحياة من عالم الفلك إلى عالم الحيوان إلى عالم الطير/ إلى عالم
النبات .

ومع ذلك فان السياق القرآني لا يضيق عن معان وأسرار آخر
فلكها حلقات في سلسلة سياق منسق، فقد ذكر أهل العلم أنه لما ذكر
عز وجل فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر
الجهاد بالمال. (١)

كما قالوا " انه لما ذكر المبدأ والمعاد ودلائل صحتها أتبع
ذلك ببيان الشرائع والأحكام والتكاليف فبدأ بإِنفاق الأموال في سبيل
الله ". (٢)

وفي ذلك إرساء لقواعد النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي يقوم
عليه المجتمع المسلم الجديد وهذا النظام يقضي على النظام الربوي السذي
كان سائدا في الجاهلية ويزرع السخاء والعطاء والإنفاق في سبيل الله
الذي له ميراث السموات والأرض بدل الربا الذي صار حربا لله ولرسوله
وهذا هو الفرق بين التوجه الإنساني الرحيم في الاقتصاد الإسلامي والتوجه
الانثاني البغيض في النظام الربوي .

والمأمل لا مثال القرآن الكريم في سورة البقرة يجد أن التمثيل
للإنفاق في هذه السورة له من العناية والاهتمام ما ليس لغيره وذلك لشرف
النفقة وفضلها ومكانتها .

(١) تفسير الرازي ^{القرآن} ٥٨/٧ .
(٢) البحر المحيط ٣٠٣/٢ .

فقد ورد في سورة البقرة تشييل للمنافقين في مثلين بديعين وهما

قوله تعالى :

أَمْثَلُكُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ (١)

كما ورد فيها تشييل لقسوة قلوب اليهود قوم موسى :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ (٢)

وجاء فيها تشييل للذين كفروا :

أَوْ مَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ (٣)

والم تأمل لهذه العناصر التي بنيت فيها صور التشبيه يجدها

من واد واحد ويرى بينها من التناسب والاحكام ما يحمل النفس على

الاخبات لربها مصرف الامثال، فالمستوقد ناراً يستضيء بها وأصحاب

الصيب الذين يتعشرون في خطاهم بين ظلمات واعد ورق ،

وأولئك القاسية قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة وسط طبيعة

تتفجر أحجارها يناييع ثرة وتهبط من خشية الله، وذلك الناعق على غنمه

(١) آية / ١٨-١٩ من سورة البقرة .

(٢) آية / ٧٤ من سورة البقرة .

(٣) آية / ٧١ من سورة البقرة .

وهم في غفلة عنه، وتلك الحبة التي أنبتت سبع سنابل، والجنة بربوة
التي أصابها الوابل، والصفوان الذي عليه تراب، والحبة التي احترقت
فزالت، كلهما صور متناسقة وهيئات للمعاني متناسبة تدل على طبيعة
واحدة تجلت على مراتبها قدرة رب واحد وبارئ واحد..

ولكن شمة فرق دقيق بين تلك الصور وبين الإنفاق في سبيل
الله إذا أردت أن تقف عليه فتأمل ما توحى به تلك الصور من معاني
الحيرة والشك والضلالة والقسوة والغفلة وعدم الانتفاع والفناء والهلاك
بينما يمثل الإنفاق في سبيل الله معاني الخير والخصوبة والبركة المضاعفة
والحياة النامية الزاكية الباقية عند الله.

من أسرار اللغة والنظم :

يقول ابن القيم : " شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله سواء "

أكان المراد بها الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر يمن بذرا

فأنبت سبع سنابل اشتملت كل سنبله على مائة حبة، والله يضاعف بحسب

(١)

حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها "

وهذا من التشبيه التمثيلي الذي يمثل المعقول في سورة المحسوس : " ولا بد

(٢)

حذف فيه من/مضاف : أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة .

وأيا كان المحذوف ففي الآية إيجاز بالحذف في المفرد وهو كثير في كلام

الله تعالى .

وفي البدء بالذين آمنوا إشارة إلى أن رأس الأمر في هذه

المضاعفة هو الإيمان ومقدار عمقه في القلب يعظم الأجر عليه .

وهو ما يومي^{إليه} / بالسنايل السبع والمضاعفة المطلقة لمن يشاء .

وهذا المثل مدني مضروب للمؤمنين لذلك بدأ بذكرهم ووجه

الحديث إليهم، فهم موضع العناية والاهتمام لذلك أرجح أن يكسبون

(١) ابن القيم ، كتاب إعلام الموقعين ص ١٨٣ .

(٢) الكشاف ١ / ١٩٣ .

المحذوف مقدراً في المشبه به لأن ذكر الحبة لا يُغني عن ذكر باذرها
لأن المراد/ تعود به هذه المضاعفة من خير خصيب على نفس زارعها. (١)
والمشبه به: حال إعطاء النفقة
ومصادفتها موقعها وما أعطى من الثواب لهم والمشبه به: هذه
الحبة التي هذه صفتها :

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ قَامَةٌ بِمِثْلِ حَبَّتِهَا
جوانب
وأما وجه الشبه فله / كثيرة قد تتسع وتمتد وتظهر أثناء التحليل
والدراسة والتأمل ولكنها على وجه الإجمال تتلخص في " أن كليهما رفع
ما يعز عليه وما حبه من فطرة النفوس دفعه عاجلاً من أجل نفع آجل
وخير فعاد عليه نفعه وأجره أضعافاً مضاعفة ". (٢)
فهي الهيئة الحاصلة من النمو والزيادة في شيء بعد قلته
وضالته .

ثم تأمل ما وراء التعبير بهذه الصلة :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

(١) انظر الأمثال في القرآن د / محمد جابر الفياض ص ٣٥٦ ،

(٢) التحرير والتنوير ٣ / ٤٩٠ .

والموءنة بأن المراد حال إنفاقهم خصوصا هذه الحال التي تكاد تكون عزيزة ونادرة إذ هي مما تتميز به النفوس الكريمة :

وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١)

ثم تأمل كيف يستنهضون أنفسهم من الإخلاق إلى حب المال فيهلكونه سخيا في سبيل الله بهذا الفعل " ينفقون " والذي يوحى بتجدد ذلك الوابل المفقود بالعطاء واستمراره، هذا بعض ما تشي به هذه الصلة بموصولها عن هذه النفقة بسفقتها من دقائق فتعظم قدرهم وتفيض بسخاوة نفوسهم وإيثارهم الباقي الخالد على الغاني البائد .

ثم إذا ما عدت إلى هذه الصلة ، وجدت أن التعبير بها جاء على هذه الصورة الجماعية : **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ** والتي تتجاوب فيها القلوب الموءنة تتنافس على البذل والعطاء ، وتتسابق إلى الأجره والجزاء لا تبتغي تميزا ولا شهرة ، بل حيث كان الخير سارعت إليه وزاحمت عليه ، ثم استحضر في نفسك صورة عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - حين جاء بأربعة آلاف مقرضا ربه يسأله عثمان رضي الله عنه وهو يجهز جيش العسرة بألف يعير بأقتابها وأحلاسها .

(١) الآية ٩ من سورة الحشر .

ووازن هذا التناقس والتعاون والإخاء بصورة ذلك المناقس

في قوله تعالى :

(١)

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ .

فهو ينفق وحده ويرائي وحده، وكأنه لا يرى إلا نفسه ولا يسمي إلا لما فيه استعلاؤه ها وتميزها وشهرتها .

وفي إضافة الأموال إليهم في قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

رغم كونهم مستخلفين فيها ما يشير إلى طيب نفوسهم عند بذلها لأنها أموالهم التي منحوها من وكدهم نفوسهم وصباية قلوبهم فهم لا يجذلونها إلا فيما فيه بركتها وقاؤها . ولأن المال بعد النفقة صار مالهم المدخسر لهم عند ربهم فالسياق سياق تكريم لهم وتشريف لأنهم امتثلوا وأنفقوا كما أن فيه إشارة إلى طيب الأموال لأنها من هذه المعادن الكريمة الطيبة . وازن هذا بأولئك الذين يستخرون الخبيث الردي لينفقونه .

ثم تأمل كيف قيد الإنفاق بقوله : * في سبيل الله * .

إشارة إلى الإخلاص في العمل ، ووقوع النفقة موقعها حيث

وقعت في سبيل الله الذي له الكمال كله . وهذه الجملة هي مناط الفائدة

فليس المهم أنهم ينفقون أموالهم لأن من الخلق من ينفق الكثير من ماله
وإنما المهم أنهم ينفقونها في سبيل الله .

ولما اجتمع لهذه النفقة طيبها ، وطيب منفقها ، وطيب موقعها

كانت بركتها وما أعطى من الثواب لهم :

كَمَثَلِ حَبَّةِ أَبْنْتِ سَبْعِ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ

وهكذا يقع التمثيل في القرآن موقعه إلا يمكن حيث ينقلهم

عَزَّوَجَلَّ إلى عالم الغيب فإذا هو مرئيٌّ وشاهدٌ وإذا أموالهم التي فنيت

وهلكت ماثلة أمام أعينهم وبين أيديهم أضعافاً مضاعفةً ، وبهذه الصورة

الحية الخصبة يستجيش القرآن المشاعر ويملك القلوب ويحض ويرغب إذ

يريهما ما يغلب على الظن أنه مغرم بأنه مغنم وما يروونه نقصاً بأنه

زيادة وأى زيادة .

يقول ابن القيم : " والياذل متى علم أن عين ماله يعود إليه

ولا يد طوعت له نفسه وسهل عليه إخراجه .

فإن علم أن المستقرض ملءٌ وفيه محسن كان أبلغ في طيب فعله

وساحة نفسه ، فإن علم أن المستقرض يتجرله بما اقترضه وينمي له ويشمره

حتى يصير أضعافاً ما بذله كان بالقرض أسح وأسمح ، فإن علم أنه فسي

ذلك يزيد من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر

حظ عظيم وعطاء كريم ، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل

والشح أو عدم الثقة بالضمآن وذلك من ضعف إيمانه". (١)

وورا^١ تفكير (حبة) ما ورا^٢ها من كونها حبة فريدة مميزة فسي
صفتها مركبتها وطيبها، والحب ما يزرع للاقتيات ففيه إقامة أود الإنسان
كما^٣ أن النفقة عمود من أعمدة الدين، و بها يقام ركن من أركان الإيمان
وهي الزاد ليوم المعاد .

وفي كلمة (أَنبَتَ) : أي بما جعل الله لها من قوة الإنبات
بطيب أرضها واعتدال ريها فهي أبرك بذر وقعت في أخصب أرض فتمت
أحسن نمو فجاءت غلته مضاعفة إلى سبعمائة ضعف أي منتهى الخصب
والنماء أو تمامه وكماله . (٢)

والمثبت الحقيقي هو الله وفي إسنار الإنبات لها تأكيد لقوة
السببية^(٣) .

و (السنبلة) : فَنَعْلَهُ مِنْ أَسْبَلِ الزَّرْعِ إِذَا صَارَ فِيهِ السَّنْبِلُ
أي استرسل بالسنبيل كما يسترسل الستر بالإسبال ، وقيل معناه : صار فيه

(١) تفسير ابن القيم ، ١٤٩/١

(٢) تفسير المنار ٦٠/٣

(٣) انظر الكشاف ٣٩٣/١

حب مستور كما يستر الشيء بإسبال الستر عليه". (١)

و (أَبْنَيْتُ سَبْعَ سَمَائِلٍ) أى تشعب منها سبع شعب في كل
شعبة سنبلة وهو من السنبيل ، وهو مجتمع الحب في أكمامه كأنه آية
استحقاق اجتماع أهل ذلك الرزق في تعاونهم في أمرهم وتعريف بأن
الحب بجمعه لا بوحدته". (٢)

وإذا ما استقصيت التأمل وراجعت هذا المعنى الذى ذكره

الامام البيهقي رأيت فيه أن هوء لا° الذين ألف بين قلوبهم الإيمان وجمعتهم
النفقة في سبيل الرحمة ،
لينا تشابهت قلوبهم وأعمالهم ونفقاتهم وخلصت
الله جاء التعبير عنهم في صورة تجلت على مرآتها قلوبهم المجتمعمة
على محبته وطاعته فكان الحب في أكمامه صورة لتلك القلوب المتحابية والمتضاهية
والتي صارت تمثل كياناً واحداً تغذى بماؤ واحد وتعيش حياة واحدة ،
وهذا لب ما يهدف إليه التشريع الحكيم من الأمر بالإنفاق المؤدى إلى
ضرب من التكافل والتعاون ، والتضام والتحاب .

(١) تفسير القرطبي ٣ / ٣٠٤

(٢) نظم الدرر ٤ / ٧٥

وفي ذكر (السبع) لما يوحي به من التمام وما يقبله من التكرير لأن العرب تكثر به ما هو أقل منه أو أكثر (١) ولأن عدد السبعة ومضاعفاتها حظيت في القرآن الكريم بعناية خاصة وأنها استخدمت للدلالة على الكثرة الكاثرة والتعبير عن أقصى ما تستشعره النفوس من الأضعاف المضاعفة. (٢)

فتأمل كيف جعل سبحانه أدنى النفقة في سبيله سبحانه سبعة ضعف ثم فتح باب التضعيف إلى ما لا يصل إلى عدد أو حد . وهذا الذي ذكره سبحانه من التشيل للإنفاق في سبيله إنما هو لا أول الإنفاق.

وجملة التذييل هذه
والله يضاعف لمن يشاء / إعلام من الله سبحانه وتعالى بأنه

” يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها “. (٤)

فإن الله الذي له الكمال في كل صفة ، والله بما له من السعة يضاعف

ولم يقل (يزيد) إذ المضاعفة أن يضم إليه مثله فصاعدا ، وذلك منتهم

(١) انظر نظم الدر ٠٧٥/٤

(٢) انظر الامثال في القرآن الكريم ، د/ محمد جابر الفيض ص :

٠٣٦٩ - ٣٦٨

(٣) انظر نظم الدر ٠٧٥/٤

(٤) اعلام الموقعين ٠١٨٤/١

العطاء والفضل والسعة ، ولأنه (عليم) بنية المنفق وسائر أحواله ، فهو يضاعف لمن يشاء بحسب علمه ، فسبحان من لا يحصر فضله ولا يحسد عطاؤه ، وهكذا تتناسب الفاصلة (عليم) مع السياق السابق . وبهذا التذييل البديع يتم المعنى ليستأنف بعد ذلك معنى آخر مرتبط بما قبله من حيث أنه بيان لكيفية الإنفاق الذي بين فضله ، أى الإنفاق الذى ينمو ويربو ويتضاعف إلى ما شاء الله ، ومن جهة المشبه به فهو بيان للحارث كيف يحرت حرثه وحفظه مما يستأصله أو يفسده فيتعاهده بالسقي ونفي الآفات المهلكة عنه .

ويقابله في المشبه ألا يتبع المنفق إنفاقه بما يبطله من المن والذى أى يذهب ثوابه بقوله تعالى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يَتَّبِعُوا مَا أَنْفَقُوا مِنْهَا
وَلَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

نص على هذه الصلة بموصولها فقال :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ « في الآية السابقة
وأعادها هنا مرة ثانية وأظهرها حفاوة بها واهتماما لأنها رأس المعنى
وأصله ، ثم عطف عليها قوله :

لَمْ يَتَّبِعُوا مَا أَنْفَقُوا مِنْهَا وَلَا أَدَّى

فهذه الجطة معطوفة على حيز الصلة وهي قوله :

يُتَّقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فهو الإنفاق النائي عن المن والأذى .

والمن : أن يَعتدَّ على من أحسن إليه باحسانه ويريه أنه

اصطنعه وأوجب عليه حقا . (١)

وكانوا يقولون إذا صدعتم صنيعة فانسوها ، وفي نوابغ الكلم :

" طَعْمُ الآلَاءِ أَهْلَى مِنَ الْمَنِّ وَهُوَ أَمْرٌ مِنَ الآلَاءِ مَعَ الْمَنِّ " (٢) وفي هذا

من مرارة المن وشدة وطأته على النفوس الكريمة ما فيه .

والأذى : أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه فيتمالي .

ويتفاخر أو يذكره لغيره ، فالأذى أشمل وأعم ، فهو من قبيل عطف العام

على الخاص ، وإنما قدم المن لكثرة وقوعه . (٣)

ثم تأمل ما وراء لفظ (ثم) من دقائق .

و " ثم " في الأصل لتباعد الأزمنة وتراخيها ، فقالوا إنها

استعيرت من معناها الأصلي لتدل على التفاوت بين الإنفاق وتسرك

(١) الكشاف ١/٣٩٣ .

(٢) الآلاء الأولى : النعم ، الآلاء الثانية : شجر مر العرق .
المن الأول : يشبه العسل ، المن الثاني : تذكير المنعم عليه
بالنعمة .

(٣) انظر أبو السعود ١/٢٥٨ .

المن والاذى في الرتبة والبعد بينهما في الدرجة . (١)

يقول الزمخشري : * و معنى (ثم) إظهار التفاوت بين

الإِنْفَاقِ وَتَرْكِ الْمَنِّ وَالْأَذَى وَأَنَّ تَرْكَهُمَا خَيْرٌ مِنْ نَفْسِ الْإِنْفَاقِ * . (٢)

وفي الشريعة درء المفسد مقدم على جلب المصالح .

ومنهم من أبقى (ثم) على معناها الأصلي وهي الإشعار ببعد

الزمن فأفادت دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقاءه أى أنهم " يدومون

على تناسي الإحسان وترك الاعتداد والامتنان ليسوا بآثار كيه * . (٣)

وهكذا تخلص العبودية لله عندما تخلص هذه القلوب وتطهر

من حب الدنيا وتستعلي بإيمانها ونفقتها عن الرغبة في نيل الجزاء

من الناس ، والذي هو المحرض الأول للمن والاذى .

ولما كانت الحكمة من الإِنْفَاقِ تطهير النفس وتزكيتها من البخل

والشح ، كان لا بد من مجاهدة النفس في ذلك ، فجاء التعبير القرآني :

ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا شَيْئًا وَلَا أَذَى

وتربيتها على دوام الإِنْفَاقِ واستمرار العطاء مع تناسي الإحسان وترك الامتنان ،

(١) انظر روح المعاني ٣/٣٣٠ .

(٢) الكشاف ١/٣٩٤ .

(٣) المصدر السابق .

لأن المال مال الله وهم يستخلفون فيه ، وما جرى على أيديهم من فضل
فلله الفضل والمنه جميعا ، وذلك توه تي النفقة ثمارها حين تسمو بنفس
صاحبها ، فتنمو وتقوى روابط المحبة والتكافل والتعاون وتزكسو النفوس
بالمشاعر ، ويظهر المجتمع من الفقر والحرمان والشر والظغيان وهكذا
ينأى المسلم بنفسه عن أن يكون عبدا للمال أو عبدا لإحسانه أو مستعبداً
لأخيه الإنسان .

ثم تأمل ما وراء تعريف (الصدقة) وتكبير (المن والأذى) في

قوله تعالى :

سَمَّ الْأَيْتِيحُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى وَمَا يُوحي به من أن

المراد منا ، أى من ، ولا أذى ، أى أذى ، أى أنه للتقليل وإذا نهوا عن
التقليل من المن والأذى فهم عن الكثير أشد نهياً .

والنفس المؤمنة تعرف المعروف وتكر المنكر مهما عظم وظفى

أوقل وخفى ، قال تعالى :

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

(١) * لما كان الإنسان قد يزرع ما يكون لغيره بين أن هذا لهم * (١)

لَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ وَفِي تَكَرُّرِ الْإِسْتِزَادِ وَتَقْيِيدِ الْأَمْرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى
(لَهُمْ) (عند ربهم) من التأكيد وتشريف ما لا يخفى . (١)

ثم تذوق كيف أثرى هذا القيد (عند ربهم) المعنى وضاعفه
إلى حد يفوق الوصف وأشار إلى التربية ومزيد الفضل والعناية بها . فهو
ر بهم المحسن إليهم بتربيتهم القائم على ما يقبل من النفقات بالحفظ
والتنمية حتى تصير في المعظم إلى ما لا حد له أوعد . (٢)

فلهذا هذا الفضل العظيم والخير الخصب وهو ينمو ويربو
عند العربي الكريم الذي يأخذ الصدقة بيمينه فيرببها كما يربي أحدكم
فأوه أوفضيله .

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

» أي لا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه من المكاره ولا
هم يحزنون لغوت مطلوب من المطالب قل أو جل أي لا يعتربهم ما يوجب . (٣)
وفي تنكير (خوف) ما يوحي بأنه لا يعتربهم أدنى خوف .

(١) روح المعاني ٣/٣٣ وانظر (أبو السعود) ١/٢٥٨ .

(٢) نظم الدرر ٤/٧٧ .

(٣) أبو السعود ١/٢٥٨ .

ثم تأمل كيف يجازيهم/ من جنس عملهم جزاءً نفسياً معنوياً
بالإضافة إلى الجزاء الحسي الذي يرونه ، فمن كان يدينه وشأنه تفريج
الكروب ببذل ماله وتطبيب النفوس ، وتنديتها بطيب نفسه وقوله وسموه
عما يقطع صلته ويورث الآلام النفسية ، ويجرح المشاعر والكرامات الإنسانية
من المن والأذى ، كان جزاؤه أن ينفي عنه ما نفاه عن أخيه فلا يكرمه ولا
يحزنه هم ولا غم فدوام انتفاءهما " أى الخوف والحزن " جزاءً يجانس
عمله مع انتفاء ما يشوبه ويكدره ويقطعه فله هذه الطمأنينة التي لا تشوبها
شائبة من خوف .

وهذا إلا من الذى لا يعتره شيء من كرب يوم القيامة . يوم يود

الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ الْعَذَابَ إِنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَادُوا بِهِ (١)

* قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم

أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره كالدعاء والتأنيس والترجيه

بما عند الله يرد به السائل من غير إعطاء شيء. (١)

وفي تنكير (قول) : ما يشير إلى أن قليله خير.

(ومغفرة) : أى ستر للخلة وسوء حالة المحتاج وتجاوز لما

وقع منه من الإلحاف في المسألة وصفح عنه. (٢)

خير من صدقة يتبعها أذى

(٣)

* لكونها مشوية بضرر ما يتبعها وخلص الأولين من الضرر *

وهكذا توءم هذه الجملة المستأنفة النهي عن المن والأذى وتقرر

الحكمة من الإنفاق وهو تهذيب النفوس وترضية القلوب وربطها برباط المحبة

في الله .

فإذا لم تحقق الصدقة هذا المعنى ، بل شابتة شائبة المن والأذى

(١) انظر البحر المحيط ٣٠٧/٢ ، وأبو السعود ٢٥٨/١ ، والطبري

٤٣/٣ المحرر الوجيز ٠٣/٢

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) أبو السعود ٢٥٨/١

فان هناك ما يقابلها من الصدقة المعنوية صدقة البيان :

* قول معروف وعقبة

كلمة طيبة تغدق على قلب السائل من فيوضها

خير عند الله من صدقة مهما عظمت يتبعها أذى فيها كشف

لحاجته ، وإذلال لكرامته ومن ثم تصدع لبنان المجتمع كله .

فكأن قوة المؤمنين ومركبتهم في تحابيبهم وتعاونهم وإيثارهم ،

وإلا فإن الله غني حلیم ، غني * لا يحوج الفقراء إلى تحمل مؤنة المن

والأذى ويرزقهم من جهة أخرى . (١)

غني عن صدقات العباد ، وإنما أمرهم بها ليثيبهم وهو غني عن

الصدقة التي يتبعها من وأذى لأنه لا يقبل إلا طيباً . (٢)

(حلیم) لا يعاجل بالعقوبة على المن والأذى وفي ذلك

من الوعد والوعيد ما فيه .

وفي هذا التذييل البديع والله غني حلیم ندب للمؤمنين

أن يتخلقوا بصفات ربهم ويتأدبوا منها بما تطيقه أنفسهم وتتسع له

طبيعتهم . (٣)

(١) أبو السعود ٢٥٨ / ١

(٢) انظر البحر المحيط ٣٠٨ / ٢ ، انظر حاشية الشهاب على تفسير

البيضاوى ٣٤٢ / ١

(٣) انظر التحرير والتنوير ٤٧ / ١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي
يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا تَالِيسًا وَلَا يُوَفِّيهِ مِنَ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

الآية .

تأمل هذا الالتفات البديع الذي يقبل فيه الله سبحانه وتعالى

على عباده المؤمنين بالخطاب ، بعد أن ^{ما بين} بين/ بطريق الغيبة فيما مضى

من الآيات ليبالغ ويؤكّد النهي عن إلتحاق النفقة بالمن والأذى .

وفيه تنصيص على أن المن والأذى يمحق النفقة ويبطلها ، لذلك

ضرب مثلاً لهما ، وضرب للمثل مثلاً مبالغاً في الزجر عن ذلك . (١)

وراء النداء في القرآن الكريم أسرار تدق وتلطّف ، إذ لا يستدعي

بهذا النداء : " يا أيها الذين آمنوا " إلا المعاني الهامة الجليلة .

ثم تأمل كيف عظم الله قبح المن والأذى في معارض الكلام بثلاث

طرق بيانية تدرجت بالنفس وارتقت بها عن أن يكون من هذا شأنه .

(١) انظر تفسير روح المعاني ٣/ ٣٤ ، انظر نظم الدرر ٤/ ٧٩ ،

أبو السعود ١/ ٣٥٩ . انظر البحر المحيط ٢/ ٣٠٨ .

بدأ ذلك بالشناء على تاركه :

لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنصَحُوا آمَنَّا وَلَا أَدَىٰ

ثم بين أنها مشوية بضرر ، لذلك فضل عليها :

* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ *

لأنهما خالصتان من الضرر .

ثم صرح بالنهي عنها لأنها تبطل العمل ، أي تذهب بشوابه

وتمحقه (١) فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ

(٢) " الإبطال جعل الشيء باطلاً أي زائلاً غير نافع لما أريد منه . "

أي لا تحبطوا أجرها بواحد منهما .

(١) انظر البحر المحيط ٢/٣٠٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣/٤٧ .

يقول أبو حيان : " ولما جرى ذكر (المن والأذى) مرتين

أعادها هنا بالألف واللام " (١)

وفيه إشارة إلى أنها لم يعودا ملتبسين منكبين على أهل

الإيمان ووراء قوله عز وجل (صدقاتكم) أي التي كان بها صدق إيمانكم

بالغيب لأن الرزق غيب والواثق بذلك الغيب منفق ماله تصديقاً بأن الله

سيخافه .

كَالَّذِي يَنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال المنافق الذي

ينفق ماله (رياء الناس) لا يريد رضا الله ولا ثواب الآخرة . (٢)

ويجوز أن تكون الكاف في محل النصب على الحال : أي لا تبطلوا

صدقاتكم مماثلين الذي ينفق " (٣) والتشبيه هنا تشبيه أسلوب أو منفي .

والمعنى تشبيه الذين يتصدقون بأموالهم ثم يتبعون صدقاتهم

بالمن والأذى بالمنفقين رياء الناس، ثم مثل لحال الذي ينفق ماله رياء الناس

(١) البحر المحيط ٢/٣٠٨ .

(٢) الكشاف ١/٣٩٤ .

(٣) المصدر السابق .

والمراد بالمراثي هنا على الوجه الراجح : المنافق والكافر معا .
لانهما شريكان في عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وإن أخفاه الأول وأظهره
الثاني فالرياء يمكن أن يصدر عنهما وذلك أن المنافق مرء إذا أنفق ماله
مدعيا أنه لوجه الله وهو في قرارة نفسه لا يؤمن بالله واليوم الآخر ،
والكافر مرء إذا أنفق ليقال عنه سخى كريم خبير رحيم فهو يتظاهر
بالرحمة والشفقة^(١) كما يحدث اليوم مع جماعات التبشير التي تستميل
القلوب بمساعدتها للشعوب الفقيرة والمنكوبة وهي لا تؤمن بالله واليوم
الآخر .

(١) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٢ / ٣١٤ .

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ
صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

هذا تشييل لحالة المرابي فيه تفصيل لما أجمله .

يقول أبوحيان : " ضرب الله لهذا المنافق أو الكافر الباطني

المثل يصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضاً منبتة فإذا أصابه

وابل من المطر أذهب عنه التراب فبقي صلداً متكسفاً وأخلف ما ظنه

الظان وكذلك هذا المنافق يرى الناس أعمالاً كما يرى التراب على

هذا الصفوان فإذا كان يوم القيامة أذهب الوابل ما كان على الصفوان

من تراب" . (١)

والصفوان : " صيغة مهالفة من الصفا وهي الحجارة الطمس

الصلبة التي لا تقبل انصداعها بالنبات" . (٢)

عليه تراب : قال الألويسي : " أي عليه شيء يسير منه" . (٣)

(١) البحر المحيط ٢/٣٠٩ .

(٢) نظم الدرر ٤/٨٠ وانظر الكشاف ١/٣٩٤ .

(٣) روح المعاني ٣/٣٥٥ .

والذى يظهر لي - والله أعلم - أن عليه تراباً كثيراً لأن التراب
يمثل أعماله التي راى بها وكان يرجونها النفع بالإنبات والأجسر
وهي أعمال كثيرة فضلا عن أن عناصر الجطة مبنية على المبالغة .
ففي كلمة صفوان : مبالغة في شدة ملاسته ونعمته .
وفي تنكير وابل : مبالغة في شدته وقوته فهو وابل شديد
الوقع عظيم القطر .

لذلك كان المناسب أن يكون التراب عظيما وفيرا ولو كان ترابا
يسيرا لكفاه اليسير من المطر لإزالته .

وَأَصَابَ : تَأْتِي فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْمَرَادُ بِهَا هُنَا الشَّرُّ تَلَاوَهُ مَا
مع المعنى الذى سبقت له . (١)

فتركه صلدا : أجرد نقيا من التراب الذى كان عليه ومنه صلدا
الجبين الاصلح : إذا برق . (٢)

(١) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب مادة (صوب) .

(٢) الكشاف ١ / ٣٩٤ .

ثم تأمل كيف تلاهقت الفئات (فئله - فأصابه - فتركه) من غير مهلة لتتعاقب من وراءها المعاني والأحداث الشديدة الوقوع، وبإلهذه الطبيعة الغضبية كيف يتحول وإبها الذى هو مظنة النفع والحياة إلى بلاءٍ وفتنة تصيب هذا الصفوان فتجرده ما كان يقبسه ويستمره عن الناس وما كانوا يتوهمون فيه النفع والنماء والزكاة فتركه صلباً لا حياة فيه نقياً لا شيء يواريه * لا يقدرون على شيء مما كسبوا *

وعبر عن النفقة بالكسب لأنهم قصدوا بها الكسب . (١)

والمعنى : أن المرائى والمان والمؤذى لا يقدرون على

الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم الذى هو كسبهم عند حاجتهم إليه . (٢)

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

تذييل فيه تعريف بأن كلام من الممن والأذى من صفات

الكافرين وأحوالهم فليحذر المؤمن من تسرب ذلك إليهم وليجتنبوه .

(١) القرطبي ٣ / ٣١٣ .

(٢) البحر المحيط ٢ / ٣١٠ .

(٣) روح المعاني ٣ / ٣٥ والتحرير والتنوير ٣ / ٥٠ .

وهكذا ترى السياق القرآني الجليل يعرض مقابل تلك الحبة التي

أُنبتت سبع سنابل وأخصبت أيما إخصاب .

ووسط تلك الطبيعة المترعة السخية صورة صفوان عليه تراب

فإذا هو في الظاهر جزء منها يتناسب شكلاً مع جوها إذ يحسبه الناظر

أرضاً منبتة ويتوهمه الجاهل تربة صالحة ، فهو معها ظاهراً

مخالفاً لها باطناً ، فقلبه الصلد لا ينمو ينموها ، ولا يؤثر فيه خيرها ،

بل يضره ويكشف عنه سره ، فإذا التراب الذي يحجب حقيقته ينقش عنه

ويتركه صلباً ساعة إقبال الخير ، وعند ترقب العطاء والإنبات فتراه وقد

فاض خير الطبيعة السخية الجوادة ، عار عن كل خير ، وتراه وقد شطت

الترحمة من حوله وحده ، لا يقدر على شيء فيا لخسارته وضياعه ، ويا

لهوانه وذلاته وانكساره . .

فكذلك المرائي والمان والمؤذي يوم القيامة ، وعند لقاء

الكرامات :

لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

وبهذا الأسلوب البياني في المقابلة بين المعاني وأضدادها

تتميز صور المعاني ويزداد رسوخها في النفس المؤمنة ، فتتفرأشد النفرة

عن مقاربة ذلك فضلاً عن الوقوع فيه .

قال تعالى :

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَإِبِلٌ فَفَاتَتْ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

يقول ابن القيم: (١)

"وتحت هذا المثل من الفقه، أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره، باذره ماله في أرض زكية، فمغلة بحسب بذره، وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي المدغل والنبيسات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع ناراً ولا لحقته جائحة، جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة بريرة، وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه تُصَبُّ الشمس والرياح، فتشرب الأشجار هناك أتم تربية، فتزل عليها من السماء مطر عظيم القطر، متتابع، فرواها ونماها، فأتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطل؟ مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها، تزكو على الطل وتنمو عليه". (١)

تأمل كيف تترايط المعاني، وتتناسب، وتتنامى، وكيف تـتـسـزاد صور التمثيل تركيباً، وخصوبة، وثراءً. تتناسب مع خصوبة المعاني، ووفرتها وغزارتها، فضلاً عن التناسق والتقابل البديع بين أجزاء التمثيل.

(١) اعلام الموقعين ١/ ١٨٤.

ومن هذا التاسب ما أشار اليه أبوحيان حيث يقول :

" لما ضرب مثل من أنفق ماله رثاء الناس وهو غير مؤمن ذكر

ضده بتمثيل محسوس للذهن حتى يتصور السامع تفاوت ما بين

الضدين وهذا من بديع أساليب فصاحة القرآن * (١)

ويقول ابن عاشور (٢) وقوله :

معطوفة على قوله وَمِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

تعالى :

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ

لزيادة بيان ما بين المنزلتين من البون الشاسع وتأكيذا للشناء على المنفقين

باخلاص * .

(٣)

والمثل أو المشبه هنا هم المنفقون ، ونفقاتهم على أرجح الأقوال

لأن العمل لا ينفصل عن صاحبه فهو صورة صادقة لهذه النفس وما

يحتل فيها .

(١) البحر المحيط ٣١٠/٣ وانظر المحرر الوجيز ٣١٦/٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٥٠/٣ .

(٣) انظر البحر المحيط ٣١٠/٢ .

يقول تعالى: **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**

”البقى : يقالُ بَغِيَ الشَّيْءُ إذا طَلَبَتْ أَكْثَرُ مَا يَجِبُ وَابْتَغَيْتُ

كذلك وهو على حزبين أحدهما محمودٌ وهو تجاوزُ العَدْلِ إلى الإحسانِ
والفرضِ إلى التطوعِ .

وأما الابتغاءُ فقد حُصَّ بِالِاجْتِهَادِ فِي الطَّلَبِ فَمَنْ كَانَ الطَّلِبُ

لشَيْءٍ مَحْمُودٍ فَالِابْتِغَاءُ فِيهِ مَحْمُودٌ . (١)

مرضاة الله :

* المرضاة مفعلة لتكرار الرضى ودوامه . (٢)

و (ابتغاء) منصوبة على تأويل المصدر في موضع الحال

أى مبتغين مرضاة الله ومبتئين من أنفسهم . (٣)

والتثبیت من ثبت : كلمة واحدة وهي دَوَامُ الشَّيْءِ يقال :

ثَبَّتْ ثَبَاتًا وَثَبُوتًا . (٤)

(١) الراغب مادة (بقى) .

(٢) نظم الدرر ٨٢/٤ .

(٣) انظر المحرر الوجيز ٣١٦/٢ والتحرير والتنوير ٥١/٣ .

(٤) المقاييس مادة (ثبت) .

ويقول الراغب : وقوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا

أى أَشَدَّ لِتَحْصِيلِ عِلْمِهِمْ . وَقِيلَ أَثْبِتْ لِأَعْمَالِهِمْ وَاجْتِنَاءِ ثَمَرَةِ

أَعْمَالِهِمْ بِخِلَافِ مَنْ قَالَ فِيهِمْ :

وَقَدْ مَسَّ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ جَعَلَتْهُ هَبَاءً مَمْتُورًا (١)

وقد ذكر العلماء في معنى ذلك وجوها منها :

أن قوله (وثبیتا) معناه (وتيقنا أى أن نفوسهم لها بصائر

متأكدة فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبیتا . (٢)

يؤيد هذا الوجه أبوحيان حيث يقول :

" إن نفس المؤمن من هي التي تثبتت وتحمله على الإنفاق في سبيل

الله ليس لها محرك إلا هي لما اعتقدته من الإيمان وجزيل الثواب فهسي

الياعنة له على ذلك والمثبتة له بحسن إيمانها وجليل اعتقادها . (٣)

(١) الراغب مادة (ثبت) .

(٢) المحرر الوجيز ٢ / ٣١٦ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٣١١ وانظر الكشاف ١ / ٣٩٥ .

وهذا الوجه الذي ذكره أبوحيان وغيره يأتي بعد المرحلة التي

أشار إليها غيره من المفسرين وهو قولهم :

أَن قَوْلِهِ (تَشَبَّهَتْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) معناه (ليشبهاها بمثل المال

الذي هو شقيق الروح وذلك أشق على النفس من سائر العبادات الشاقة وعلى

الإيمان لأن النفس إذا رِيضت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها

ذلت خاضعة لصاحبها وقتل مطمعها في اتباعه لشهواتها وبالعكس

فكان إنفاق المال تشبيهاً لها على الإيمان واليقين (١) .

ووراء ذلك كبح هذه النفس عن التشكك والتردد بحيث لا يتركون

لها مجالاً لخواطر الشح (فإن في إرضاء النفس على فعل ما يشق عليها

أثر في رسوخ الأعمال حتى تعتاد الفضائل وتصبح ديدنها والمقصود

التربيع والتحرير في تحصيل الفعل أي تكرير الإنفاق (٢) وقد أشار الفخر الرازي
أخلاقه جليل

إلى معنى / وهو ما تقرر في الحكمة * الخلقية من أن تكرير الأفعال هو سبب

حصول الطهارة الفاضلة في النفس إذ يقول :

أَن مِنْ يُوَاطَّبُ عَلَى الْإِنْفَاقِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى لَابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ حَصَلَ

له من تلك المواظبة هذا الاطمئنان القلبي ولم يحصل لنفسه منازعة مع

.....

(١) الكشاف ١/٣٩٥ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣/٥١ .

قلبه كما قال تعالى :

إِنَّمَا نَطْمِئُنُّ بِرُوحِهِ اللَّهُ لَأُزِيدَنَّ مِنْكُمْ جُزْءًا وَلَا تَشْكُرُونَ

وقوله تعالى :

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ بِجُنُوبِهِ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى
وَلَسَوْفَ يَرْضَى

ثم إن هذا الابتغاء والطلب يُصْبِحُ ملكة قائمة في النفس وتصبح هذه
العبادة كالعادة . (١)

فالمشبه هنا إذاً هو لا المتفقون الذين ينفقون أموالهم ابتغاء
مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم أي هو لا المجتهدون في الطلب الذين
تجاوزوا العدل إلى الإحسان والغرض الذي أمرهم به ربهم إلى التطوع
عشاقاً وحباً لهذه العادة وبلوغاً لهذه المنزلة العالية التي باتت فيها
حالهم الدائمة وديدتهم ابتغاء مرضاة الله ويقيناً جازماً لا يخالطه
شك بثواب الله وفضله الذي لا يحد .

فهي نفس تعالت وتسامت وريت وزكت ورسخت فيها هذه
الملكة الفاضلة ملكة حب الإنفاق حتى طبعت عليها فصار لا يصدر عنها
إلا كل خير لأن معدنها خير، فحالها إذاً مثلها مع نفقتها :

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَانْتَأَتْ أَكْطُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ
فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

(١) انظر الفخر الرازي ٠٦٠/٧

(٢) انظر التحرير والتنوير ٥٢/٣ انظر روح المعاني ٠٣٦/٣

الجنة : أكثر ما تطلق في كلامهم على ذات الشجر المشمر
المختلف الاصناف (والجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض) (١)
الريوة : (سميت الريوة رابية كأنها ربت بنفسها في مكان ،

ومنه ربا : إذا زاد وعلا قال تعالى :

فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

أى زادت زيادة المتربي . (٢)

وشير الرازي هنا إلى دققة في معنى كلمة (ريوة)

يخالف فيها بعض من سبقه من ذكروا أن المراد بالريوة

المكان المرتفع من الأرض فيقول : (ليس المراد من هذه الريوة ما ذكره ،

بل المراد منه كون الأرض طينا حرا ، بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وربا

(٣)

فإن الأرض متى كانت على هذه الصفة يكثر ريعها وتكمل الأشجار فيها) .

ثم يحتج لرأيه هذا بدليلين الأول : قوله تعالى :

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

والثاني : أن هذا العثل في مقابلة المثل الأول وهو الصفوان الذي لا

يوشرفه المطر فلا يربو ولا ينمو فالمراد إذا كون الأرض بحيث

تربو وتنمو ثم يقول وهذا ما خطر ببالي والله أعلم بمراده . (٤)

والذي عليه غيره وهو الأرجح أن الريوة هي المكان المرتفع وخصها
بذلك لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرا . (٥)

(١) الراغب مادة (جن) .

(٢) الراغب مادة (ربو) .

(٣) الفخر الرازي ٦١ / ٧ .

(٤) المرجع السابق ٦١ / ٧ .

(٥) الكشف ٣٩٥ / ١ .

ثم تأمل كيف أن الذي يربو وينمو في القرآن بالإضافة إلى النخلة
هي نفس منقحها فهي تزكو وتنمو بحيث لا يكون لها طلب ولا مطمع إلا ابتغاء
مرضاة الله .

وقوله : أصابها : توحى بالخير العميم لأن الإصابة فـي
الخير اعتباراً بالصَّوْبِ أى المَطَرِ . (١)

"والوابل المطر الثقيل القطار" . (٢)

وفيه إشارة إلى سخاوة نفسه وعظم جوده .

"وقوله (آتت) " آتيت فلاناً على أمره مؤاتاةً وهو حَسُنَ
المطاوعة والإيتاء الإعطاء" . (٣)

تأمل هذا المعنى وهذا العطاء السخي وكيف لانت هذه الجنة
واستجابت لهذا الوابل السخي فما أسرع ما آتت أكلها وأنعمت خيراتها
ونضرت نعيمها وأورفت ظلالها .

بينما نجد أن العرائي لم يوءثر فيه خير هذا الوابل فلم يثمر ولم تؤت
أعماله أكلها ولم يجن ثمرتها .

وقوله : (ضعفين) - التثنية لمجرد التكرير والتكثير أى آتت
أكلها مضاعفاً على تفاوتها أى ضعفاً بعد ضعف . (٤)

ويرجح هذا الوجه أبوحيان إذ يقول : (ويحتمل عندى أن يكون

قوله (ضعفين) ما لا يزداد به شفع الواحد بل يكون من التشبيه الذى
يقصد به التكثير، وكأنه قيل فآتت أكلها ضعفين ضعفاً بعد ضعف أى أضعافاً كثيرة وهذا

أبلغ في التشبيه للنخلة بالجنة ، لأن الحسنه لا يكون لها ثواب حسنتين، بل جاء
تضاعفها أضعافاً كثيرة وعشر أمثالها وسبع مائة وأزيد . (٥)

-
- (١) انظر الراغب مادة (صوب) .
 - (٢) الراغب مادة (وبل) .
 - (٣) المقاييس مادة (آتى) .
 - (٤) انظر روح المعاني ٣/٣٠٦ .
 - (٥) البحر المحيط ٢/٣١٢ .

تأمل جنة أعمالهم كيف فاض خيرها وعطاؤها على نفس صاحبها
وعلى كسئل الناس فإليها المأوى والملاجئ من الخوف والفزع والجوع والظماً
والحر والقر فهي ظل ظليل وثمر وثير وستر لصاحبها في الدنيا والآخرة
ثم تأمل تكرار التضعيف وتكرار الرضى من الله غاية ما بعد ما غاية .

فَإِنْ لَمْ يَصِبْهَا أَزَابِلٌ فَطَلَّ

والطل الرزاق من المطر وهو اللين منه . (١) إشارة الى أن أضعف المطر
يكفيها لبقاء خصوبتها ، أى فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها .

والمراد أن خيرها لا يخلف على كل حال لجودتها وكرم منبتها
ولطافة هوائها ، وحاصل التشبيه أن نفقات هواء زاكية عند الله تعالى
لا تضيع بحال ، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت ما يقارنها من الإخلاص في
الابتغاء والتثبيت ، كما تتفاوت أحوال الجنات الزكية في مقدار زكاتها ولكنها
لا تخيب صاحبها فهي جنة أكلها دائم وظلها ؛ (٢)

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

(٣) "البَصْرُ يُقَالُ لِلجَارِحَةِ النَّاطِرَةِ - وَالْبَصِيرَةُ لِقُوَّةِ القَلْبِ المَدْرَكَةِ" .

وفي هذا التذييل البندى
ما فيمنه من الوعيد والترهيب للمرائى السئذى يقصد بعمله
روءية من لا تغنى روءيته شيئاً ويغفل عن وجه البصير الحقيقي
الذى تغنى روءيته وتفقر . (٤)

كما أن فيه من الترغيب للمؤمن المخلص ما فيه (٥) وحسنه
أن يستشعر معية الله ونظر الله إلى قلبه ليكون قلبه كله لله .
وفي هذا من التوكيد والتقدير ما فيه .

- (١) روح المعاني ٢٦/٣ .
(٢) انظر روح المعاني ٣٦/٣ وانظر التحرير والتنوير ٥٣/٣ .
(٣) المفردات للراغب مادة (بصر) .
(٤) انظر روح المعاني ٣٦/٣ - ٣٧ . وانظر أبو السعود ٢٦٠/١ .
(٥) انظر المصدر السابق .

وبعد هذه الرحلة الشاقة المجهدة التي تجاوزت فيها النفس
الموءنة الصادقة ، تلك العوائق ، وبعد أن انطلقت في سيرها بانفاقها
متجهة إلى الله مخلصه في السيرة إليه أن لها أن تحظى بهـهـه
الرفائق والمنح الربانية .

وذلك منتهى ما تطمح إليه النفس التواقفة إلى مرضاة الله سبحانه
وتعالى .

أرأيت كيف ارتقت هذه النفس من طلب المضاعفة في الأجر إلى
ابتغاء مرضاة الله ، أي من الجزاء الحسي إلى هذا الجزاء والنعيم
الروحي والبلوغ بالنفس إلى هذه المنزلة ليس أمرا هينا ، لأن النفس
قد يعتريها من الشك والتردد والأهواء والمطامع ما يصرفها عن الثبات
على هذه الطاعة ، لأن الإيمان يزداد وينقص فتأمل كيف يتدرج
القرآن الكريم في تربية النفوس وترويضها على ما يشق عليها حتى
تصبح هذه الطاعة سجية من سجاياها .

فيكون حالها كهذه الجنة بربرة لا تخيب صاحبها ، ولا يخلف خيرها
بحال .

فهي جنة بربرة متفردة عن الجنان ، ما يزيد لها حسن منظر وزكاة
شر ، فيضاعف هذا الموقع من عطائها وإغداقها فتؤتي أكلها ضعفين

وهي نفقة عن نفس تبتغي مرضاة الله زاكية عند ربها أيما زكاء،
بمعنى أن هذه النفس قد بلغت من التثبيت والثبات على الطاعة حدا
لا يتجاوز الإخلاص في طلب مرضاة الله ، فهو إماما وأبلا وإماما طل ، بحيث
لا يخلف خيرها بحال .

قال تعالى :

أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ
جَنَّةٌ مِّن تَنْجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ
كُلِّ الشَّجَرِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

ثم تأمل هذا الاستئناف البياني البديع الذي أثاره ضرب المثل العجيب للمنفق في سبيل الله من حبة أنبتت سبع سنابل إلى جنة بريرة آتت أكلها ضعفين . وذلك الجزاء والبركة والخير الخصب للمنقيسن في سبيله الذين لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ثم لما نهوا عن المن والأذى استشرقت نفس السامع لتلقي مثل لهم يوضح حالتهم الذميمة التي هي ضد تلك الحالة المحمودة . (١)

وهكذا تجدنا أمام مشهدين كبيرين ، المشهد الأول : يمثل هو " لا " المنفقين في سبيل الله ابتغاء مرضاته وتشببتا من أنفسهم وكيف تعهدوا حرثهم فآتت جنتهم أكلها ضعفين بعد أن أصبح الإنفاق طبيعة فيهم وسجية من سجاياهم الكريمة لا ينقطع وابلها ولا يجف نداها .
والمشهد الثاني : يصور حال المنفقين في سبيل الله الذين أبطلوا إنفاقهم بالمن والأذى أى أضاعوا حرثهم وجنة أعمالهم فلم يحفظوها بل أتبعوها بالمعاصي التي أحرقتها وهم في أشد الحاجة إليها .

وقوله ^{أَيُّودُ أَحَدِهِمْ} الود حب الشيء مع تمنيه والهزمة للإنكار

والتحذير وناطق الإنكار هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق. (١)

تأمل هذا الأسلوب الاستفهامي والابتداء الرائع الذي يجعل النفس

تحذر الوقوع في ذلك.

* وهيئة المشبه محذوفة وهي : هيئة المنفق نفقة متبعة بالمن

والأذى. (٢)

وقوله ^{أَنْ نَكُونَ لَهُ بَجَنَةً مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ} أي الأصل والركن

فيها هذين الجنسيتين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقي من

المستتبعات. (٣)

بجري من تحنها الأجر إشارة إلى دوامها وخلودها.

وَأَوْفِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ المراد التكثير كقوله تعالى :

(وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) .

وأصحابه الكبر "هذه الحال التي هي مظنة شدة الحاجة

إلى منافع تلك الجنة ومنتهى العجز عن تدارك أسباب المعاش. (٤)

(١) انظر روح المعاني ٣/٣٧ وانظر (أبو السعود) ١/٢٦٠.

(٢) التحرير والتنوير ٣/٥٤.

(٣) أبو السعود ١/٢٦٠.

(٤) روح المعاني ٣/٣٧.

وَالْوُذْرِيَّةُ ضَعْفَاءٌ ۖ

حال من الضمير في أصابه . تأمل تداخل

الأحوال وزيادة القيود التي تقوى وتتكاثر بها عناصر الضعف والعجز حتى

تبلغ الحاجة أشدها ثم يعظم الخطب عند شدة الحاجة ۖ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ

(١)

الغبار الذي يَسْطَعُ مستديراً والجمع أعاصير .

فِيهِ نَارٌ ۖ أي نار شديدة فالتنكير فيها للتعظيم .

فَأَحْرَقَتْ ۖ عطف على (فأصابها) .

يقول ابن القيم : * فهذا مثل ضربه الله سبحانه للحسرة

يسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظيم قدرها ومنفعتها ، والذي

ذهبت عنه وقد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته . .
الذي

وقال ابن عباس : (هذا مثل يخرم له بالفساد في آخر

(٣)

عمره) .

وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا : الله أعلم ،

فغضب عمر وقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس : في نفسي منها

شيء يا أمير المؤمنين . قال : قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك ، قال :

ضربت مثلاً لعمل ، قال لا شيء عمل ؟ قال لرجل غني يعمل بالحسنات

ثم يعث الله له الشيطان فيعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها . * (٤)

(١) المقاييس مادة (عصر) .

(٢) ابن القيم ، تفسير القيم ١/ ١٥١ . (٣) المصدر السابق .

(٤) الكشاف ١/ ٣٩٥ .

تأمل قوله (فعمل بالمعاصي) والمعاصي أن يعص العبد ربه
فيخرج عن طاعته ، وقد خرجوا هنا عن طاعته بإتياعهم نفاقتهم بالمن
والأذى فاحترقت أعمالهم أي أنهم بنوها على خير ثم أتبعوها بما أفسدها
وأهبطها .

وفي هذا المثل قوله تعالى :

أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ زَكَوْنَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ

لون من ألوان البديع أطلق عليه ابن أبي الأصبغ (الاستقصاء)

وهو أن يتناول المعنى فيستقصيه إلى أن لا يترك فيه شيئاً يقول :

" وقد جاء في الكتاب العزيز من ذلك ما لا يلحق به سبقاً " .

فانظر إلى استقصاء هذا المعنى حين لم يبق فيه بقية لأحد

ذلك أنه بعد قوله جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ قال تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وكل الوصف بقوله لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فأتى بكل

ما في الجنان ليشتد الأسف على إفسادها ثم قال وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ

ثم استقصى المعنى الذي يوجب تعظيم المصاب بقوله بعد وصفه (بالكبر) :

وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ۖ وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى كَوْنِهِ لَهُ ذُرِّيَةٌ حَتَّى قَالَ ضَعْفَاءٌ ، ثُمَّ

ذكر استئصالها بالهلاك في أسرع وقت حيث قال : فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ

فِيهِ نَارٌ ، فلواقترع على ذكر الإعصار لكان كافياً ولكن لما علم الله

سبحانه أن مجرد الإعصار لا تحصل به سرعة الهلاك كما يحصل إذا كان فيه نار ، فقال سبحانه : (فيه نار) ثم أخبرنا باحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم إحراقها باطفاء أنهارها وتجفيف أوراقها وثمارها فاخبر بإحراقها احتراساً من ذلك ، وهذا أحسن استقصاء وأتمه بحيث لم يبق في المعنى موضع استدراك .^(١)

ولهذا المثل من الفضل والمزية ما جعل المفسرون يشيرون إلى أهميته فترى الرازي يقول فيه :

" هذا المثل في غاية الحسن ونهاية الكمال ."^(٢)

ويقول النيسابوري :

" ولا يخفى أن هذا المثل - في المقصود - أبلغ الأمثال فإن

الإنسان إذا كان له جنة في غاية الكمال وكان هو في نهاية الاحتياج إلى المال وذلك أوان الكبر مع وجود الأولاد والأطفال فإذا أصبح وشاهد تلك الجنة محترقة فكم يكون في قلبه من حسرة ؟"^(٣)

(١) التحرير والتحرير ص ٥٤٢ - ٥٤٣

(٢) الفخر الرازي ٥٠٨/٢

(٣) غرائب القرآن ٥٣/٣ - ٥٤

وبهذا الأسلوب الرائع والعرض الأ^نخاض والترغيب والترهيب
يحذر المؤمنون من أن يتبعوا إنفاقهم باليمن والأذى ويرغبهم في أن
يدخروا ذلك لينتفعوا به في وقت أحوج ما يكونون إليه .

قال تعالى :

مثل

مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمْ
اللَّهُ وَلَكِنِ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

من أسرار المناسبة :

تتحدث الآيات السابقة للمثل عن أهل الكتاب من نصارى ويهود

ومحاجتهم والرد عليهم ومعانيتهم على صدهم عن سبيل الله :

* قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدِّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا

عِوَجًا * (*)

وعن كفرهم بالله :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ①

ويرغب المؤمنون في الاعتصام بحبله سبحانه والحذر من كيد

اليهود ومحاولتهم إيقاع الفرقة بين صفوف المؤمنون وتشكيكهم فسي

عقيدتهم . وهكذا يظل الحديث متواصلا عن اليهود والنصارى

وكيدهم للإسلام والمسلمين وإعدادهم العدة لمحاربة الله ورسوله . ولكن

الله يبشر عباده بالنصر وأن كيد أولئك لن يضرهم :

وَأَنْ يَقْتُلُوكُمْ فَيُؤَلِّمُكُمْ أَزْوَاجَكُمْ لَا يَنْصُرُونَ ②

ثم تعقد الآيات موازنة بين طائفتين من أهل الكتاب ، طائفة مختصة

إلى ربها :

يَسْتَلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْتَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ③

(*) آل عمران / ٩٩

(١) آل عمران / ٧٠ .

(٢) آل عمران / ١١١ .

(٣) آل عمران / ١١٣ .

وأخري تحارب الله ورسوله بإقامة الحصون وتجهيز الجنود ولكن أموالهم وأولادهم إن تغني عنهم من عذاب الله شيئا :

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

وهكذا ينهض التمثيل القرآني اليديع ليؤكد أن ما أنفقه الكافرون في هذه الحياة الدنيا وفي عداوة الرسول عليه الصلاة والسلام هالك لا محالة ولن يقدرُوا على الانتفاع به ولذلك نرجح ما رواه ابن عباس رضي الله عنه ، حين خص بني قريظة والنضير بالمثل والآية السابقة له -

* قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو قريظة والنضير فإن معاندتهم كانت لا أجل المال* . (١)

وتخصيص الحديث عن الكافرين من أهل الكتاب لا يمنع من عموم

حكمه لكل من ماثلهم من الكافرين في عداوته لهذا الدين . (٢)

وقد ذكر المفسرون في أسرار مناسبتها ووجوه شبهها وجوهاً فقالوا:

* شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن

الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذي حسه البرد فذهب

حطاماً .

(١) أبو السعود ٢/٧٥ .

(٢) انظر الأمثال في القرآن الكريم ، د/ محمد جابر الفياض ص: ٣٤٠ .

وقيل هو ما كانوا يتقربون به إلى الله ^ل مع كفرهم .

وقيل ما أنفقوا في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم فضاع عنهم

لأنهم لم يبذلوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله .^(١)

والذي يظهر أن الوجه الأخير هو الذي يقتضيه سياق

الآيات .

(١) الكشاف ١/٤٥٧ .

من أسرار اللغة والنظم :

* مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا *

يصور القرآن الكريم المعنى العقلي المجرد في صورة
محسوسة بهذا التشبيه التشليلي الذي يمثل صدقات الكافرين ونفقاتهم
في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها بمثل زرع أصابته ريح باردة
فاهلكته ولم ينتفع أصحابه بشيء منه بعدما كانوا قد علقوا الأمل به. (١)
ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من خيبة الأمل والحسرة على
ما بذلوه من جهد ومشقة كان يظن أنه ينتفع بشرتها .
والمشبه ما ينفقون من أموال في هذه الحياة الدنيا لمحاربة
دين الله .

والمشبه به هو الزرع الذي أهلكته الريح الباردة وهذا
الزرع لقوم ظلموا أنفسهم فعاقبهم الله بإهلاك زرعهم .

ثم تأمل ما وراء قوله تعالى :

* هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا *

من التحقير لها والازدراء إذ أن إنفاقهم لم يتجاوز هذه

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/٤٢٠ . القرطبي

الظرفية الفانية الدانية لأنها هي التي في حسمهم وتصورهم .
أموالهم

وازن هذا بأولئك الذين ينفقون في سبيل الله .

﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾

وقد اختلف العلماء هنا في المراد بالريح التي فيها صر .

هل هي الكفر الذي أهلك ما أنفقه الكافر ؟

أم هي النفقات التي أنفقوها في عداوة الرسول صلى الله عليه

وسلم فأهلك ما كان لهم من أعمال الخير ؟

وسياق الآيات يفصح عن ذلك .

فالآيات السابقة تتحدث عن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان

قد نهى اليهود عن معاداته وأصحابه والكيد للمؤمنين ولكنهم فتنوا بما

لهم من حصون وأموال وأولاد . ومعرفة بفتنهم فوقع الله بهم وعيده

فغلبوا وأخرجوا من ديارهم .

ولم تغن عنهم حصونهم شيئاً . وهذا النصر إنما أجراه الله على

أيدي المؤمنين فهم الذين تولوا إهلاكهم وتحطيم حصونهم فما أشبههم

بهذه الريح التي فيها صر أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم فلم يغنهم

ما زرعوه شيئاً . (١)

(١) انظر الامثال في القرآن ، محمد جابر الفياض ص : ٣٩٦

والصر : الإضرارُ التَّعَدُّدُ فِي الذَّنْبِ وَالتَّشَدُّدُ فِيهِ وَالامْتِنَاعُ عَنِ
الإقْلَاعِ عَنْهُ وَأَصْلُهُ مِنَ الصَّرِّ أَيْ الشَّدِّ (وَرِيحًا صَرَصْرًا) لَفْظُهُ مِنَ الصَّرِّ
وَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الشَّدِّ لَمَّا فِي البُرُودَةِ مِنَ التَّعَدُّدِ . (١)

فالصر : البرد الشديد .

وفي تنكير (ريح) ما يوحي بشدتها وقوتها . ولقد وصف سبحانه

المؤمنين بقوله :

أَشَدَّاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ

والريح أهلكت الحرث بما فيها من صر أي برد بارد بالسف

البرودة .

قال تعالى :

وَأَمَّا عَنِيتُهُمْ فَلَمَّا بَدَأَ الْبَعْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفَى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . (٢)

أرأيت إلى هذه الصدور التي تتقد غضبا وغيظا وهذه الأموال

التي تبذل لمحاربة الله ورسوله واشعال نار الفتنة والعداوة وبث الفرقة

(١) الراغب مادة (صر) .

(٢) آل عمران / آية ١١٨ .

بين المسلمين فناسب أن يكون إخمادها وإبطالها بهذه الريح الباردة غاية البرودة لتقابل مع هذه النار المتأججة المستعرة في قلوب القوم وفي أموالهم التي بذلوها حربا وعداوة وفتنة ولو كانت إحصاراً فيه نثار لزارت الموقف تأججا واشتعالا .

ثم تأمل كيف بدأ المشبه به بلفظ الريح لما لها من العناية والاهتمام لأنها تشل العذاب والتهديد والوعيد لقوم ظلموا أنفسهم فتعدى ظلمهم إلى حرثهم هذا ما يمكن أن نستشفه من هذا القيد وهو قوله تعالى :

حَرَّثَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

وما فيه من الإشارة إلى أنهم حادوا به عن غايته ووضعوه في غير محله فوجب استئصاله وإتلافه : وهكذا يأتي أسلوب القصر في قوله تعالى :

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ لِيُؤْكَدَ أَنْ اللَّهُ

سبحانه ما ظلمهم بما إهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة . (١)

وفي تقديم (أنفسهم) أى أنهم ما يظلمون إلا أنفسهم ، وجاء
الفعل (يظلمون) بصيغة المضارع ليدل على دوام ذلك العمل منهم
وتجدده واستمراره .

وفي الآية الكريمة لطيفة بلاغية وهي (رد العجز على الصدر)

في قوله :

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ

تأمل ذلك بين (ظلم) وبين (يظلمون) .

وهذا العذاب الذى أصاب القوم (إنما هو عن ظلمهم لأنفسهم

لأن الإهلاك من سخط أشد وأبلغ) . (١)

والغاء في (فأهلكته) لبيان النتيجة المترتبة على ما تقدم

من إصابة الحرث .

وإذا ما عدنا إلى المواد اللغوية التي بني عليها التشيل .

نجد : الريح والصر والإصابة والحرث والظلم والإهلاك ،

معاني توحى بهذا الجوال شديد العصف والشديد الهول .

وتلك الأصوات المتتابعة في الآية كصوت هذه الرياح

التي فيها صر وكيف تعبر الكلمة بمخارج حروفها عن ذلك .

ثم كيف ينتهي المشهد عند قوله (فأهلكته) .

وما وراء هذه الجملة من الهلاك والفناء وعدم الإنتفاع .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الإنفاق :

١- تدور المادة اللغوية التي بينت منها تشبيهات الإنفاق في سبيل الله .

حول : الحبة - السنابل - المضاعفة - الجنة - الربوة - الوابل -
الظل .

ونلاحظ أن المثل الأول وهو قوله تعالى :

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ

وإن شارك الثاني وهو قوله تعالى :

كَمَثَلِ بَيْتَةٍ يَرْبُوعَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ

في معنى عام وهو العطاء والخصوبة والمضاعفة ، والأجسر العظيم الذي يعود على صاحبه المنفق في سبيل الله إلا أن المثل الأول يهتم ببيان مضاعفة الثواب ، هذه المضاعفة الحسابية التي تتمثل في حبة أنبتت سبع سنابل . . الخ «

فهو تصوير للأضعاف وكأنها ماثلة بين يدي الناظر .

بينما نجد أن التمثيل الثاني يبرز أثراً آخر للإنفاق في سبيل

الله وهو ما يعود به هذا الإنفاق على قلب صاحبه المؤمن بحيث يعتاد الخير حتى يطيب هذا القلب وتزكو هذه النفس وتخلص من الأكدار وتصبح

كالا^١ أرض الحرة الخصبة في الربوة العالية السماء^٢ وهي مرعة بالخير
زاكية على كل حال إن أصابها وابل أثمرت وأمرعت وإن أمسك الوابل فهي
مرعة مشرة لأن معدنها كله خير فلا يصدر عنها إلا الخير.

٢ - من أسرار التنوع^٣ التشبيه الأول بسيط التركيب لتحصل السرعة بتخييل
هذه المضاعفة الحسابية . ويحصل التحريض والترغيب وإثارة محور الطمع
في الإنسان فمن ذا الذي لا يحب الريح خاصة إن كان هذا الريح بهذه
المضاعفة التي هي أقصى ما تستشعره النفس الإنسانية .

بينما جاء التشبيه الثاني معقد التركيب لأن الأحوال هنا
تكاثفت وتداخلت وتراكبت فالنفوس زاخرة مغممة بمعاني الخير والطاعة
متغية مرضاة الله^٤ والنفقة فيه وارفة الظلال دائمة الأثمار فهي ظل
ظليل وشروفيير وستر لصاحبها وحجاب من النار .

٣- من أسرار^٥ لما كان لكل مثل بناؤه ونظمه كان لكل واحد أيضا تذييله
وفاصلته التي تلائم وتتنظم معه ومع السياق الذي وردت فيه فذيلت

آيات التشثيل الأول بقوله تعالى :

وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ

ليتناسب مع المضاعفة التي وعد الله^٦ سبحانه أنه يضاعفها لمن يشاء^٧
من عباده .

بينما اختتمت آيات التمثيل الثاني بقوله تعالى :

* والله بما تعملون بصير *

ليتناسب مع تلك القلوب المتفاوتة في زكائها وإخلاصها فيجازى كلاً بعمله .

٤ - قد يكون من أسرار التنوع أيضا الانتقال من الحسنى إلى المعنوية وذلك تدرجا في تربية النفس المؤمنة لأن الأمور المحسوسة أول ما تدركها النفس ثم ترتقي بعد ذلك .

٥ - وقد يكون من أسرار التنوع ما ذكره بعض المفسرين ومنهم الطبري والبقاعي (١) إذ يقول :

" إن المراد بالتمثيل الأول نفقة الجهاد في سبيل الله لأن الجهاد واقع عند الحاجة والمنفق ابتغاء مرضاة الله ينفق في كل وجه دائم الإنفاق فكان مثله كالجنة الدائمة ليتطابق المشان بالمثولين فعمت هذه النفقة جهات الإنفاق كلها في جميع سبل الخير ."

(١) نظم الدرر ٧٧/٤ وانظر جامع البيان ٣/٤١٠ .

وتدور المادة اللغوية التي بنيت منها تشبيهات الإنفاق رثاء الناس،

والإنفاق المصحوب بالمن والاذى، وإنفاق الكافرين حول :

الصفوان - التراب - الوابل - الصد .

ثم جنة من نخيل وأعناب - إعصار فيه نار - الكبر - الذريسة

الضعاف - ريح فيها صر - حرث قوم ظلموا أنفسهم .

وهذه التشبيهات وإن كانت تجتمع في معنى عام وهو بيان

احباط العمل وإبطاله وضياعه بعدما كان يأمل نفعه . إلا أن كل تشبيه

ينفرد بمعرضٍ ومعنى يتناسب مع السياق الذي ورد فيه :

١ - المان والموءذى والمرائي وإن كانا يشتركان في احباط

العمل إلا أن المرائي ينفرد في التمثيل الاول وهو قوله تعالى :

كَمْشَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ مُصَلِّدًا *

بيان أن نفقته لم تشر أصلاً لأن قلبه خال من الإيمان بالله .

واليوم الآخر وإن كانت تبدد وكأنها صالحة للنفع والانبات بينما يصور لنا

التمثيل الأخير وهو قوله تعالى :

أَيُّودٌ أَحَدُكُمُ أَنْ تَسْكُونَ لَهُ جَنَّةً مِّنْ نَّخِيلٍ

نفقة المان والموءذى وقد بلغت غاية الوفرة والكثرة والثراء ونهاية

ما تطمح إليه نفس ثم طراً عليها ما أحبطها وأحرقها .

٢ - الذى أبطل نفقة / و أضاع ثوابه^{المراثي} وأزالها

وهي لم تشر بعد رباؤه الذى يمثله الوابل وهي علة داخلية تمس جوهر العقيدة .

بينما الذى أحبط نفقة المان والموءذى منه وأذاه والذى

(يمثله إعصار فيه نار) وهما علتان خارجتان طرأتا عليه .

فالفسار الخارجى لم يبين الإنفاق أصلاً عليه وإنما خالطه

بعد اكتماله فأفسده وهو أحوج ما يكون إليه . لذلك يقول أبوحيان :

" إن الصدقة وقعت صحيحة ثم بطلت باليمن والأذى " . (١)

بينما المراثي بالإجماع لم يأت بالعمل مقبولاً صحيحاً وإنما أتى

به باطلاً مردوداً . (٢)

٣ - الرياء خير في ظاهره وسبب لنيل المدحة والثناء

من الناس وإن كان ضاراً وشراً في باطنه وآثاره فهو أشبه بالوابل الذى

كان مظنة النفع فأصبح وبالاً عليهم .

(١) البحر المحيط ٣ / ٣٠٩ .

(٢) روح المعاني ٣ / ٣٥ .

بيننا المن والاذى شرفي ظاهره نار في باطنه ، وأثره على النفس
إذ أنه يحق الإنفاق ويمزق المجتمع ويشير الأحقاد وقديماً أفض
الشعراء والبلغاء في وصف «ارته وحرقة وشدة وطأته على النفوس ونفروا
منه لذلك هو أشبه بالإعصار الذي فيه نار.

٤ - من أسرار التنوع أيضاً أن يكون الجزء من جنس العمل .
فالمرابي عاد عليه رياو ، الذي هو مظنة النفع فأبطل عمله وأذهبه والمان
والموذي عاد عليه منه وأذاه إعصاراً فيه نار جزاءً يجانس أعماله . . .

لتحرقه أن استوفت غاية الحسن
والطيب والكمال وعند بلوغه غاية العجز والضعف والهوان فأى حسرة أعظم
من حسرته .

٥ - ومن أسرار التنوع بين الجنة التي احترقت بإعصار فيه نار
ومين الحرث الذي أهلك بالريح الباردة .
أن الإعصار الذي فيه نار يمثل المن والاذى وهو في حرقة
وتعزيقه لا وأصر المحبة وتفتيت المجتمع كهذا .

بيننا الريح التي فيها صر تشل الموئين وقوتهم وأسهم
وشدتهم ثم ما هم فيه من برودة اليقين التي تخمد نار الحقد والشرك والكفر .

٦ - نفقة المان والموءذى بنيت في أجواء رطبة ندية فأثمرت وأينعت

ثم طرأت عليها آفة أحرقتها فناسب أن تكون هذه الآفة إعصار فيه نار لإحراق

الجنة، بينما حرث هو، لاء الكافرين الذين ظلموا أنفسهم زرع في أجواء حارة

متأججة حقدا وبغضا وحربا لله ورسوله فاحتاج إلى ريح شديدة البرودة لإطفاء

جذوته وإهلاك ثمرته.

٧ - من أسرار التنوع هذا التقابل الديدع بين المعاني ليزداد

رسوخها في النفس بين حبه أثمرت أيما إثمار وصفوان لم يثمر شيئاً

ثم بين هذا الصفوان الذى لم يتصدع لوابل السماء

وبين تلك الجنة بربوة التي آتت أكلها ضعفين

بين جنة ثابتة ناسية زاكية وبين جنة أصابها إعصار فيه نار فاحترقت،

بين هذا الإعصار الذى فيه نار وتلك الريح التي فيها صر،

بين تلك الآفة الباطنية من الرياء وتلك الآفة الخارجية من المن والادنى،

بين ذلك التركيب البسيط في حبة أنبتت سبع سنابل، وذلك التركيب

المضاعف في جنة بربوة آتت أكلها ضعفين، وهكذا تجد التقابل فسي

القرآن الكريم بين معانيه عنصراً من عناصر بلاغته وإعجازه ومبانه .

الفصل الثالث :

التشبيه الذي يمثل الحق والباطل
وأسرار تنوعه .

المدخل :

ورد ذكر الحق والباطل في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وعلى

صور بلاغية مختلفة جاء بعضها عن طريق الحقيقة والبعض الآخر عن طريق

التشبيه والمجاز بين فيها سبحانه أنه الحق وأن كتابه الحق وأن له دعوة الحق .

فقال تعالى :

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ (١)

وقال :

وَلَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ سَمْعًا (٢)

وقال :

وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ (٣)

فهو سبحانه الحق ودعوته دعوة التوحيد هي الحق ومنهج

وقرآنه هو الحق .

يقابل ذلك أن ما يعبد من دون الله هو الباطل وأن كل مذاهب

وعقائد وتشريعات غير ما سندها وأنزلها هي الباطل وأن دعوة الشرك والإلحاد

(١) الحج / ٦٢ .

(٢) الرعد / ١٤ .

(٣) الرعد / ١ .

والكفر هي الباطل ، فالباطل معبود ومنهج ودعوة كما أن الحق إليه
ومنهج ودعوة.

كما بين سبحانه أن الباطل لا محالة زائل وأن الحق

باق في الأرض فقال :

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (١)
وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٢)

وقد مثل سبحانه للحق الذي هو كتابه وكيف نطقته قلوب عباده واستجاب

له وموقفه مع الباطل وصراعه معه فقال :

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ
فَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ (٣)

كما مثل سبحانه الحق الذي هو كلمته ودعوته وهي أساس الدين وشعار

الإسلام ومفتاح دار السلام وهي كلمة التقوى والعسرة الوثقى التي من

أجلها قامت السموات والأرض وفطر الله عليها جميع المخلوقات .

(١) الأنبياء / ١٨ .

(٢) الاسراء / ٨١ .

(٣) الرعد / ١٧ .

ومثل فيما يقابلها لكلمة الكفر والشرك فقال تعالى :

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ
تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ○ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من
فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ①

والمناصر التي كونت أساليب التشبيه هنا هي الماء النازل من السماء

والسيل والزبد والمعادن التي يوقد عليها والحلوة والمتاع .

ثم الشجرة الطيبة وما جرى عليها من أحوال وصفات .

والشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض .

وسوف أجتهد بإذن الله في بيان أسرار التنوع وراء

تشبيه الحق بالماء والمعدن والشجرة الطيبة ،

وتشبيه الباطل بالزبد والشجرة الخبيثة .

قال تعالى :

أَنْزَلَ مِنْ

السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا

رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ

مِثْلُهُ ۗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ

فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۗ

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

من أسرار المناسبة :

تمتد أسرار المناسبة بين تشبيه الحق والباطل وبين بداية
السورة الكريمة التي من مقاصدها تقرير هذا الحق المتمثل في إنزال الكتاب
الذي يثبت وحدانية الله وتفرده عز وجل بالخلق والإيجاد والإحياء
والإماتة والنفع والضر.

وتفرده سبحانه بالألوهية والربوبية وإحاطة علمه بكل شسيء
ودفع الباطل المتمثل في تلك الشبه التي يثيرها المشركون بالله يقول تعالى :

* الْمُرْتَلِكُ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ (١)

ثم تأتي الآيات لتقرر دلائل هذا الحق وآياته في الوجود
وأنها ظاهرة ظهيرا لا خفاء فيه ولا التباس في السموات والأرض والشمس
والقمر والليل والنهار، والزرع والثمار، في البرق الذي يخيف ويطمع، والرعد
الذي يسيح بحمده، والملائكة/ تخاف وتخضع، والصواعق التي يصيب بها
من يشاء، والسحاب الثقال والمطر في الوديان، والزبد الذي يذهب جفءا

ليحقق ما ينفع الناس ومع ذلك تجد وسط هذا الكون المسيح الضارع
قوما :

يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١)

ثم تأمل وانظر إلى هذا الظامي * وحده وسط هذا الكون السخبي
الذي لا زالت سماؤه تمطر ورقه يخيف ويطمع .
يقول عز وجل :

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ
لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ مِّمَّا يَكْتُمُونَ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ ذَاتَهُ مِائَهُ بِرِجْلِهِ
وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢)

ما أقرب الحق إليه وما أدناه من بين يديه وقد تلبس به الكون
كله فهذه أدلته باهرة ناطقة يردد صوتها ويسرق ضوءها يبشـر
وينذر ولكن :

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَاءَ خَلَقُوا خَلْقَهُمْ فَشَبَّهُوا خُلُقَهُ عَلَيْهِمْ (٣)

ثم قارن هذا الظامي * وحده وسط طبيعة ربا تتدفق بالحياة
والخصوبة، بأولئك المخبئة قلوبهم الرطبة الندية يسيل فيها ماء الهدى
والحق والنور . يقول تعالى :

(١) الرعد / ١٣ .

(٢) الرعد / ١٤ .

(٣) الرعد / ١٦ .

قال تعالى:
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يُضْرَبُ
اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (١)

وهكذا تظفر سماء الحق فيحتمل السيل زبدا رابيا ، ويصهر

المعدن فيطفو زبد مثله :

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

بهذا التمثيل الرائع البديع الذي مثل بين أيديهم في الأجواء البارقة
الراعدة ، والسماء تظفر والماء يتدفق بين الجبال وعلو التلال ، يهبسط
سريعا من كل مرتفع ، حتى يملأ الأودية ، فإذا بها تسيل في منظر
بديع ، يملأ النفس رغبة ورهبة وهي ترى وتسمع هدير السيل ودويسه
وقوة إندفاعه وجيشانه يشنف الأذان الواعية ويملا القلوب الخالصة
فتخبت له وتنقاد اليه وتحسبها لشدة تأثرها به وإقبالها عليه كأنها
تسيل ، أفمن يعي عن هذا الحق الذي أهاج الكون كله هل يستوى

هو ومن يبصر ، أم هل تستوى ظلمات الكفر والشك والنفاق مع نور
الحق والإيمان واليقين ؟

بهذا التشيل البديع ينتصب الحق مرتباً شاهداً في أعظم
آية من آيات الله في الكون في هذا الماء الذي جعل الله منه كل شيء
حياً لمثل الحق ، بل هو عين الحق لشدة المماثلة.

يقول الزمخشري : " هذا مثلُّ ضربه الله للحق وأهله والباطل
وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما ، قَسَّم الله الحق
وأهله بالماء الذي يُنزل من السماء ، فتسيل به أودية الناس فيحيون
به وينفعهم أنواع المنافع ، وبالفلز (١) الذي ينتفعون به في صوغ الحلوى
منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه
البأس الشديد لكفى به ، وإنَّ ذلك ما كثر في الأرض باق بقاءً ظاهراً يثبت
الماء في منفعه ، وتبقى آثاره في العيون والآبار والحبوب والثمار التي
تنبت به ما يدخر ويكنز ، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة ، وشبه الباطل
في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي
يرمي به ويزيد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب " . (٢)

(١) المعادن الموجودة في الأرض .

(٢) الكشاف ٣٥٦/٢ .

وقال أبوحيان :

قال ابن عطية : * صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى

وإقامة الحجة على الكفرة ، فلما فرغ ذكر ذلك جعله مثلاً للحق والباطل

والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به . (١)

* وقيل هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب^والحق والباطل

فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب ، وقاء الشرع والدين والأوردية
مثل للقلوب .

ومعنى (يقدرها) أى على سعة القلوب وضيقها ، فمنها ما

انتفع به فحفظه ووعاه وتدبر فيه فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه ،

ومنها دون ذلك بطيئة ، ومنها دونه بطيقات ، والزند مثل الشكوك والشبه ،

وإنكار المنكرين أنه كلام الله ودفعهم إياه بالباطل ، والماء الصافي المنتفع
به مثل الحق * . (٢)

ويقول صاحب التحرير والتنوير (٣) :

* شبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوى عليه من إيظاظ النظر

فيها فينتفع من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعلمهم .

(١) البحر المحيط ٥ / ٣٨٧ .

(٢) المصدر السابق ٥ / ٣٨١ .

(٣) التحرير والتنوير ١٣ / ١١٢ .

ويعر على قلوب لا يشعرون به وهم المنكرون المعرضون .
ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يشير لهم شبهات وإلحاداً .
كقولهم " هل ندلكم على رجل يبئكم إذا مزقتم إنكم لفي خلق جديد " ومنه
الأخذ بالمتشابه . . . شبه ذلك كله بهيئة نزول الماء فانحداره على الجبال
والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها . ثم ما يدفع من نفسه زبداً
لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفتى والماء بقي في الأرض للنتع^(١) .
وقد جاء في الحديث النبوي ما يماثل هذا المعنى " عن أبي موسى
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل ما بعثني الله به مسن
المهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقيّةٌ قبلت الماء فأبنتت
الكلاء والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فتبع الله بها الناس
فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً
ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله تعالى به
فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " .^(٢)
وسنقف عند التحليل والمدارسة لآيات التمثيل على ذلك إن شاء الله
ونرى كيف توءم كد سياق الآيات هذه المعاني وتشير إليها في تناسق بديع
وإحكام جليل وسبك دقيق وهذا الذي نصفه لغة القرآن لا يتجاوز لغتنا
التي تقصر عن وصف بلاغته وتعجز عن الإحاطة بمعانيه وإلا فإن القرآن يعلو
ولا يعلو عليه . وهو في إعجازه في نظمه وتراكيبه وصوره ومعانيه خارج عن
حدود طاقة البشر .

(١) التحرير والتنوير ١٣/١١٧ .

(٢) مختصر صحيح البخاري المسمى (التجريد الصريح) كتاب العلم ص ٤٠ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

(أنزل من السماء) : أى من جهة السماء ، والمطر لا ينزل إلا

من السماء، ولكنه على طريقة :

(١)

خَيْرٌ لِيَوْمِ السَّمَاءِ مِنْ تَوَفِّيهِمْ

لتأكيد المعنى، والإيحاء إلى سمو هذا الماء، وعلو قدره، وصفائه، وظهرته، وأنه

ليس من مصدر آخر إلا السماء، ويقابل هذا المعنى في المثل لسمه

أن " الحق والقرآن " لا ينزل إلا من السماء، وفي ذلك إثبات لوحدانية

الله، وأن الخير لا يكون لهذه الأرض إلا منه، وتشريعه .

وفي تنكير (ماء) ما يوحي بهذا الفيض السخي، الذي نزل من

السماء، أو المراد به نوع منه وهو ماء المطر الذي لا يحمل إلا الخير. (٢)

(١) النحل / ٢٦ .

(٢) انظر (أبو السعود) ٥ / ٦٤ .

وهكذا يأتي الإنزال لهذا الماء دليلاً مشاهداً على قهره عزَّ
وَجَلَّ لكل شيء لأن حمل الماء في العُلُو لا يمكن إلا عن قهر، كما أن رفع
السماء بغير عمد لا يكون إلا عن قدرة وقهر، وكذلك إنزال الماء في وقت
دون غيره دليل على ذلك. (١)

(فسالت أودية بقدرها) :

مادة (السين والياء واللام) أصلٌ واحد يدلُّ على جريانٍ
وامتدادٍ . (٢)

(أودية) : أصلُ الوادِي المَوْضِعُ الَّذِي يَسِيلُ فِيهِ الْمَاءُ وَمِنْهُ
يَسْتَوِي الْمَفْرَجُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَادِيًّا وَجَمَعَهُ أَوْدِيَةٌ . (٣)
وهو اسمٌ فاعلٍ من ودى إذا سال . . ويسى الماءُ وادِيًّا
إذا سال . (٤)

(١) نظم الدرر ١٠ / ٣١٤ .

(٢) مقاييس اللغة مادة (سيل) .

(٣) الراضب مادة (وادى) .

(٤) انظروا الفخر الرازي ١٩ / ٣٧٠ .

ثم تأمل هذا التوافق العجيب، والتقدير الديدع، لهذه القلوب التي سالت بالحق، وقد هيئت بأصل فطرتها وطبيعتها، لتكون الموضع الذي يسيل أو يتدفق فيه نور الحق، وهدى القرآن، لذلك كانت استجابتها للحق سريعة حين أسالها فسالت، وأجراها فجرت، وامتدت، وأمدت بالحياة، فكان في سيلانها امتداداً لحركة الحق في الوجود، وشيئاً له، ومقاً لنفعه في الأرض .

وقد جاءت (أودية) على صيغة النكرة، لأنها تلك الواقعة مواقع المطر، المتعرضة لفيوضاته ونفحاته، فليس المراد جميع الأودية بل نوع خاص منها، لأن الأمطار لا تستوعب الأقطار، وإنما تنزل على طريق المناومة، فتسيل بعض الأودية دون بعض . (١)

وفي هذا دليل على أن من أقبل على الحق وعرض نفسه عليه لم تجد نفسه بدا من الإيمان به، لأن الفطرة مهيأة لقبول ذلك، وأن من أعرض، وأنكر، كان كمن يغطي فطرته، ويحجب بصره، ويفل عقله، وينأى بنفسه عن هذا الخير والنور .

(١) انظر (أبو السعود) ١٤/٥، روح المعاني ١٣/١٣٩ .

كما يوحي التكرار أن هذه الأودية على قلتها أودية عجيبة
الصفة، عظيمة القدر، تخرج عن المعتاد والمألوف من أودية الناس، كيف
لا وهي أودية في صدور الذين آمنوا، واستجابوا لربهم، يسيل فيسها
ماء الحق، فيخصب جديها، ويروى ظمأها، ويبعث فيها الحياة الدائمة
الباقية التي لا ينتهي عطاؤها، ما دامت تستمد من هدى القرآن .
وسواء كان المعنى المراد بقوله (فسالت أودية) معش (الأودية)
الحقيقي التي فيها الإسناد مجازي كما في (جرى النهر) أي ماءه ، أو
أريد بها معناها المجازي والإسناد فيها حقيقي ، من باب إطلاق اسم
المحل على الحال فيه .

فكلا المعنيين لا تضيق عنه لغة القرآن ، فهذا الحق يمتد في
العروق ، ويجرى في القلوب ، وهي لشدة تأثرها به ، واستجابتها له ، وإقبالها
عليه ، كأنها تسيل .

وقوله (بِقَدَرِهَا) في موضع الحال من أودية ، والقدر بمعنى
المقدار ، واللفظ له وجهان :

الأول : أي سالت بمقدارها الذي عينه الله تعالى من
الماء ، واقتضت حكمته . في نفع الناس ، لأن المطر مثل للحق ، وهو نافع
خال من الضرر . (١)

(١) انظر أبو السعود (١٤ / ٥) ، والبحر المحيط (٥ / ٣٨١) .

الثاني : أوبقدر صفرا لاودية وكبرها، لأن النافع ذلك، (١)

بحيث لا يفيض الماء فيضر، لأن من السيول جواحف، وزواحف، تجرف
الزرع والبيوت والا نعام. (٢)

وراء تفاوت الأودية في المقادير اختلاف الناس، وتفاوتهم، في

قابلية الانتفاع بما نزل من الحق، وهذا يتناسق ويتلاءم مع اختلاف

الشمرات التي تسقى بما واحد . يقول تعالى :

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَّجَوْرَاتٌ
وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَّرْعٍ وَخَيْلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يَسْقَى بِمَاءٍ
وَاحِدٍ وَنَفْثَمَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وكأنها باختلافها تحدث التكافل ، والتكامل ، إذ أن كل شجرة

تختص بمنفعة أو تمنح الجسم فائدة يحتاجها ، كما أن كل قلب

يحمل بالقدر الذي يطيقه فهمه ووعيه ، ولو كانوا جميعا سواء لما احتاج

قلب إلى قلب، ولا عقل إلى عقل، ولما حدث التآلف، والتعاون، ولا استغنى كل

(١) حاشية الشهاب ٥/٣٢٢ .

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١١٨ .

(٣) الرعد / ٤ .

عن الآخر وهكذا تمنحك لغة القرآن معنيين لا تضاد بينهما فهو بالقدر
الذى ينفعهم ، ففيه حياة القلوب وصلاح المعاش وزاد المعاد وهم يحملون
منه بالقدر الذى تطيقه حياتهم وطبيعتهم .

* فاحتمل السيل زيدا راييا *

ذهب أكثر المفسرين الى أن (اِحْتَمَلَ) بمعنى (حمل) جاء فيه

(افْتَعَلَ) بمعنى المجرد .

والذى يظهر لي - والله أعلم - أن إِيثار اِحْتَمَلَ على حَمَلَ لزيادة

في معناه وقوة في مبناه ، لأن الاحْتِمَالَ : رَفَعَ الشَّيْءَ عَلَى الظَّهْرِ بِقُوَّةِ
الْحَامِلِ لَهُ . (١)

* وَتَحَامَلْتُ إِذَا تَكَلَّفْتُ الشَّيْءَ عَلَى مَشَقَّةٍ وَالاحْتِمَالَ الْغَضَبُ . .

لأنهم يقولون احتمله الغضب وذلك إذا أزعجه . (٢)

ووراء ذلك جهد أهمل الحق واصطبارهم على احتمال هذا الغناء

المجتمع من الأوساخ والأكدار التي تقذف بها نفوس الكافرين والمشركين

من الشكوك والشبه والإنكار والتكذيب .

(١) نظم الدرر ١٠ / ٣١٥ .

(٢) المقاييس مادة (حمل) .

وجاء " السيل " معرفاً لأنه معهود مذكور بقوله تعالى :

(سالت أودية) وإن لم يجمع، لأنه مصدر بحسب الأصل . (١)

ثم تأمل هذا الممنون، واستقص النظر إليه، بتفريغ لب وجمع قلب، وسكون طائر، حتى كأنك لا تسمع في هذا الكون إلا صوت هذا السيل، الذي أهاج بمسيرته الوجود، وملاّ القلوب رغبةً ورهبةً .

ثم قارنه بتلك الطائفة المؤمنة، أو الجيل القرآني الفريسي، الذي تلقى الحق والوحي مباشرة من فم السماء، ولم يحل بينه وبين سرعة الاستجابة لهذا الحق حائل . ثم انظر أتجد في تاريخ البشرية كلها شيئاً كسيله، أو حركة في الوجود تضاهي حركته في قوتها، وما أضفته على البشرية من عظيم نعمها، وجليل فضلها ؟

إنه السيل الذي لا زال دويه في أذن الزمان، ولا زالت آثاره في الأرض قدوة لمن أراد أن يحتذى ويفي بعهد الله ولا ينقض الميثاق (٢)

لتكون حركته في الوجود امتداداً لذلك السيل الفريد .

(١) انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢٢٣/٥ .

البحر المحيط ٣٨٠/٥ .

(٢) انظر آية ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢ من سورة الرعد .

ثم تأمل كيف جاء التعبير عن هذا السيل بالافراد، ولم يجمعه ، فلم يقل (فاحتملت السيول زيدا رابيا) وإنما أفرده وجعله سيلاً واحداً، ومصدراً لكل سيل بعده ، لأنهم في جهادهم وحركتهم في الوجود ضد الباطل ، أمة واحدة ، وقلبا واحداً ، وجسداً واحداً ، ^{وَبَيْنَ مَرصُوعٍ} ^{بَيْنَ مَرصُوعٍ} كما التقت تلك الشرات بنفعها في جسد واحد ، لتده بطاقة واحدة ، وان اختلفت منافعها ، وتنوعت طعومها ، فهي طاقة واحدة ، ولغاية واحدة هي حفظ هذا الجسد من التلف والفساد ، الذي يؤدي الى الفناء .

"والفاء" في قوله تعالى :

فَسَأَلَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا بِقَدْرِهَا فَاَحْتَمَلَ السَّيْلُ زَيْدًا رَابِيًا

لها موقع دقيق ، رتبته في المعاني بعضها فوق بعض ، فاحكمت سيكها وهي في تسلسلها وتتابعها تحكي قصة واحدة ، قصة الحق في فيضانه من جناب المقدس (١)

على قلوب خالية عنه ، متفاوتة في الاستعداد ، ظامئة إليه أشد ما يكون الظم ، وما أن يبلغ هذه الأجواف الظمئة حتى تبعث فيها الحياة ، وتسيل متدفقة بالخصب والرواء ، ولكن يأبى الباطل بشبهه ، وشكوكه ، وإنكار منكره ، إلا أن يقف في طريق الحق ، وما هو إلا تراب الأرض

(١) أنظر (أبو السعود) ٥/١٣٠

الذي تطوءه الاقدام ، يرفعه السيل عند اشتداد جريانه ، فيظهر زبداً رابياً ويحاول باعتلائه ، وانتفاخه ، أن يحجب وجه الحق ، ويعكر صفو جوهره ونقاء معدنه ، وما فيه من حياة القلوب ، ونفع الناس ، ولكنه لا يلبث أن يضمحل ويزول أمام اندفاع الحق ، وقوة جيشانه ، فكان حركة الحق في الوجود

هي التي أظهرت الباطل ، وهي التي دفعت مزقته فذهب جفاً .

(١)

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ

أي : ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس ما يسبك في النار لطلب الزينة ، أو الأشياء التي ينتفع بها ، كالأواني / مثل زيد السيل ، لا ينتفع به كما لا ينتفع بزبد السيل .

وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى لضرب مثل آخر .

وهذه الواو التي تقتضي المفارقة توحي بأن للحق مع الباطل

موقفاً آخر ، أو توحي بأن هناك باطلاً آخر ، يماثل الباطل الأول في صراعه

مع الحق .

قوله تعالى :

وَمِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ .

" ما " لها وجهان عند المفسرين فهي إما أن تكون تبعيضية،

وإما أن تكون ابتدائية دالة على مجرد كون الزبد مبتدئا وناشئا من

المعدن لا تبعيضية ، ويعللون ذلك بأن فيه إخلالا بالتشثيل لأن

المقصود من التشثيل بيان عدم استواء الحق والباطل وأنهما أمران

مختلفان اختلاف الأعمى والبصير والظلمات والنور ، فكيف يكون الباطل

بعض الحق وإنما يخالطه من غير مداخلة فيه تفسد جوهره وإنما

تجيب صفاءه وجلاله . (١)

وكان هناك نوعين من الزبد زيد راب فوق الماء من غير

مداخلة فيه وزيد مختلط بالمعدن لا يظهر إلا عند الإيقاد عليه فسي

النار فيظهر ويعلو ظهر المعدن لخفته وانعدام وزنه ، ولكنه ظهور

وشيك بزواله وذهابه وفناؤه .

(١) انظر أبو السعود ١٤ / ٥ روح المعاني ١٣ / ١٣٠ .

ووجه الماثلة بين هذين الزيدين في كونهما يتوالدان من
الأساخ والاكدار . تأمل هذا وقارنه بما يقابله من المثل له ، فهسل
تجد أساخا واقذاراً تمكّر صفو الحق كهذه الشبه والشكوك والتكذيب
والإنكار الذي يخالط النفوس، ويطمس بصيرة القلوب . ٢ .

وهذا الزيد الطائفي الربابي الظاهر إنما هو - والله أعلم -
ما واجهته دعوة الحق ، من تكذيب وإنكار من غير لبس ولا خفاء . فقد كانت
الحرب بين الحق والباطل واضحة المعالم ، بارزة السمات ، ولا يحمل هذه
الامة الكافرة على هذه المواجهة إلا ثقتهما بقوتها المادية ، على بساطة
عقليتهم وجمودها في الكيد والذس ، وكلما أوغل الإنسان في الحضارة ،
والتقدم العلمي ، زاده ذلك دهاءً ومكراً ، وتلبيساً ، لذلك كان ما يلاقه
الإسلام من أهل الكتاب، واليهود خاصة - وهم أهل علم - أشد وأنكى
لأن حربهم للحق وغزوهم لا هله بطرق أخفى، وأشد دهاءً ومكراً وفتكاً
بالنفوس .

ولكن هذا الزيد الخفى لا تلبث أن تظهره الشدائد ، والمحن
التي تعربها الأمم . **فَأَمَّا الزَيْدُ فَيَدُ هَبْ جَفَاءً** من دعوات هادمة
واعتقادات فاسدة ، وأعمال وأقوال ، وشعارات ، وأحزاب .

وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (*)

وهذه الابتلايات والمحن التي تتلقى بها الأمم، إنما هي بما كسبت أيديهم . تأمل قوله تعالى (يوقدون) وكيف أضمر فاعله مع عدم السبق لظهوره إيجاباً بأن الذين يوقدون قوم مندسون في هذه الأمم، يسمون لإيقاد الفتن، والمحن، ابتغاء متاع قليل، وحلية بالية فانية .

والإيقاد على الشيء على قسمين : أحدهما : ألا يكون ذلك

في النار كقوله تعالى : فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنَ ، والثاني :

أن يوقد على الشيء ويكون في النار . (١) رغبة في إزابته كالمعادن .

ثم تأمل كيف يغيض هذا القيد (في النار) معنى التوكيد ،

والتأسيس، والمبالغة . فالتوكيد حاصل من أنه يوقد عليها، وأنها في النار (٢)

وأن الإيقاد يتجدد، ويتكرر حدوثه، وهذا ما يفيد الفعل (يوقدون) .

ثم انظر إلى موضع العناية والاهتمام، والإعتبار في الآية الكريمة ،

تجده في هذه الجملة المفعولة صلة ، إذ الغرض كامن فيها لذلك

(*) الرعد / ١٧ .

(١) الفخر الرازي ٣٨ / ١٩ .

(٢) انظر حاشية الشهاب ٢٣٣ / ٥ .

قدمت هنا وما وراء تقديمها من تشويق للسامع لترقب المسند إليه .

يقول ابن عاشور : * وفي ذلك من يديع صنع الله إذ جعل

(١)

الزبد يطفو على أرق الأجسام وهو الماء ، وعلى أغلظها وهو المعدن *

ووراء ذلك أن الجيل الأول يبلغ في الرقة والشفافية وصدق الإيمان وليونته ،

واخبات النفس ، ووجع القلب لله ليونة هذا الماء الذي خالط قلبه

وعذوبته ، ثم إنه لطول الأمد ، وتراخي العمر ، والغفلة عن المنهج ،

ومخالطة غيره له قسا وصلب ، ولم تعد حالة الليونة تظهر إلا عند الابتلاء

والفتنة ، حين يصفو معدنه ، ويطرد عنه الزبد .

فالغرض إذاً كامن في هذه الجملة وهي قوله تعالى :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ (٢) ﴾

لأنه تشيل وتصوير حالة الافتتان والاختبار والابتلاء ومعالجة الأشياء

بالشدة لتبين معادنها ، وتصفيه جواهرها ، فينتفع بالخالص المصفى

(ابتغاء حلية أو متاع) .

ولأن ذكر الإيقاد عليها سبب حصول الزبد وطرده .

(١) انظر التحرير والتنوير ١١٩/٣

(٢) الرعد / ١٧

ولما كان الإيقاد على هذه المعادن فيه إشارة إلى التهاون

بها، بوضعها في النار، وانزالها بالإيقاد عليها إيقاداً مستعلياً، (١)

يتناسب مع مقام الكبرياء، والقهر، ولأن الواحد القهار هو القادر

على تسخير هذه النار لإذابة هذه المعادن، أتبع ذلك ببيان منفعتها،

وأن الغاية من الإيقاد عليها شدة رغبة الناس في الانتفاع بها من حلية

أو متاع أي أن هذا تكريم لها، وتشريفه بإعدادها للنفع والبقاء. (٢)

ابْتِغَاءُ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ

تأمل كيف تتحول وتخلص هذه المعادن من تلك الحالة

الشديدة، والمكابدة والعناء، إلى هذا الجمال والبهاء، إلى حلية تخطف

ببريقها الأبصار، وتشنف بوسوستها الأذان و تشنف بمحبتها القلوب .

يقول أهل العلم (٣) :

(٤)

* وفي ذكر متعلق ابتغاء تنبيه على منفعة (ما يوقدون)

ولعل وراء حرصهم على صوغ الحلوى التي يتزين بها الناس تعبيراً عن

رغبتهم في التمتع بمن يتحلوا بهذه الحلية، أو بمتاع الحياة الدنيا، فإن الزينة

(١) انظر نظم الدرر ١٠ / ٣١٥ .

(٢) انظر حاشية الشهاب ٥ / ٢٢٣ .

(٣) نظم الدرر ١٠ / ٣١٦ .

(٤) البحر المحيط ٥ / ٣٨٢ .

والحلية والبهاء والجمال ، كان ولا يزال عند الناس من مباحج الحياة ومقاصدها . يقول عز وجل :

(*)

وَقَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ

والمَتَاع : * ما يتخذ من الحديد والنحاس وما أشبهها من الآلات، التي هي قوام العيش، كالأواني والساحي، وآلات الحرب، وقطاعات الأشجار والسكك وغير ذلك * . (١)

والمَتَاع من التمتع الإمتداد والإرتفاع وكلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ عُلَى وَجْهِهٖ مَا فَهُوَ مَتَاعٌ وَمُتَعَةٌ * . (٢)

وفي تنكير (حلية) و (متاع) ما يشير إلى مدى حرص الناس وشدة رغبتهم في التمتع بهما، ولو كانت حلية فانية، ولو كان متاعاً إلى حين . كما يوحي التنكير بأنها حلية بالفة رائعة، ومتاع عظيم، يمتد بهم ويرتفع وإن هذا حاصل ما دام الإيقاد على هذه المعادن مستمراً متجدداً، فالنفع من ورائها يعظم، ويكبر، حتى يصل إلى أوج فتنته وبها،

(*) الرعد / ٢٦ .

(١) البحر الصبغ / ٥ / ٣٨٠ .

(٢) الراغب مادة (متع) .

وهذا ما آت إلى حال البشرية اليوم من شدة الافتتان بهذه المعادن
وتسخيرها لمتعة الإنسان وراحته .

ولعل وراء ذلك - والله أعلم - أن الله ^{لإنما} يبتلى عباده بما
يصفيهم، ويجلي جوهرهم، ويطرد الزبد والباطل عنهم، إنما يفعل ذلك
ابتغاءً تحليتهم، بالأحوال السنية، والأخلاق الزكية، التي بها جمال الرجال
وقوام صالح الأعمال . (١)

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ

فَإِنْ هُمْ نَهَبَتْ أَخْلَاقَهُمْ نَهَبُوا

فهو متاع خالد، دائم، باق، خال من المضرة، وما يكدر صفو العيش، وهنائه
لذلك يأتي التعقيب :

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ

قال أهل المعاني: الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن،

وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة، الدائمة الخالية عن الانقطاع،
المقرونة بالتهظيم والإجلال . (٢)

(١) انظر القرطبي ٣٠٦/٩

(٢) الفخر الرازي ٣٩/١٩

تأمل ذلك الذي أعد للمحسنين، وقارنه بهذه المنفعة العاجلة،

والحلية الحالية إلى حين .

وقوله تعالى ، **رَبِّهِمْ فَشَاءَ** ، لاشتراكهما في الزبدية .

وفي تنكير (زيد) ما يوحي بضآلته، وحقارته، والازدراء به وإن

أعجب الناس كثرته، وظهوره، وعلوه، وفي بادىء الأمر إلا أنه مضمحل، وشيك

الزوال، منسلخ عن المنفعة والبقاء .

(*)

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ

جاءت هذه الجملة المعترضة لتفصل مآلهما، بعد أن تحدثت

عن حالهما .

" وَالضَّرْبُ : إِيقَاعُ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ ، وَمِنْهُ ضَرْبُ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ ،

وَضَرْبُ الدَّرَاهِمِ اعْتِبَارًا بِضَرْبِ الْمَطْرَقَةِ . . وَضَرْبُ الْمَثَلِ هُوَ مِنْ ضَرْبِ

الدَّرَاهِمِ ، وَهُوَ ذِكْرُ شَيْءٍ أَثَرُهُ يَظْهَرُ فِي غَيْرِهِ " . (١)

(*) الرد / ١٧ .

(١) الراغب مادة (ضرب) .

ويقول الشريف الرضي : " والمراد بضرب المثل (والله أعلم) معنيان، أحدهما: أن يكون تعالى أراد بضربهما تسييرها في البسلاط وإدارتها على السنة الناس من قولهم ضرب فلان في الأرض إذا توغل فيها، وأبعد في إقاصيها، والمعنى الآخر في ضرب المثل أن يكون المراد نصبه للناس بالشهرة تستدل عليه خواطرهم، كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم، وذلك مأخوذ من ضربت الخباء إذا فضبته " (١)

وقوله " كذلك " فيه إشارة إلى أن ما ذكر في الآيات السابقة قد بلغ من الكمال مبلغاً عظيماً بحيث صار نموذجاً كاملاً ومثالاً للحق (٢) والباطل، وكأنه لكامل التماثل بينه وبين ما مثل به عين الحق والباطل، وقولنا: إن هذا المثل يشبه الحق والباطل فيه إغفال لهذا المعنى الدقيق، فجاءت هذه الكاف لتفيد بلوغ المعنى تمامه، وتحقيق التشيل وتثبيته وتوكيده .

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص ١٢٣ للشريف الرضي .

(٢) انظر بلاغة القرآن، أحمد بدوي ص : ٢١٥ .

تأمل كيف كان من علمائنا من يتذوق ويدرك أن وجوه الشبه لا تنحصر في وجه واحد بل قد تمتد وتتسع وذلك منهج عبد القاهر الذي أغفلناه في دراستنا بعد ذلك .

وهذا الوجه الذي صرح به في (التمثيل) إنما صرح به لما فيه من البشارة والندارة لأهل الحق والباطل ، وأما أهل الباطل فهم الزائلون البائدون ، وأما أهل الحق فهم الباقون الدائمون ^(١) وهكذا يبدأ في التفصيل بما هو أهم في الذكر .

وعطفت جملة (فأما الزيد) على قوله (فاحتمل السيل زيدا رابيا) بعد أن تفرعت على التمثيل وجي " بأما " للتوكيد . لأن النفوس لا ترى إلا الظاهر العالي الرابي فتظن أنه لن يزول فجساء التوكيد لهذا الخبر ليصرف أذهانهم إلى هذا الكلام الذي فيه ما فيه من خفي البشارة والندارة . ^(٢)

(١) انظر التحرير والتنوير ١٣/١٢١ .

(٢) المرجع السابق ١٣/١٢١ .

"وأفرد (الزيد) ولم يشن وإن تقدم (زيدان) لاشتراكهما في مطلق

الزيدية، فهما واحد باعتبار القدر المشترك". (١)

وفي هذا إشارة إلى أن الباطل وحزبه ملة واحدة، وإن كثرت

أحزابهم، واختلفت أساليبهم، وطرقهم في الكيد والظعن، وإثارة الشبه

والفتن . وسواءً أكانوا ظاهرين مجاهرين بالكفر، أو متلبسين مندسين

عاملين في الخفاء، فكلهم تجمعهم صفة الزيدية، والمغشائية، التي لا خير

فيها ولا منفعة ومن ثم فهي غير باقية .

قَامَ الزَّيْدُ فِي دَهَبِ جَفَاءَ

والجفاء : " وهو ما يرس به الوادي ، أو القدر من الغشاء

إلى جوانبه ". (٢)

يقال : أَجْفَأَتِ الْقَدْرُ زَيْدَهَا الْقَتَهُ إِجْفَاءً وَأَجْفَأَتِ الْأَرْضُ

صَارَتْ كَالْجَفَاءِ فِي زَهَابِ خَيْرِهَا ". (٣)

(١) البحر المحيط ٣٨٢/٥

(٢) الراغب مادة (جفا) .

(٣) المرجع السابق وانظر القاييس مادة (جفو) .

" وفي هذا وعيد للمشركين بأنهم سيبادون بالقتل ويبقى

المؤمنون . "

وورا استعمال " يذهب " بدلا من " يمضي " أن عين الباطل

ومعناه زاهبان، أي أهله وما خلفوه من مناهج، وعقائد، ودعوات وشبهه، ومنكرات،

لأن الباطل قد يهلك أتباعه ويبقى منهجه .

ولكن كيف يذهب هذا الباطل أيذهب عاليا رابيا ظاهراً كما كان،

وكما غلب على قلوب البشر واستعيدها وأذلها له . . أم يذهب منبوذاً

مستهجنا حقيراً ذليلاً مصروها مطروحا كما تطرح الفضلات والزوائد التي لا

خير فيها ؟

يذهب الباطل " جفاء " ويذهب معه كل باطل يتجدد

حدوثه وقيامه إلى أن يورث الله الأرض لعباده الصالحين .

وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا كُنتُمْ فِي الْأَرْضِ (١)

وجاء التعبير عن " الماء " الذي يشل الحق بالاسم الموصول

وصلته (بما ينفع الناس) إيماء إلى وجه بناء الخير وهو البقاء في الأرض ،

وفيه من التعريف بالمشركين ما فيه لأنهم لا نفع فيهم للناس . . وهذا المعنى

يتطابق مع قوله تعالى :

(١) * أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * (١)

و (النفع) كلمة تدل على خلاف الضر (٢)

ويرى صاحب روح المعاني أن قوله تعالى :

”وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ“

يعني من الماء الصافي الخالص من الفشاء والجوهر المعدني الخالص من الخبث . (٣)

وفي بناء الجملة على هذه الصورة (مَا يَنْفَعُ النَّاسَ) إشارة إلى

تعدد وجوه النفع واستمراره استمراراً تجديداً تظهر به وجوه أخرى ، كبيرة وعظيمة من المنافع ، والعالم / كله يشهد ^{اليوم} بعظم نفع الماء والمعدن في إقامة هذه الحضارة العلمية الباهرة التي بهرت الأبواب واختلبت النفوس ، والله هذا القرآن !! .

فِيمَكَّتْ فِي الْأَرْضِ

* الْمَكْتُ : كلمة تدل على توقف وانتظار * . (٤)

-
- (١) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .
(٢) المقاييس ٥/٤٦٣ .
(٣) روح المعاني ١٣/١٣٢ .
(٤) المقاييس ٥/٣٤٥ مادة (مكث) .

وعدم استمجال ، فالحق باق في الأرض ببقاء منهجه الذي

تكفل الله بحفظه :

(١)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

واق ببقاء أهله :

(٢)

الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ قَامُوا الصَّلَاةَ

وفي قوله تعالى :

(٣)

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ

جمع ثم تقسيم ، فيبدأ بذكر الزيد أولاً ، لأن ذكره أهم فهو الظاهر المنظور الذي أغروخده ، وملك واستعبد ، فالنفس في توق لمعرفة مآله وقدرة الله على الذهاب به ، ولأن الحق هو المتأخر في الوجود لاستمراره .

والرأى الراجح : إن ذلك الترتيب من قبيل اللف والنشر غير المرتب ، وهو

مراعاة للملاءمة بين حالتي الذهاب والبقاء ، وبين ذكرهما ، فان المعتبر إنما هو بقاء الباقي بعد زهاب الذهاب ، لا قبله ، لأنه ما دام الباطل مستمرا في الوجود فسيحول بين الحق وبين الانتفاع به على الوجه الذي يسر له ، ولكن زهاب الباطل خلوص للحق للانتفاع به على أكمل وجه وأعظمه .

(١) الحجر / ٠٩

(٢) الحج / ٠٤١

(٣) الرعد / ٠١٧

وبعد ذلك فسيظل الحق وأهله في انتظار ولهفة وشوق وتوق
للمنفعة الكبرى التي دونها كل منفعة ، وللنعيم الأبدى الذي ليس فوقه
نعيم ، وفي ضرب هذا المثل تأكيد للإيمان باليوم الآخر ، وبالبعث والجزاء
الذي جاء الحق لتبليته وتقريره في النفوس .

لذلك تأتي البشارة بقوله تعالى :

لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ

* والحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة
(١)

عن شوائب الضرر الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والإجلال *

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١)

* كذلك * للتحقيق والتوكيد أي مثل ذلك الضرب العجيب :

(يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) في كل باب إظهارا لكمال اللطف والعناية في الإرشاد

، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله سبحانه :

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (٢)

وهكذا يبين الله الحق والباطل حالا ومآلا .

(١) الفخر الرازي ٣٩/١٩

(٢) الرعد / ١٨

(٣) الرعد / ١٧

قال تعالى :

الرَّ تَرَكَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي
أَكْثَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ
أَجْتُنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ
اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

من أسرار المناسبة :

وحدة الرسالة والرسول هما الحقيقتان اللتان تدور حولهما

سورة إبراهيم عليه السلام ، فدعوتهم واحدة ، وغايتهم واحدة ، وتلك هي

الكلمة الطيبة التي ضرب الله لها مثلا :

كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (١)

فهي الكلمة التي دعا إليها كل رسول ، كلمة التوحيد ، وعليها يقوم الدين

كله ، يقابلها في الجانب الآخر كلمة خبيثة ، هي كلمة الكفر والشرك التي

حطت أتباعها على التكذيب بالرسول ، ومجادلتهم بالباطل ، وكان بينهم

ذلك الحوار الطويل ، الذي انتهى بتكذيب الكفار في نار جهنم ، وإحراق

أعمالهم ونسفها :

كروادٍ اشتدَّت به الرِّيحُ في يومٍ عاصفٍ (٢)

ولما وعد الله عباده ورسوله بأنه سيمكن لهم في الأرض ، ويهلك الكافرين ،

ناسب أن يمثل لهذا التمكين والثبات ، ويمثل لما يقابله من اجتثاث أهل

الباطل وهلاكهم .

(١) إبراهيم / ٢٤ .

(٢) إبراهيم / ١٨ .

من أسرار اللغة والنظم :

(أَلْتَر) الخطاب هنا لكل من تصح منه الرؤية فعليـه
أن يرى، لا نه مثل تناهي قدره، وعظم شأنه، فعلى كل راء تتأتى منه
الرؤية أن يراه، ولا يغفل عنه، وفي ذلك أيضاً إيحاء بالرغبة في تعميق
صورة هذا المثل في وجدان كل راء، لتكون له حافز على السعي لتحصيله
والفوز به، وهذا ما نستوحيه من قول الفخر الرازي :

" إن الشجرة الموصوفة بالصفات الأربعة المذكورة شجرة شريفة
ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتلّكها لنفسه لأن هذه الصفة
أمر مطلوب التحصيل ". (١)

وفي إشار التعبير (بكيف) دلالة على أن حالة ضرب المثل ذات
كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه . (٢)

وعندما استقصيت هذه الصيغة في القرآن الكريم أجدها ترد إلا مع
هذا المثل من الأمثال القرآنية، وفي ذلك ما يوء كد تفرد هذا المثل بهذه
الكيفية العجيبة، وذلك حفاوة بالمعنى وإيقاظاً للذهن لترقب ما يرد بعد
هذا الكلام .

(١) الفخر الرازي ١٩/١٢٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/٢٢٣ .

وفي ضرب الأمثال زيادة إيفهام وتذكير، وتصوير للمعاني .
ثم تأمل ما تشيره صيغة هذا الفعل الماضي (ضرب) من زيادة
التشويق لمعرفة هذا المثل وما مثل به، وهذا الاسم الجليل من قوله
(ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا) يوحي بأدى ذى بدء بما تنطوى عليه الكلمة
الطيبة من معاني الألوهية الخالصة لله .

والكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد .

وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله .

وفي تنكيرها ما يوحي بأنها كلمة لا يكتنه قدر جلالها فهي

كلمة عظيمة القدر، كاملة في الصفة الموصوفة لها (طَيِّبَةٌ) .

وفي ذكر أداة التشبيه في قوله (كَثِيرٌ طَيِّبٌ) ما يشير إلى أن

هذه الشجرة الطيبة الموصوفة بها الكلمة الطيبة ليست هي عينها، بل

دونها منزلة ورتبة فالأمثال التي يضربها الحق جل جلاله لتقريب هذه

المعاني ، مستقاة من أنفسنا، ومن هذا الكون المحيط بنا، فالكلمة كلمته، والشجرة

مخلوقته، فلا عجب أن يضرب بها مثلاً لكلمة تناهى قدرها وفضلها، ليكون ذلك

من العظة والعبرة ما فيه .

وحسبك ما يوحيه تجردها من التعريف لتكون بصفتها هذه وحدها

لا تضاهيها أشجار الدنيا وقد اجتمع لها طيب النظر والراعية والثمرة وعظم

الانتفاع بها فحصل لها بذلك كمال الطيب . (١)

ويشير الرازي إلى أن الآية مقصودا شريفا لا ينكشف بالنظر في المفردات وحدها وإنما بالنظر في تتابع الكلمات وما بينها من علاقات وينوه بهذه الصفات اللاحقة للشجرة وهي صفات أربع :

١ - طَيِّبَةٌ

٢ - أَصْلُهَا ثَابِتٌ

٣ - وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ

٤ - تَوَاتَرَتْ أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .

ويعقب على هذه الصفات الأربع بأنها صارت بها هذه الشجرة شجرة شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتملكها لنفسه سواء أكان لها وجود في الدنيا أو لم يكن . (٢)

قال تعالى :

أَصْلُهَا ثَابِتٌ * وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ

ثبت كلمة واحدة وهي دَوَامُ الشَّيْءِ . (٣)

(١) الفخر الرازي ١١٩/١٩ .

(٢) انظر الفخر الرازي ١١٩/١٩ .

(٣) المعاييس (ثبت) .

ثم تأمل هذا التركيب تجد تقديم كلمة (أصلها /) وهذا دال ثابت
على كمال العناية والاهتمام . وهو تقديم رتبة .

يقول الألويسي (تقديم الأصل للعناية به وبيان أنه ضار بعروقه
في الأرض) (١) .

تمكن فيها آمن ما يعترى الأصول من الاقتلاع والانقطاع وفي
مجيء الصفة على صيغة اسم الفاعل ما يؤيد كد ثبات هذه الصفة ودوامها
وهذا لما يرمى إليه التشبيه كما أن فيه إيحاء بما يداخل النفس من
البشاشة والآنس حين تعلم أن هذا الشيء الطيب باق دائم لا يزول ولا
ينقضي فيكمل فرحها ويتم سرورها .

(وفرعها في السماء) :

أى أعلاها في جهة العلو والصعود .

وفي هذا تأكيد لصفة ثباتها وكمال طيبها ، إذ أن ارتفاع
الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق كما
يدل ارتفاعها على نقاء ثمرتها وطيبها وطهارتها عما يشوبها من
شوائب الأرض فيما لو كانت قريبة رانية . (٢)

(١) روح المعاني ١٣ / ٢١٣ .

(٢) المصدر السابق بتصريف ١٣ / ٢١٣ .

تَوَقَّيْ أكلها كل حين بإذن ربها :

أى تعطي ثمرها كل وقت ووقته الله لإشارتها : (١)

فثمرتها حاضرة في كل الأوقات والانتفاع بها غير منقطع ثم يزيد

هذه الثمرة تشريفاً وتكريماً وفضل عناية قوله عز وجل : (بإذن ربها)

وما دامت الشجرة توتى أكلها بإذن ربها فيا طيب ثمرها ومركته وبإدوام

عطائها والأمن من زواله أو انقطاعه ، لأنه المرابي الذي تربوا الأشياء

بين يديه وتنمو إلى ما لا حد .

ثم في هذا إشارة إلى أن ثمرة الكلمة الطيبة أعني ثمرة الإيمان

هي أيضاً مرهونة بإذن الله فالطاعة والذكر والاستمساك بشرع الله كل ذلك

بفضل هدايته وتوفيقه وتشبيته لعبده لأنه المرابي الذي يربي خلقه ويتعمد

نفوسهم بالتزكية والتنقية .

ثم في هذا العطاء المضمون كل حين دليل من أعظم الأدلة

وأوكدها على أن جذور هذه الشجرة وأصولها ضاربة في أعماق الأرض

متمكنة منها تمدها بالحياة والرواء والعطاء وفيه إشارة إلى أن ثمرة

الإيمان إنما تكون أيضاً حين يتغلغل في أعماق النفس وتخالط بشاشته

القلوب .

وجه تطبيق المثل :

وقد ذهب المفسرون إلى أن وجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله بهذه الشجرة المنعوتة بما ذكر هو أن أصل تلك الكلمة ومنشأها هو الإيمان ثابت في قلوب المؤمنين فمتى اعتقد المؤمن من هذه الكلمة واطمأنت إليها نفسه منحت ثباتها وطيبها وتفرغت عنها وونيت عليها الأعمال الصالحة والأفعال الزكية التي تصعد إلى السماء فينال بركتها ثوابها فهو الشجرة التي تؤتيها كل حين . (١)

وللفخر الرازي لطائف ودقائق في تفسير هذه الآية نقف على

بعض منها فمن ذلك قوله :

* إن المراد بالكلمة: معرفة الله والاستغراق في محبته وطاعته لأنه لا لذيق ولا طيب في الحقيقة إلا هذه المعرفة وثبوت الأصل في شجرة المعرفة الإلهية أقوى وأكمل لأنها ثابتة في جوهر النفس يدها الذي لا يجرى عليه تغير ولا تبدل ولا فناء وأن هذه الثمرات التي تؤتي كل حين أثر لرسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب فيكون نظره بالعبسرة

(١) روح المعاني ٢١٣/١٣ بتصرف .

وسمعه بالحكمة ونطقه بالصدق والصواب وكلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه أقوى وأكمل كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر ثم لا يزال يصعد منها كل حين ولحظه ولمحه كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وكاء وتذلل كثر هذه الشجرة* (١)

وتفسير الثمرات بأنها الصالحات عينها لا يخالف ما ذهب إليه من قال بأنها الثواب المترتب على العمل الصالح لأن هذا يكون في حالة رقى المؤمن من الذي يصبح العمل الصالح نفسه قرّة عينه وثمرته إيمانه ويدعم ذلك قوله عليه السلام :

(وجعلت قرّة عيني في الصلاة) (٢)

وذلك يترجح لدينا ما سبق أن أشرنا إليه من أن المراد إثبات وتأكيّد صفة الثبات والرسوخ لهذه الشجرة الإيمانية وأن تصاعد فروعها ووفرة قطوفها وعدم انقطاعها أعظم دليل على امتداد جذورها في تربة القلب وتمكنها تمكنا لا ينقطع ولا ينقطع .

(١) تفسير الفخر الرازي ١٩/١٢٠ .

(٢) رواه النسائي وأحمد في الزهد وابن أبي شيبة والحاكم في المستدرک

وابن سعد والبخاري وأبو يعلى وابن عدى قال الحافظ ابن حجر في

(تلخيص التحبير) إن أسناده حسن .

نيل الأوطار للشوكاني ١/١٥٧ .

وصفة الثبات هذه ذكرت في مواضع عديدة من القرآن الكريم

منها تثبيت قلبه (عليه السلام) بنزول القرآن منجما وتثبيته للمؤمنين:

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا (١)

ومنها تثبيت المؤمن لا نفسهم باتباع ما يوعظون به والإنفاق

في سبيله :

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (٢)

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ مَبْغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَثْبِيثًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ (٣)

ومن مجموعها نخلص إلى أن القرآن والقول الثابت والعمل الصالح والجهاد

والإنفاق في سبيل الله أي فعل الطاعات من أعظم العوامل التي تثبت

المؤمنين في الدنيا والآخرة وكلها تنفرع عن الكلمة الطيبة .

(١) النحل / ١٠٢ .

(٢) النساء / ٦٦ .

(٣) البقرة / ٢٦٥ .

يقول صاحب عمدة القارى : (فما الحكمة بالتمثيل بالشجرة ؟)

قلت : لأن الشجرة لا تكون إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال ، فكذلك الإيمان لا يقوم ولا يثمر إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلوب وقول باللسان وعمل بالأبدان . (١)

ثم يأتي في مقابل تلك الصورة الخصبة العوطة في الثبات والبقاء المغرقة بالحياة والعطاء صورة على النقيض تماما من ذلك لم يضرب الله لها مثلا تنبئها إلى وجوب روءيتها لأن تناهي خبثها وعدم نفعها ^{بلغ} بلغها لا يخفى على أحد . وإنما وضعها في هذه الصورة المحسوسة :

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرٍ خَبِيثَةٍ

ليكون أدهى لفرة النفوس منها والوقوف على ضلالها وطلانها واضمحلالها . وفي تغير الأسلوب فلم يقل : رأيت كيف ضرب الله مثلا كلمة خبيثة) وإنما قال (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ) إيدان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان لأنه أمر ظاهر يعرفه كل أحد وربما كان ذلك لكثرة وشيوعه وغلبته على أكثر أهل الأرض :

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ (٢)

(١) عمدة القارى ٥/١٩

(٢) المائدة / ١٠٠

ومثل كلمة خَيْثَةٍ . الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر أو الدعاء

إليه أو الكذب * أو كل كلمة لا يرضاها الله تعالى . (١)

وفي تنكيرها ما يوحي بأنها كلمة تنهى خبثها وعظم قبحها .

(كشجرة خبيثة) : أى كشجرة منكرة خبيثة تتميز عن الشجر

في أنها لا نفع فيها ولا خير يرجى منها فهي بالغة الخبث، وأداة التشبيه

توحي بأن الكلمة الخبيثة أكثر خسة وأعظم خبثا من هذه الشجرة فبينهما

فضل بين وفي ذلك من الارزاء بها والإهانة والتحقير لشأنها ما فيه .

يقول ابن فارس (خَبَثٌ يدلُّ على خلاف الطَّيِّبِ يقال خَبِثَ أى

ليس بطيِّبٍ والخبيث في نفسه) . (٢)

أَجْنُثٌ مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ

أى اقتطعت من أصلها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة وهي شخص

الشيء كلها . (٣)

(١) زوج المعاني ٢١٤ / ١٣ وأبو السعود ٥ / ١٤٤

(٢) المقاييس (خبث) .

(٣) روح المعاني ٢١٤ / ١٣

يقول ابن فارس " ولا يكون مجشواً إلا وقد قُلع بجميع أصوله
وعروقه حتى لا يُترك منه شيء " (١).

ثم تأمل كيف عبرت هذه الكلمة بصورتها وجرسها وخصائصها

الصوتية عن معنى الاجتثاث أبلغ تصوير وأعظمه .

إذ أن كلمة (اجتثت) ، يشير بنائها الصوتي إلى معنى الاقتلاع

والقطع وذلك أن الحرف الأول فيها وهو همزة الوصل : ومخرجه مسنن

أقصى الحلق وكأنه يشير إلى امتداد الجذور ثم أنه امتداد واه ضعيف

لأن (همزة الوصل) همزة ساقطة في أكثر أحوال نطق الكلمة ثم هي

ليست أصيلة في بنية الكلمة وإنما اجتثبت تسهيلاً للنطق بها وربما كان في

هذا (والله أعلم) أن امتداد هذه الجذور امتداد ضعيف وكأنه معتد بمقدار

ما تكون به الشجرة شجرة يعنى يلامس التربة ملاسدة، ثم في حرف الجيم

الخارج من وسط اللسان انتقال إلى ما يقارب السطح، ثم في هذه الثقلة

حركة النزاع، ثم في هذه الثاء إشارة إلى نهاية هذا النزاع والثاء مخرجها

من طرف اللسان، ثم في هذا النفس والانتشار من صوت الثاء إشارة

(١) المقاييس مادة (جث) .

إلى ما يكون في التربة من بعثرة وانتشار من أثر هذا النزح .

كَمَا هِيَ مِنْ قَرَارٍ : أى استقرار .

(١) (يقال : قر الشيء قرارا كقولك ثبت ثباتا)

وهذه الجملة كالتممة للصفة الثانية فقوله :

أَجْنُتَّ مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ

فيه إيحاء بأنها قد تستقر في موضع آخر فأكد عدم استقرارها (مالها

من قرار) .

وفسي حرف (من) ما يؤكّد نفي القرار مطلقا فليس

لها ولا أقله .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الحق والباطل :

وهكذا نجد أن المثليين وإن كانوا يجدون أنهما صنوان متشابهان في الشكل والنتيجة إلا أن هناك أسراراً لتنوعهما لا يظهرها إلا التحليل الواعي المتأنى الدقيق ومدارسة الآيات كلمة كلمة ، وحسن الإصفاة إلى خفي وحيها ودقيق نبضها . (١)

ولم أقف في أقوال المفسرين على أسرار هذا التنوع إلا ما ذكره ابن عاشور حيث يقول :

" وهذا تمثيل آخر ورد استطراداً عقب ذكر نظيره يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكة وهم المقصودون ، فقد كان لهم في مكة صواغون فقرب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بمثل ما يصهر من الذهب والفضة* .

١ - والذي يظهر لي - والله أعلم - أن هذه الأمة في أول أمرها هم أهل البادية في قوة بيانهم وقوة أبدانهم وصحة طباعهم وسلامة أذواقهم وهم الذين شهدوا نزول الوحي من السماء ، تسيل به هذه القلوب المؤمنة ،

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ١٠٢ .

فلا غرابة أن يفجر لهم ينوع الحق ماثلا في هذه الصورة التي ألفوها
وخالطت نفوسهم وملأت قلوبهم إعجابا وافتتانا وهكذا تجد التشييل
في القرآن الكريم ، يخاطبهم بعناصر مستوحاة من بيئتهم ومحيطهم حتى
تأنس نفوسهم بما يرون ويقر في قلوبهم ويثبت ثبات هذا الحق ويقاءه .
وحتى تستكمل الصورة البيانية جمالها وقوتها ، جاء التعبير عن
هذه المعاني بهذه الألفاظ الصاخبة الجرس القوية الأداء ، والتي تلائم
هذه الجبلية البدوية الدمشة الخلق المتينة الطباع فكان قوة التعبير
هنا تتبع قوة المعنى . (١)

بينما تجد التشييل في المثال الثاني الذي يعبر عن صورة مستوحاة
من بيئة حضرية ، جاء بالألفاظ لينة رقيقة تناسب طبيعة الحضروما هم فيه من
حلية ومتاع ، فقال تعالى :

(٢)

وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ

وتدور المادة اللغوية التي كونت أساليب التشبيه وعناصره حول الماء النازل
من السماء - الأودية المختلفة المقدار التي سالت به والزيد الرابي الذي
احتلمه السيل عند جريانه وجيشانه .

(١) انظر النظم القرآني ، محمد الدبل ص ١٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق .

وتدور مادة التشبيه الثاني عن نشوء زيد يماثل الزيد الأول
المعادن التي يوقد عليها في النار ابتغاء الانتفاع بها لحليمة أو
متاع .

وهذا التشبيه للحق والباطل وان كان يشترك في معنى عام
هو بقاء الحق وثباته وزوال الباطل واضمحلاله إلا أن كل صورة منه
تتميز بتناول جانب من جوانب هذا المعنى لم يتناوله الآخر :

- ١ - التشبيه الأول : يمثل الحق الذي نزل من السماء فطلقته
هذه الطائفة المؤمنة واستجابت له فتصدى لها أهل الباطل
بالتكذيب والإنكار وقد جاء التعبير عنه بالفعل الماضي في -
(أنزل) و (سمات) و (احتمل) والذي يفيد تحقق ذلك
ووقوعه فهو تمثيل لصورة قامت وكلمت وتمت .
- بينما نجد التمثيل الثاني جاء التعبير عنه بلفظ المضارع
(يوقدون) الذي يصف الحق أو أهله وهم في هذه الحالة
التي يوقد فيها عليهم في صورة متجددة مستمرة كلما خبت
نارهم زادوها استعاراً . وما وراء ذلك من الجهد والمعاناة
والمكابدة والصراع المتجدد المستمر فهو يصف صورته متكرره في كل
زمان ومكان .

٢ - من أسرار التنوع أن الزيت الأول أظهرته حركة السيل فسي
اندفاعه وقوة جيشانه .

والثاني أظهرته حركة الإيقاد على هذه المعادن
في النار والغليان والانصهار فكان قوة الماء في اندفاعها
تماثل قوة النار في إظهار الزيت وطرده .

٣ - من أسرار التنوع أن المشطين وان كانا يشتركان في

المقاومة والنتيجة وهي زهاب الباطل وبقاء الحق

فَأَمَّا الزَّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

لكنهما يختلفان فذلك الماء يستقر في منابعه وعيونه لينتفع

الناس به حياة اكل شيء وهذا المعدن تتخذ منه الحليمة

أو المتاع فكان نفع ذلك للروح إن به حياة كل شيء

ونفع هذا للمعاش وما به قوام الحياة من حلية ومتاع .

هذا

٤ - من أسرار التنوع/التقابل في المعاني : ففي المثال الأول * أجواء عاطرة

ندية تتناسب مع ظمأ القوم وخلق تلك الأودية التي تشمل

القلوب من الماء والحياة ليحبسها وجفافها .

وفي المثل الثاني : أجواء حارة شديدة الحرارة تتناسب

مع صلابة هذه المعادن وقسوتها و مع شدة رغبة الناس في

الانتفاع بها مما به قوام معاشهم وحياتهم الدنيا ، فناسب

أن يكون هذا الجو الشديد الحرارة لتصهر فيه هذه المعادن

وتتخلص مما شابهها وينتفع بها .

هـ - من أسرار التنوع أن : المثل الأول يصف حالة قوم استجابوا لله وقوم لم يستجيبوا ،

لذلك أعقب التمثيل بقوله عز وجل :

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ هُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبئسَ المهاد (١)

بينما المثل الثاني يصف الحق وهو يوقد عليه وما وراء ذلك من

المعاناة والجهد والمكابدة والصبر على هذا الإيقاد ثم خلوصه

منه نافعاً أعظم ما يكون النفع وأكمله وأتمه .

ولذلك ناسب ولاء م أن تأتي الآيات بعد ذلك تصف حالة
هو ء لا الذين صبروا ابتغاء مرضاة ربهم ولم ينقضوا الميثاق وما أعد لهم
يقول سبحانه :

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۖ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (١)

إلى قوله تعالى :

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنَّا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢)

تأمل قوله (يدخلون عليهم من كل باب) وكيف أحاط بهم
النعيم وأصبحت وفوده تغد عليهم من كل باب ، مقاتل ما كان يحاط بهم

(١) الرعد / ٢٠ .

(٢) الرعد / ٢٢-٢٣ .

ويدخل عليهم من كل باب من كيد وفتن ومحن .

ثم تأمل قول الملائكة لهم والذي يتلاءم مع ما كانوا يعانونه

وصبروا عليه :

(١) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ

والذين جانبوا الحق في التشيل الثاني ومن عناهم القرآن الكريم بقوله :

وَمَا يُؤْقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ

والذين تصفهم الآيات بشدة فرحهم بالحياة الدنيا واقبالهم على متعتها .

يصرح السياق القرآني بصفاتهم وما أعد لهم مقابل ما أعد للمتقين

يقول تعالى : وَالَّذِينَ يَبْغِضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ

(٢)

مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ

(١) الرعد / ٢٤ .

(٢) الرعد / ٢٥ .

تأمل اللمنة والطرود التي تتلاءم مع قوله تعالى :

فَأَمَّا الزُّبُرُ فَيَذَرُهَا حِجَابًا

وأما المثان الآخراں اللذان يصوران كلمة التوحيد وكلمة

الكفر فتدور مادتهما وعناصرهما اللغوية المكونة لاسلوبيهما حول

الشجرة الطيبة الموصوفة بالأصل الثابت والفرع العالي والاشمار

الدائم .

والشجرة الخبيثة وما يتعلق بها من أحوال ومواصفات كاجتثاثها

من فوق الأرض وعدم قرارها .

وهذان المثان يشتركان مع المثان السابقان في معنى عام

هو بقاء الحق وشبته وذهاب الباطل واضمحلاله إلا أنهما يأتيان كنتيجة

مرتبة على ما سبق .

١ - فمن أسرار التنوع / يأتي تمثيل الإيمان والتوحيد بالشجرة الطيبة متناسقا

ومتناسبا مع تمثيل الحق بالماء الذي أنزل من السماء لأن الشجرة الطيبة

هي ثمرة ذلك الماء السام الطاهر النقي الذي استقر في الأرض فأثمر

وأينع فكانت ثمرة هذه الشجرة الطيبة في قلب المؤمن والتعبيير

بشجرة واحدة طيبة يمثل وحدة الرسالة ووحدة الغاية التي دعا إليها

الرسول جميعا وهي المقصد الرئيسي الذي تدور عليه هذه السورة سورة

إبراهيم .

فذلك الماء المبارك إنما عم الوجود ليرسخ جذور هذه الشجرة
الطيبة ويثبت أصولها فتورق فروعها وتؤتي أكلها بإذن ربها كل
حين كما أن هذه الشجرة تعبير حي رائع للمتقين الذي وعد الله به
عباده المؤمنين :

يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ (١)

وإذا كان الحق نزل ليثبت دعائم هذه الشجرة الإيمانية
الطيبة فإنه ولا شك يقطع جذور الشجرة الخبيثة شجرة الكفر والشرك
كما ذهب بذلك الزيد الطافي الرابي .

وبعد* أن ذهب بزيد الباطل من الشبه والشكوك التي طافت
فوقه في بداية دعوته أو خالطت معدنه ، ولكنه بعد رسوخه وثباته وتكثفه
في الأرض فإنه يجتث الباطل بجميع أصوله وعروقه ، وهكذا :

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ

فلا ثبات لهم ولا استقرار .

الفصل الرابع :

التشبهات التي تمثل أعمال الكافرين
وأسرار تنوعها .

المدخل :

تناول القرآن الكريم أعمال الكافرين في مواضع كثيرة منه يبين فيها أنها باطلة لاغية لا منفعة ترجى منها ولا خير فيها فهي حابطة مهما عظمت وكشرت.

وقد جاء هذا البيان على طريق الحقيقة دون تشبيه كما جاء عن طريق التشبيه .

وما جاء عن غير طريق التشبيه قوله تعالى :

مُحِطٌ بِمَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُوءِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ①

وبين سبحانه سبب احباطها وبطلانها - وهو أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر :

وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ②

سواء أكانوا مجاهرين بالكفر أو ساطنين ذلك كالمنافقين . ومع ذلك فقد زينت لهم أعمالهم وحسنت في أعينهم حتى تتعادوا في ضلالهم وترددوا في غيهم . يمسحون .

(١) هود / ١٦ .

(٢) المائدة / ٥٠ .

قال تعالى :

(١) أَفَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ لَكَ سُوءٌ عَلَيْهِمْ قَرَأَهُ حَسَنًا

وقال : كَلَّا نُنزِّلُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَلَاءَ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(٢) وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

كما بين القرآن الكريم أثر أعمالهم تلك على قلوبهم وكيف حجبت

عنهم نور الهدى والحق والإيمان .

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى

أَبْصَارِهِمْ غَشَاةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣)

كما جاء الحديث النبوي الشريف : يوءد ذلك ويقرره وكيف

تنطبع الأعمال على القلوب فتحول بينها وبين التمييز بين الخير والشر

وتطمس فيها نور الفطرة .

(١) فاطر / ٨

(٢) الكهف / ١٠٤

(٣) البقرة / ٧

قال عليه الصلاة والسلام :

(تعرض الغتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب
أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى
يصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات
والأرض والآخر أسود مرابدا كالكوز مجخياً لا يعرف معروفا ولا ينكر
منكراً إلا ما أشرب هواه) (١)

وأما ما جاء في القرآن الكريم عن طريق التشبيه فقد ورد في

مواضع عديدة وسور مختلفة .

جاء في سورة إبراهيم :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ كَرَمَادٍ
أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيْهِ شَيْئاً
ذَلِكَ هُوَ الصَّبَالُ الْعَبِيدُ ⑤

كما جاء في سورة النور :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قُوفَةً

(١) مختصر صحيح مسلم تحقيق ناصر الدين الألباني ص ٥٢٨ .

(٢) إبراهيم / ١٨ .

حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ أَوْ ظَلَمْتَ فِي الْحَسْبِ يَعْشَهُ مَوْجٌ
مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ لِّذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرْمِيهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ①

كما جاء وصف ذلك في سورة الفرقان :

وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ②

ويلاحظ أن عناصر التشبيه التي كونت أساليبه هي :

الرماد - الريح - اليوم العاصف - /- بقيعة - الظلمات -
البحر اللجي - وأحواله من ترادف أمواجه وكثافتها - السحاب

الهباء المنثور .

وكلها يجمعها معنى عام هو فناء هذه الأعمال وطلانها وأنها لا حقيقة
لها ولا منفعة فيها فهي لاغية مضطربة متلاشية ومع ذلك فإن لكل صورة
من صور التشبيه معرضاً ومعنى تتميز بها تتناسب وتتلاءم مع السياق
الذي وردت فيه لأن لكل تشبيه في القرآن سياقاً جاء مطابقاً له وهذا
لا يحتاج إلى إثبات لأنه ثابت ببلاغة القرآن فضلاً عن إعجازه .

(١) النور / ٣٩ - ٤٠ .

(٢) الفرقان / ٢٣ .

وسنبدأ بسورة إبراهيم نقف على بعض أغراضها ومقاصدها
لأن مقصود كل سورة هاد إلى تناسيها كما ذكر الإلمم البقاعي وهو المنهج
الذي ارتضيناه في دراساتنا هذه وسرنا عليه من بداية البحث .

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ
فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ
هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

من أسرار المناسبة :

من مقاصد سورة إبراهيم - عليه السلام - تثبيت العقيدة في أصولها
الكبيرة الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء وكان
يكون هدفها وفرضها الأساسي " الرسالة والرسول " ، فقد تناولت دعوة
الرسول وبينت وظيفتهم ووحدة رسالتهم .

وهاتان الحقيقتان اللتان تدور حولهما السورة الكريمة ، وهما
وحدة الرسالة والرسول تتناسقان مع اسم السورة وعنوانها الدال على مقصودها ،
فإبراهيم عليه السلام أب الأنبياء وإمام الحنفاء الذي حطم الأصنام
وحمل راية التوحيد وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث
به خاتم الأنبياء . (١)

وتتميز سورة إبراهيم عن غيرها من السور التي ذكر فيها الأنبياء
أنها معركة قائمة بين الرسل جميعا وبين الكفار ، قهؤلاء لا تجمعهم
رسالتهم ووحدة دعوتهم ، وهؤلاء لا تجمعهم بالعلم وجاهليتهم ، فكلاهما
على صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان . (٢)

(١) انظر الظلال ٢٠٧٩/٤ وصفوة التفاسير ٢/٨٩ .

(٢) انظر في ظلال القرآن . ص ٢٠٧٩ هـ ٤

وإذا ما اقتربت من سياق الآيات الكريمات ، وأصغيت إلى ما يدور
بينهما من حوار ، راعتك حالتهم التي انتهوا إليها من الطغيان والعناد
والفساد وجرأتهم على رسل الله واعتدادهم بقوتهم المادية .
يقول سبحانه :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ
مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مَلِينِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَشَبَّ لَكُمُ
الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُكَنِّيَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ
مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝

قال أبو حيان في البحر :

" ولما أقسدا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم ، أقسم
تعالى على إهلاكهم ، وأي إخراج أعظم من الإهلاك ، بحيث لا يكون
لهم عودة إليها أبداً . (٢)

تأمل كيف يأتي الوحي من السماء حين تطفئ الأمم على
رسلها ، ليدمر طواغيت الكفر ، ويقطعها من جذورها ، ويثبت الذين
آمنوا ويمكن لهم في الأرض .

(١) الآية ١٣ - ١٤ من سورة إبراهيم .

(٢) البحر المحيط ٥ / ٤١١ .

قال تعالى :

وَأَسْفَقُوا خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾
مَنْ وَرَّابٍ فِي جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ
يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمَنْ وَرَّابٍ فِي
عَذَابٍ عَلِيمٍ ﴿١٧﴾

ثم تأمل كيف يتناسب هذا العذاب الشديد الذي يسقى فيه الكافر من ماء صديد ، يبتلعه مرة بعد مرة ، فلا يكاد يستسيغه لقبحه ومرارته ، مع عظمتهم وشدتهم على رسل الله الأكرمين ، وما يلاقونه من أنواع الأذى والأقوال والأفعال ، ومحاولتهم إرجاع رسل الله في ملتهم ، فأذاقهم الله طعم الكفر ، الذي استساغوه في الدنيا وحاولوا إكراه رسل الله على العودة فيه ، فليستسيغوه اليوم ، إن كانوا قادرين أو طعم أقوالهم وأفعالهم التي آذت رسل الله فما أشبهها بما صديد .

(١) الايات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة إبراهيم .

ولكن العذاب ليس قاصرا على هذا فحسب ، بل إنه يتسع
ليشمل المكان والزمان ، فهذا الموت يأتيه من كل مكان ، ليستكمل عذابه
وما هو بدميت مستريح ، ثم من بين يديه على امتداد الزمان عذاب أشد
ما قبله ، وأغلظ يستقبله كل وقت . (١)

وهكذا ينهض التمثيل القرآني البديع في هذا الوقت العصيب
ليؤد كد شدة هذا العذاب الغليظ ، بأن لا يدع لوء ملأ لا لأنه قد
يخطر ببال من يسمع عن شدة عذاب الكافرين أن لهم أعمالا تنفع وقربات
تنفع في تخفيف هذه الشدة عنهم . (٢) ولكن هيهات هيهات فأعمالهم التي
كانوا يأملون نفعها وشفاعتها أصبحت :

كَرَّمَاكِ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ
... ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوُ الْبَعِيدُ

يقول الزمخشري * شبهها في حبوطها وذهابها هباء منثورا
لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجه برمان طيرته
الرياح العاصف * . (٣)

-
- (١) أبو السعود ٠٤٠/٥ . بتصريف
(٢) انظر التحرير والتنوير ٠٢١٢/١٣
(٣) الكشاف ٠٣٧٢/٢

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ
اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ
وَذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ①

ركزت صورة التشييل هنا على بيان عدم النفع
لأعمال الكافرين وأنها تذهب يوم القيامة بدهاء بحيث لا يمكن
استدراكها وأنى يستدرك الرماد الذى يمثل الفناء والعدم، وإعادته
من جديد إلى ما كان عليه بعث للحياة بعد موت وهذا ما لا يقدر عليه
إلا الله سبحانه وتعالى لذلك تكون حسرتهم أشد ولاءهم أنكى
والمثل يستعار للصفة التي فيها غرابة. ②

(١) إبراهيم / ١٨

(٢) الكشاف ٢ / ٣٧٢

أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن أن أعمالهم كرماد اشتدت به الريح . (١)
ثم تأمل كيف جمع بين الذين كفروا وأعمالهم حيث شلمهم هذا

الوصف :

كِرْمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

ولعل السر البلاغي وراء ذلك أن الانسان وعمله متحدان لا ينفصلان فإن
كان عمله رمادا فهو أيضا كالرماد لا وزن له وإن كان عمله سرايا فكذلك
هو لا ذكر له يخلد به :

* ولا نقيم لهم يوم القيامة وزنا *

ولو قيل مثل أعمال الذين كفروا كرماد اشتدت به الريح لانطفأ

هذا المعنى .

كما أن وراء هذا الجمع :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ

إشارة إلى أن كفرهم بربهم هو الذى تسبب في محق أعمالهم والعصف

بها .

ثم وازن بين قوله تعالى في سورة النور * والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة *
وقوله في سورة إبراهيم * ومثل الذين كفروا يربهم أعمالهم كرماد * وكيف قيد في
سورة إبراهيم كفرهم (برهم) والذي تتجلى ربوبيته في
سياق السورة الكريمة ، وتتألق شمسها ساطعة مشرقة ، يقول تعالى :

الرَّكِبِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①

ويقول : فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ②

ثم يعظم تجليها في دعوة إبراهيم عليه السلام التي ترتفع لتقر الربوبية
وتحطم الأصنام .

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ③

رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ (٤)

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادِعَ خَيْزُرٍ ذِي زَرْعٍ (٥)

-
- | | |
|-----|---------------|
| (١) | إبراهيم / ٠١ |
| (٢) | إبراهيم / ٠١٣ |
| (٣) | إبراهيم / ٠٣٥ |
| (٤) | إبراهيم / ٠٣٦ |
| (٥) | إبراهيم / ٠٣٧ |

(١) رَبَّنَا لِيُفِيئُوا الصَّلَاةَ

(٢) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ

وكانها إيقاعات متواليات تقرهم بتحقيق الربوبية التي جحدوا

بها وكفروها . قال تعالى :

(٣) أَعْمَلَهُمْ كَرَامٍ أَشْتَدَّ بِهِ الرِّيحُ

كرام - تأمل كيف أوماً بالرماد إلى عملية الاحتراق لأن

الرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء . (٤)

ثم تأمل ما وراء ذلك من السحق والإهانة والذلة لهم—و—لا

الكافرين .

وفي تنكيره ما يوحي بكبرته وأنه رماد عظيم مكسد من ما يدل

على كثرة ما حرق ووراء ذلك كثرة أعمالهم الخبيثة الفاسدة العينية على غير

أساس من إيمان بالله وابتغاء وجهه .

ثم تأمل تلك الحسرة البالغة حين يصبح ما كان يعجب به

الكافرو يباهي في أحلك ساعاته وأعسرها رماداً . و (شد) الشين والبدال

(١) إبراهيم / ٣٧ .

(٢) إبراهيم / ٣٨ .

(٣) إبراهيم / ١٨ .

(٤) القرطبي ٩ / ٣٥٣ .

أصل واحد يدل على قوة في الشيء وفروعه ترجع إليه من ذلك شددت
المعقد شداً أشده . (١)

”وَشَدَّ فُلَانٌ وَأَشْتَدَّ إِذَا أَسْرَعَ“ . (٢)

لذلك جوز العلماء هذين المعنيين فقالوا أن الباء هنا للتعديدية
أولاً للملايسة فهي إما بمعنى حملته وأسرت به أو بمعنى قويت بملايسه
حملة . (٣)

تأمل هذا وكيف تقوى الريح بحمل هذا الواهي المهيمن الذي
لا وزن له وما وراء ذلك من شدة العصف وما وراء شدة العصف من غضب
وشدة عذاب .

ثم تأمل الفرق بين قولنا اشتدت به واشتدت عليه فقد تشتد
عليه وهو ثابت لا يتبدل .

(١) المقاييس من (شد) .

(٢) الراغب من (شد) .

(٣) انظر أبو السعود ٤٦/٥ ، وروح المعاني ١٣ / ٢٠٤ .

ثم تأمل كيف تتسع دائرة هذا العصف لتشمل اليوم كله
وذلك حينما أوقع التعبير القرآني الجليل العصف صفة لليوم ففسال
أَشْتَدَّنْ بِهَ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ وَالْعَصْفُ وَصْفُ الرِّيحِ وَلَكِنْ انْتِقَالَ
هذه الصفة إلى اليوم في تراق بديع وإسناد مجازي يجعل الزمن كله
و كأنه عاصف. (١)

ثم تأمل كيف بين عزوجل الغرض من التشبيه وهو أنهم لا يقدر
على شيء ما كسبوا، وكيف يؤكدهم عدم قدرتهم على الانتفاع بما كسبوا كما لا
يقدر أحد على الإمساك بهذا الرماد والذي اشتدت به الريح في يوم
عاصف.

فضلا عن إعادته إلى ماهيته قبل الاحتراق أي خلقه من جديد
فأى ضلال أبعد من ذلك .

وهكذا تأتي جملة :

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ

تذييلا جامعا لخلاصة حالهم. (٢)

(١) انظر الكشاف ٣٧٢/٢ البحر المحيط ٤١٥/٥، الرازي ١٠٧/١٩

(٢) التحرير والتنوير ٢١٧/١٣

” والمراد بالبعد ضد القرب (الضَّلَالُ البَعِيدُ) أي

الضلال الذي يَصْعَبُ الرَّجُوعُ منه إلى الهدى تشبيهاً بَمَنْ ضَلَّ عَنْ

مَحَجَّةِ الطَّرِيقِ بَعْدًا مَتْنَاهِيًا فَلَا يَكَادُ يَرْجُو لَهُ العُودُ إِلَيْهَا ” (١)

ثم تأمل التناسب البديع بين الضلال البعيد والرماد الذي طيرته

الرياح العاصف بعينها ، والمراد : هو تشبيه أعمال الكافرين/حبوطها

ونهبها هباءً منثوراً لأنها غير مبنية على أساس صحيح من الإيمان

بالله والعمل مخلصاً لوجهه الكريم برمان طيرته الرياح العاصف فذهب

بهدا ولم يبق له أثر. (٢)

ثم تأمل العناصر التي كونت أسلوب التشبيه من الرماد والرياح

الشديدة واليوم العاصف وكيف تنافرت تنافراً شديداً وتضادت لتعبر

بتناقرها وتضادها عن تدرج تلك الأعمال هباءً منثوراً وكيف بنيت

عناصر التشبيه ومواده على المبالغة والجزالة والقوة التي تتناسب مع

شدة الموقف وهوله .

فقوله (اشتدت) فيها من الجزالة والقوة ما يتلاءم مع قسوة

العصف وقوة الرياح .

(١) الراغب مادة (بعد) .

(٢) انظر الكشف ٢ / ٣٧٢ .

وفي تنكير(رماد) ما يوحي بالكثرة الكاثرة من الرماد التي تناهت
وعظمت ما يزيد الموقف والمشهد إثارة وحدة ويوحى بالهلاك والغناء والضياع .
وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة .

ثم تأمل هذا التناسق والتناسب العجيب بين هذا المشهد
المكفهر الذي يكاد يفص فيه الإنسان فلا يبتلع هواء ممزوجا برماد ولا
يطبق فتح عينيه أو التنفس في هذا المحيط الهائج حوله وكيف يتلاءم
هذا مع العذاب الشديد الذي يحاط بالكافر في جهنم يتجرعه ولا يكاد
يستسيغه و تفص به حلوقهم والموت محاط بهم من كل جانب .

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ
كَسْرَابٍ يَفِيغُ بِحِسْبِهِ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ
يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٤٣﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَلَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٤﴾

من أسرار المناسبة :

على هذا النور الرباني المتجلي في الأحكام والآداب والفضائل
الإنسانية التي تزخر بها سورة النور يقوم المجتمع المؤمن من الظاهر
الغضيفي البصر الحافظ الفرج الصادق اللسان الحسن الظن المحصنات
نساءه المعففات الطاهرات أزواجه المستضيئون أفرادهم بنور التشريع
الإلهي في كل جانب من جوانب حياتهم الفردية والجماعية فهو نور على نور
نور فطرته ونور منهجه وما بقا ذلك النور واستمراره وتضاعفه إلا لصلتهم
بمصدر النور وترددهم عليه بالغدو والآصال :

قِي يُؤْتِي أَعْيُنَ النَّاسِ نُورًا وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِيهَا نُورًا

فعل على أي شيء تقوم أعمال الكافرين الذين كفروا هذا النور وحالوا بينه
وبين قلوبهم ، على أي شيء تقوم أعمالهم وإن حسنت ظاهرا وهم لا نور
لهم من منهج يحتكمون إليه أو تشريع يضبطهم أو فضائل تقومهم وتزكيتهم ؟
إن القلب الذي لا ينفذ إليه النور الذي ملأ السموات والأرض
قلب قد ران عليه الكفر ومن ثم فأى عمل يصدر عنه فهي أعمال ضالة حابطة
لا نفع لها مهما عظمت وحسنت في أعينهم لأنها لا أساس لها من إيمان
بالله واليوم الآخر .

ثم تأمل كيف وازنت الآيات بين دلائل الوحدةانية والإيمان التي
بلغت الغاية في الظهور، والبيان مع أديان الكفرة وأعمالهم، والتي هي
في نهاية الظلمة والخفاء، وبالمقارنة بين المشلين يتضح الحق لدى عينين.
ولهذا سأقصف أمام هذا المثل بشي* من التحليل والتفصيل حتى يتبين
والتقابل
لنا التناسب البديع بين تركيب هذا المثل ومثل الذين كفروا و تتضح
المعاني .

قال تعالى : **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِ كَمَشْكُوفٍ**
فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ
يُوْقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

ففي هذا المثل البديع يمثل سبحانه لنوره في قلب عبده المؤمن من
يكوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وقد وضع فيها سراج ثابت
سماطع وأتى التمثيل على هذه الصورة لتقريبها ومشولها في الحس والتصور
ولكونها أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة وإلا فإن نور الله أعظم.

ثم انه سبحانه لما ضرب مثلا لقلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم
كالقنديل ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله فسي
الأرض ، وهي بيوت التي يعبد فيها ووحيد . (١)
فيزيد ذلك من تلاتها وبهاؤها وشدة إنارتها . فله ما
أضوأ هذه القلوب النيرة في بيوت الله الضيقة لأهل السماء إضاءة
النجوم لأهل الأرض . .

(١) انظر ابن كثير ٣ / ٢٩٥ .

ثم تأمل وتابع هذا المدد الرباني والزيد الإيماني بالغدو
والآصال لهذه القلوب التي لا تغتر عن تسبيح الله وعن تنزيه الله فأنتس
لقلوب كهذه أن تلهيها تجارة مهما عظمت أو بيع عن ذكر الله .

إنه التثبيت الذي يحرص عليه :

رِبَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ①

فيكون خوفهم هذا سببا للجزاء على أعمالهم بأحسن الجزاء

وللزيادة فوق ذلك من واسع فضله بدون حد ولا عد .

يُزِيدُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ

وفي مقابل ذلك النور الذي أشرقت له الظلمات وملا الأرض

والسموات ، وغمر قلوب العابدين فأضيئت به بيوت الله تجد سرايا واهما
وظمنا حارقا وظلاما داسا ، وخوفا مرعبا وضلالا وغيا وظلمات بعضها فوق

بعض تحول دون أن ينفذ هذا النور إلى قلوب الذين كفروا .

وهذه طريقة القرآن البديعة في المقابلة بين المعاني الغريبة

حتى تأنس بها النفوس وتقر في القلوب .

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ يَافِعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ
حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٥ أَوْ ظَلَمْنِي فِي بَحْرٍ لَمَّ يَغْتَشِدُ عَمُوجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ عَمُوجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكْدِبرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ٥

وقد ذكر أهل العلم رضي الله عنهم في أسرار المناسبة وجوها نستضي بها

في فهم آيات التمثيل ولطائفه .

قال صاحب الكشاف : " شبه أعمالهم أولا في فوات نفعها

وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من يغيد شيئا ولم يكفه خيبة

وكمدا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله

إلى النار ولا يقتل ظمأه بالماء، وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها

باطله وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والامواج
والسحاب . (١)

وقال الرازي : " لما بين حال المؤمن وأنه في الدنيا يكون في

النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم من أنه في الآخرة يكون
فائزا بالنعيم المقيم والشواب العظيم أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون
في الآخرة في أشد الخسران وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات وضرب
لكل واحد منهما مثلا . (٢)

فقال الطبري : " ظنوا أن أعمالهم صالحة وأنهم سيرجمون

ننها إلى خير فلم يرجعوا منها إلا كما رجع صاحب السراب فهذا مثل
ضربه الله . . ومثل أعمال هؤلاء الكفار في أنها عملت على خطأ وفساد
وضلاله وحيرة من عملها فيها وعلى غير هدى مثل ظلمات في بحر
لجبي . (٣)

-
- (١) الكشاف، ٣، ٧٠ .
(٢) الفخر الرازي ٢٤٠/٢ .
(٣) الطبري، ٨// ١١٥ - ١١٦ .

وقال صاحب التحرير والتنوير : * لما جرى ذكر أعمال المتقين

من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى :

يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ

إلى قوله :

لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ

أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند
الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئا على عادة القرآن في إرداف البشارة
بالنذارة فعطف حال أعمال الكافرين عطف القصة من القصة * (١)

من أسرار اللغة والنظم:

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْحٍ يُحْسِبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قُوْفَةً
حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ

(١)

يقول الرماني في تعليقه على هذا التمثيل : " فهذا بيان قد أخرج
ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمعا في بطلان التوهم مع
شدة الحاجة وعظم الفاقة " . (٢)

تأمل دقة إحاطته بوجه الشبه ، وهي عبارة لوجازتها ودقتها
وسدادها ، غلبت عقول القوم فكرروها في كتبهم . (٣)

ثم تأمل كيف نظر الرماني إلى المعنى ويميز جزئيه وبين أن أحـد
الجزئين يدرك بالعقل والآخر يدرك بالحس وأن هذا الارتقاء من المعقول
إلى المحسوس فيه توضيح أشد وإظهار أظهر وأمكن ثم استخلص الرماني
من التشبيه قصة ذى وهم دفعت شدة الحاجة وعظم الفاقة إلى أن يوغل في
وهمه حتى تجسم له الباطل وكل ما تراه له من وهم في صورة سراب ببيعة
يراه حقيقة ويظنه أملاً نافعا متحققا ثم لا يلبث أن يكدر ويلهث^{فرا} هذا الوهم
حتى يسقط في يديه .

- (١) النور / آية ٣٩ .
(٢) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز
القرآن ص ٨٢ .
(٣) انظر الإعجاز البلاغي ، د / محمد محمد أبو موسى ص ٨٦ .

ثم تأمل كيف بدأ التمثيل بقوله : **وَالَّذِينَ كَفَرُوا** . جملة مسندا إليه أولا ثم بنى عليه مسندا آخر وهو **أَعْمَالُهُمْ** . وكلاهما عنصر مقصود في التمثيل .

يقول صا حب التحرير والتنوير : " ولم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤهم ، ليتقرر في النفس كمال التقرر ، وليظهر أن للذين كفروا حظا في التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة " . (١)

تأمل إلى هذه اللمحة الرائعة التي نبه إليها ابن عاشور حين أشار إلى أن للذين كفروا حظا في التمثيل .

وراء ذلك أن الآية الكريمة لم تفصل بين العمل وصاحبه بل صاغت صياغة واحدة لأن الإنسان هو عمله فيه ينفث طبعه وروحه وكل ما يختلج في نفسه ويعتصر في قلبه فإن كانت أعمالهم سرايا فلا أنهم هم أنفسهم أخذت منهم هواء خالية من كل حق وإن كانت أعمالهم ظلمات فلا أنهم هم أنفسهم كهف من كهوف هذه الظلمات لا ينفذ إليها نور الحق .

وإن كانت أعمالهم رماذا فلأنهم هم حياتهم رماذ إنى تتقطع
عيونهم وتزهق أرواحهم ولا يبقى لهم ذكر طيب طاهر . كل هذه المعاني
وغيرها يمكن أن نستوحىها من قول ابن عاشور (إن للذين كهروا حظا في
التشيل) .

وفي التعبير بالموصلية **وَالَّذِينَ كَفَرُوا** إيما إلى هذه الحالة
التي حجبت عن قلوبهم ذلك النور الذى ملأ السموات والأرض والتي كانت
سببا في نيلهم هذا الجزاء .

أعمالهم : (**الْعَمَلُ يَسْتَعْمَلُ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالسَّيِّئَةِ**) (١)

كسراب : (**وَالسَّرَابُ الْإِلَامُ فِي الْمَفَاذِ كَالْمَاءِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا نَسْرَابَهُ**

فِي مَرَأَى الْعَيْنِ وَكَأَنَّ السَّرَابَ فِيمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ) . (٢)

بقيعة : **" الْقَيْعُ وَالْقَاعُ السُّتَوَى مِنَ الْأَرْضِ جَمْعُهُ قَيْعَانٌ**

وَتَصَغِيرُهُ قُوَيْعٌ " . (٣)

تأمل هذا وكيف مثلت أعمالهم بسراب عظيم شديد اللعان

سحر أبصارهم وخيل إليهم أنه ماء يجرى وينساب .

(١) الراغب مادة (عمل) .

(٢) الراغب مادة (سرب) .

(٣) الراغب مادة (قيع) وانظر الكشاف ٦٩/٣ .

ثم تأمل شدة هذا الوهم الذي غلب عليهم وسحر أيضا رهم ،
وما يوءد أنه وهم لا حقيقة له قوله تعالى : **كَسْرَابٍ بِقَعَةٍ** ،
والقعدة: الأرض المنبسطة المستوية التي لا يتوهم فيها أن تسك الماء أو
تثبت الكلاء* .

لقوله عليه الصلاة والسلام : (**إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تَسِيكُ مَاءً وَلَا**
تُنْبِتُ كَلَاءً) (١) الحديث

وفيه إشارة إلى قلوب المبطلين، وهو مثل ضربه عليه الصلاة والسلام
لمن لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسل به .
وما يدل على مبلغ وهمهم أنه سراب في وضح النهار وعند
اشتداد الضوء أى حين لا تخفى حقيقته ولا يلتبس أمره ولا مجال للوهم
ثم تأمل كيف يتعاقد هذا الوهم ويتضاعف ويقوى بترادف هذه الصفات
والقيود التي تزيد من حدته وقوته .

فهو سراب بقعدة (يحسبه الظمان ماء) .

ومن معاني حسب : (العدد ، تقول حسبت الشيء أحسبه

حسبا وحسابنا قال الله تعالى **الشمس والقمر بحسبان** (٢) ،

(١) مختصر صحيح البخارى للإمام زين الدين أحمد الزبيدى الحديث رقم ٧٠
ص ٤٠ .

(٢) سورة الرحمن / آية ٥٠ .

ومن قياس الباب الحِسانُ الظنُّ ، والمعنى واحد لأنه إذا قال حسبته
كذا فكانه قال هو في الذي أعدّه من الأمور الكائنة . . . ومن الباب الحَسْبُ
الذي يعدُّ من الإنسان (٢) .

(وفلان لا حَسَبَ له ولا نَسَبَ وهو ما يحسبه ويعدُّه من مفاخر
آبائه وفلان لا يحسبُ به أي لا يعدُّ به) (٢) .

والتأمل لهذه المادة وما تدور حوله ، يدرك قول علمائنا
(رضي الله عنهم) حين قالوا : إن المراد بأعمالهم (التي هي من أبواب
البر كصلة الرحم ووك العناة ، وسقاية الحاج وصمارة البيت وإغاثة الملهوفين
وقرى الأضياف ، ونحو ذلك ما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب) (٣) .
فهي أعمالهم (التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ، ويفتخرون
بها في كل واد وواد) (٤) .

لذلك أبطل سبحانه حسابهم حين قال :

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (٥)

-
- (١) المقاييس مادة (حسب) .
(٢) الأساس للزمخشري مادة (حسب) .
(٣) أبو السعود ١٨ / ٦ وانظر روح المعاني ١٨ / ١٨
وانظر الزمخشري ٣٧٢ / ٢ .
(٤) روح المعاني ١٨٢ / ٢٨ .
(٥) سورة التوبة / آية ١٦ .

وربما يوء كد هذا الوجه اللامع الحسن الذى يشبه الماء وهو
لا حقيقة له منظر هذه الأعمال الحسنة النافعة للناس، وهي لا أساس
لها من إيمان بالله واليوم الآخر.

ثم تأمل كيف يبلغ الوهم الغاية في الظهور، ويقوى الحسابان
ويتأكد في عيني ظمان، بلغ به العطش أشده ومنتهاه +
وهذا ما أحس به الرماني واتقد في قلبه، فأدركه واستطعمه
حين قال : (ولو قيل: يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف
ما قدر لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمان أشد حرماً عليه
وتعلق قلبه به) . (١)

تأمل شدة ظمئه، وحرارة جوفه المتقدة، وحرقة نفسه المتعاسة
إلى ما يبرد غليلها، ويطفى لهيبها، وهو في هذه الصحراء الجرداء القاحلة،
وكيف تنعكس هذه الرغبة الجامحة، والتوق الحارق، على هذا السراب والوهم
فيراه (ماء) عظيماً وفيها سائغا للشاربين، وفي ذلك إشارة إلى خداع
النفس بعد خداع البصر .
والنفس لا تخدع إلا عند غياب العقل، والعقل لا يغيب إلا عند
غلبة الشهوة وطفيانها واستبدادها .

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز
القرآن ص ٨٢ .

قال تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ** (١)

ثم تأمل كيف طوت (حتى) هذه الرحلة الشاقة، والمعاناة الطويلة التي لجهده فيها الظماً، وحفزه اليها الأمل - فأشار إلى نهاية هذه الرحلة ولوغ الغاية وأى غاية .. " تلك الغاية التي أحالتها " إذا " من الخبر إلى تحقق الوقوع ، حين ربطت العدم بالسعي، وجعلته جواباً ونهاية له ، فأحكمت من أسر الكلام ، وشدته تلاحمه ، ودقة سبكه وعقدت آخره على أوله ، وجعلت بعضه أخذاً يحجز بعض .

ولو قيل **حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْمَوْتُ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ** ، لانحلت عقدة الكلام ،

وانطفأ وهجه ، وفي ذلك إيحاء إلى بلوغه غاية الضعف والعجز ، والتهاك ، وشدته التخازل ، والإعياء ، حتى لم يبق فيه بقية من قوى ، ثم في تلك اللحظات الحالكه لم يجده شيئاً . (٢)

ثم تأمل كلمة (شيئاً) والتي جعلته عدماً مطلقاً ليزيد من تحرقه ولوعته وهذه الهاء في (يجده) والتي نصت على الأمل المنشود، وصيرته عدماً لتتهيء الكلام بعد ذلك لظهور الحق الذي لا مرية فيه ، ولا وهم

يعتريه وهو قوله **وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ** (٣)

(١) النور / آية ٣٩ .

(٢) الإعجاز البلاغي ص ١٠٣ (بتصرف) .

(٣) المصدر السابق .

والأصل وجد عذاب الله وجزاءه ، ولكن التعبير أفاد أنه وجد
ذا الجلال سبحانه ، وفي ذلك من الرهبة ما فيه ، وخاصة أن هذا الكافر ينكر
وجود الله ، ثم انظر إلى هذه الفاء (فوفاه حسابه) وما تشير إليه من
سرعة الكفح ونزول العذاب ، ثم انظر إلى إسناد التوفية إلى ضمير
ذي الجلال (الله) وهو الذي يتولى تعذيبه بنفسه ، وفيه من الدلالة
على شدة الغضب ما فيه ، ثم تأمل كلمة (حسابه) وفيها من الإنصاف ما
فيها ، وكل ما أشار إليه الكلام من الرهبة وسرعة المكافحة بالعذاب وشدة
الغضب ليس فيه مجاوزة ، وإنما هو بحساب دقيق . (١)

(٢) *وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ*

وهكذا الكفر يحق كل عمل وإن كان من باب الخير والإحسان لأن
كل عمل لا يزيه الإيمان فهو أشبه بالسراب .

(١) الإعجاز البلاغي ص ١٠٣ (بتصرف) .

(٢) النور / آية ٣٩ .

أَوْ كَظَلَمَاتٍ فِي مَجْرَبِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكِدِ يَرَهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ④

وقد ذكر أهل العلم لـ "أو" وجوها فقالوا :

إنها إذا جاءت في عطف التشبيهات تدل على تخيير

السامع أن يشبه بما قبلها وما بعدها . (٢)

فهي كسراب بقيقة في كونها لاغية مضحكة لا منفعة لها ولا شرة

ترجى منها .

أو كظلمات في غلوها من نور الحق وحيلولتها بين القلب وبين ما

يهتدى إليه . (٣)

أو للتنوع ، وذلك بالنظر إلى أعمالهم الحسنة التي يعتمدون عليها

ويعتمدون بها ويفتخرون وما هو إلا حسن ظاهر كسراب أو أعمالهم القبيحة

من الاعتقادات الباطلة والأعمال الفاسدة التي ليس فيها شائبة خيرية يفتر

بها المغترون فهي كالظلمات . (٤) أو للتقسيم فهي كالسراب في الآخرة

لقوله تعالى **وَوَجَدَ اللَّهُ** .

(١) النور/ آية ٤٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٨ / ٢٥٤ .

• وانظر الفخر الرازي ٨ / ٢٤ وحاشية الشهاب ٦ / ٣٨٩ .

(٣) انظر الكشاف ٣ / ٧٠ .

(٤) انظر (أبو السعود) ٦ / ١٨١ .

وكالظلمات في الدنيا لقوله تعالى :

(١)

وَمَنْ أَعْمَرَ لِلدَّيْنِ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مِنْ نُورٍ

والتأمل لهذه الوجوه لا يجد بينها تضارب بل في ذلك إثراء للمعنى وتكثير للفائدة ، ويمكن أن نقول أنه سبحانه لما ذكر حال المؤمن من وآله ، ذكر حال الكافر وخسارته وضرب لذلك مثلين :

الأول : لعمله الظاهر الحسن ، الذي يظن فيه النفع بالسراب الخادع الذي يظن فيه الحياة والبقاء ، ثم ما آل إليه حاله من الخيبة ، واضمحلال العمل عند شدة حاجته ، وعظم فاقتة ، فهو مطمع مطمع يعقبه مقطع مؤيس .

والمثل الثاني - لأعماله الباطلة الفاسدة الخالية من نور الحق ،

وكيف تنطبع آثارها على قلبه وتلبس به .

فهي أعماله التي حجبت في الدنيا عن رؤية طريق الحق ،

وذلك لشدة ظلمتها وتغشيتها للقلوب .

ثم تأمل وتابع معاني التمثيل فجلال نظمه ، وبديع معناه

في أن ينقلك من هذه الصحراء القاحلة ، والسراب الواهم ، والمظأ الحارق ، والكد

والمعاناة ، والهول الرهيب ، وكل ما تشل وترآى من وهم في وضج النهار

وشدة الضوء إلى محيط ينطفيء فيه ذلك الوهج المتألق ، ويتلاشى معه

ذلك السراب الخادع ، فيبتلع خيالك ظلامه ووحشته ، ويكاد يحاط

بأنفاسك ، وأنت تدافع ظلمات عجيبة . الصفة ، شديدة الظلمة ، تخرج

عن المعتاد والمألوف من ظلمة الناس ، فجمع الكثرة فيها يوحي بشدة

ظلمتها وتراكبها وتراكبها ، فهي ظلمات كثيرة أو عظيمة بعضها فوق بعض . (٢)

(١) انظر الفخر الرازي ٨/٢٤ .

(٢) انظر البحر المحيط ٤٦٢/٦ .

ثم تأمل شدة هذه الظلمات في قلب لا يدرك له قرار، تمور
وتتردد في حركة دائية، لا تعرف السكينة .
ثم تأمل كيف يتضاعف المعنى، ويتكاثف، بترادف هذه الصفات
والقيود ، ولا أحوال التي تزيد المعنى وفرة، وغزارة وشرا .
فهي ظلمات في بحر لحي ، يفشاه موج من فوقه موج من فوقه
سحاب ، وقوله ^{رررررررررررر} يخشى موج أي يغطي ذلك البحر ويستره بالكليسة
موج عظيم، هائل في حركة دائية متجددة لا تنقطع .
تأمل هذا الموج المضطرب ، وكلما عظم عظمت حركته، واضطرابه
وكيف أسدل على هذه الظلمات أغشية ، ضاعفت من شدة ظلمتها .
وكيف تتعاقب هذه الأمواج ، وتتلاطم ، وتتعالى ، ويركب بعضها
بعض ، فتتضاعف شدة الظلمات، وتقوى ، وتحقق في النفس أنها ظلمات لا
بصيص فيها من نور ، إذ يجمد كل البعد أن ينفذ فيها بصر . (١)
(والبحر اللحي يكون قعره مظلمًا جدًا ، بسبب غمورة الماء ،
فإذا ترادفت عليه الأمواج ، ازدادت الظلمة فإذا كان فوق الأمواج سحاب ،
(٢)
بلغت الظلمة النهاية القصوى ، فالواقع فيه يكون في نهاية شدة الظلمة) .
فقوله تعالى (من فوقه سحاب) فيه إيحاء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها
حتى كأنها بلغت السحاب . (٣)

(١) انظر نظم الدرر ١٣ / ٢٨٠ .

(٢) الفخر الرازي ٨ / ٢٤ .

(٣) انظر روح المعاني ١٨ / ١٨٣ .

تأمل هذه الحركة التخيلية الرائعة، التي يتابع فيها الخيال والفكر تلك الأغشية ، يتجدد حدوثها ، ويتوالى أسدالها ، في تتابع بديع ، وتناسق عجيب ، حتى كأنها تبلغ في تراكمها عنان السماء .
ثم تذوق هذا التلاحم ، والتراحم ، والتهاج . بين عناصر التشكيل وكيف تتشارب معانيه .

فقله (سحاب) ليس المراد به سحاب مطر ورحمة ، بل هوسحاب مظلم حجب مصدر الضوء الخارجي ، فبلغت الظلمات غايتها في كمال شدة الظلمة . (١)

قال تعالى :

ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ

ولحذف حرف الجر هنا - فلم يقل (ظلمات بعضها من فوق بعض) -
موقع دقيق أفاد شدة تراكم الأمواج حتى استغرقت الجهة التي ينفذ منها الضوء ، فحالت كافتها وشدة ظلمتها دون ذلك .
والمراد (بظلمات) هنا غير المراد بها في قوله "أو كظلمات" ،
ها هنا جمع أنواع ، وهنالك جمع أفراد من نوع واحد . (٢)

فهي ظلمات من البحر والأمواج والسحاب .
ووراء ذلك توزع قلبه ولوغه غاية الضعف والحيرة والتخبط والتردد والتمزق والاضطراب .
وهو يصارع هذه الظلمات المترابطة المتنوعة التي تناوشه من كل جانب .

(١) انظر (أبو السعود) ٦ / ١٨١ .

(٢) التحرير والتنوير ١٨ / ٢٥٦ .

ثم تأمل كيف يؤكّد شدة هذه الظلمة يقول تعالى :

إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْتُمِبْهَا

وكيف خصّ الإخراج باليد لأنّ اليد هي أصل الجوارح التي

يَتَوَلَّى بِهَا الْفِعْلُ (١).

(٢) (وهي أقرب ما يرى إليه).

(٣) (وذلك لمن ابتلى بهذه الظلمات)

وقوله تعالى * لم يكد يراها *

لم يكد (يقتضي بحسب الوضع نفي مدلول كاد ، فإن مدلولها

المقاربة ، ونفي مقابرة الفعل يقتضي عدم وقوعه بالأولى) (٤).

أى (فانه لشدة الظلمة لا يمكنه رؤية يده التي كانت نصب

عينه) (٥).

ووراء ذلك أن عمله عدم لا وجود له ، لأنّ العدم كله ظلمة وهو

لا يرى إلا ظلاما دامسا ، فالعمل الذي يبني على هذه الظلمات ، ويخرج

فيها لا يقرب أن يكون له وجود أو أهلية فضلا عن أن يكون له (٦).

وفي هذه إشارة إلى أن الحامل لهم على رؤية السراب ماء أو

على تخيل ذلك الوهم وظنهم النفع فيه هو عدم رؤيتهم الداخلية

بسبب هذه الظلمات (٧).

(١) انظر الراغب مادة (يد) .

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣٩٠/٣ .

(٣) انظر (أبو السعود) ١٨٢/٦ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٥٥٧/١ .

(٥) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣٩٠/٣ .

(٦) نظم الدرر ٢٨٧/١٣ .

(٧) انظر المصدر السابق .

لأن (قيام الأمور وظهورها كل ظهور إنما هو بالنور) (١)

(٢)

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ

تذييل بديع للتشيل جي* به لتقرير ما أفاده التشيل من كون

أعمال الكفار لا حقيقة لها ولا وجود ، وإنما هي سراب أو ظلمات . (٣)

ويقول الفراء : هذا مثل القلب الكافر أي إنه لا يعقل ولا

(٤)

يبصر

ثم تأمل العناصر التي كونت أسدوب التشبيه هنا .

وهي السراب والقيمة والظمان وما بينها من التجاذب والتقارب

الشديد الذي يوءد كد الوهم ويضاعفه ويزيد الحاجة ويلهبها أي يقوى المعنى

المراد تقويته وتأكيده وهي شدة الحاجة لتعظم الفاقة .

تأمل كيف تعلق الظامي* بذلك السراب ويجذبه إليه وسعى

إليه سعيا حثيثا لا هشا مجهدا - وما وراء ذلك من قوة الشد والجذب

والإغراء والوهم .

كما نلح هذا التجاذب الشديد والتقارب العجيب والتناسق

بين عناصر التشيل الآخر للظلمات والبحر اللجي والموج الذي يخشاه موج

والسحاب المظلم واليد التي لا ترى في تلك الظلمة .

وكيف يوءد كد هذه العناصر كثافة الظلمة وعمقها وغورها وتضاعفها

وتراكبها . . وهكذا .

وفي هذا المثل الكريم جانب آخر من جوانب الإعجاز في القرآن

العظيم ألا وهو الإعجاز العلمي الذي شغل به علماء عصرنا لأنه الوجه

(١) المصدر السابق . (٢) سورة النور / آية ٤٠ .

(٣) روح المعاني ١٨ / ١٨١ .

(٤) معاني القرآن : للفراء ٢٥٥ / ٢٥٥ .

الذي فتن به علماء الغرب فلا عجب أن نبين لهم إعجاز القرآن
من هذا الجانب الذي فتنوا به والذي يعتقدون أنهم لم يُسبقوا إليه وسنذكره
هنا لأنه يوقفنا على فقه المثل فلا تعارض بين حقائق العلم وحقائق اللغة
والبيان .

فالحقائق التي توصل إليها العلم والتي هي/القرآن على الوجه الذي
يعملو ولا يعملون أن شمة أمواج سحيقة تعورني الأعماق المظلمة وتضطرب
وهي غير الأمواج السطحية التي نعرفها وأن هذا النوع من الأمواج كبير
جدا ولا يسود إلا في البحار المظلمة مثل المحيطات وهذه المناطسق
المظلمة هي التي يستحيل وصول ضوء الشمس إليها لعمقها الشديد وتراكم
طبقات المياه الكثيفة وقيام الطبقة السطحية من المحيط بإعكاس ضوء الشمس
فكيف إن كانت فوق هذه الأمواج سماء ملبدة بالغيوم والسحب التي
تحجب الضوء فإن الظلمة تبلغ حدا لا يطاق .

يقول العلم لذلك خلق الخالق عز وجل أنواع الأسماك هناك بلا
عيون لأنها لا تستخدمها في الرؤية وإنما يسر لها الله سبحانه وتعالى
سبل حياتها في هذه الظلمات ، فهذه الظلمات العجيبة المفسدة
لا توجد في بحار الدنيا كلها وإنما تختص بهذا البحر اللجي العميق . (١)

(١) انظر الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن د/ عبد العليم عيد
الرحمن خضر ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

قال تعالى :

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ
أَوْ نُنزِلَ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْٓ اَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا
كِبٰرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرٰى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُوْرًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا اِلٰى مَا عَمِلُوْا مِنْ عَمَلٍ
بِجَعَلْنٰهُ هَبٰءً مَّنْثُوْرًا ﴿٢٣﴾

من أسرار المناسبة :

يتحدث سبحانه وتعالى في الآيات السابقة للمثل عن الذين

لا يرجون لقاء الله والذين تجاوزوا الحد في الظلم والكفر :

(لقد استكبروا في أنفسهم وعتوتوا كبيرا)

"والعتو النبو عن الطاعة يقال عتا يعتو عتوا وعتيا وهي حالة

لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها" (١).

ثم يقول الله تعالى :

(يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا)

معنى الحجر المحجور " أن الرجل كان إذا لقي من يخاف يقول

حجرا محجورا فذكر الله تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك

ظنا أن ذلك ينفعهم .

قال تعالى :

(وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا)

أى منعاً لا سبيل إلى رفعه/وفلان في حجر فلان أى في منع منه عن

التصرف في ماله وكثير من أحواله" (٢).

(١) الراغب مادة (عتا) .

(٢) الراغب مادة (حجر) .

ثم يأتي المثل بعد ذلك :

(وقد منا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً)

فتأمل كيف شبه أعمالهم في الحقايرة وعدم النفع والجدوى بالهباء المنثور الذي لا يعبأ به ولا يمكن نظمه أو الاحاطة به وكيف يتلاءم هذا مع جو السياق الذي ورد فيه والذي تجاوز فيه الكافرون الحد في الطغيان حين طلبوا رؤية الله أو نزول الملائكة عليهم فلما نزلت عليهم وحلت بهم كرهوا لقاء هم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا ثم عمد سبحانه إلى أعمالهم فجعلها هباءً منثوراً. (١)

من أسرار اللغة والنظم :

الهباء " من هبأ القبار يهبو نار وسطع والهبوة كالغبرة والهباء

دُقاقُ التراب وما نبت في الهواء فلا يبذو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة. (٢)

والنثر " نثر الشيء نشره وتفريقه ". (٣)

(١) انظر (أبو السعود) ٢١٢/٦ .

(٢) الراغب مادة (هبأ) .

(٣) الراغب مادة (نثر) .

والتعبير بصيغة القُدم / يتناسب مع كونهم طلبوا رؤية الله
فأراهم ما يكرهون، ووراءه أنهم كانوا في غفلة شديدة وذلك حين غفلوا
عن رقابة الله لهم، الذي احتجب عنهم في الدنيا ليبتليهم ثم عاد
ليجازيهم.

وتأمل قدوم الملائكة عليهم وهم نور من نور وكيف تظهر أعمال
الكافرين في هذا المشهد الذي شع فيه نور الملائكة وقدم فيه أمر الله وما
وراءه " قدما " من التعظيم والإجلال والإكبار الذي يزيد الموقف شريفا
وهيبة وجلالا وكيف تبدد أعمال الكافرين في ضوء هذا الحق الذي
تجلى لهم عند الاحتضار أو يوم القيامة هباء منثورا فلا ينفعهم قولهم
حجرا محجورا .

وإذا ما عدنا إلى عناصر التشبيه وجدنا هذا التنافر بين مواده
فالهباء والنشوة كد تمزق هذه الأعمال وتبددها بحيث لا يترك لها
أثرا وهذا يتلاءم مع قوله :

سَكَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ

من حيث تنافر وتضاد عناصره ومواده ولكنها تختلف عنها من ناحية
رقتها ودقتها و كيف تتناسب مع السياق الذي شع فيه ذلك النور
الجليل .

ومع هيبة الموقف وجلاله التي تمثله كلمة (قدما) ، وكيف
ناسب أن تكون الأعمال بهذه الضائقة والذقة والحقارة أمام
بجلال المشهد والموقف .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين :

تدور المادة اللغوية أو العناصر التي بينت منها التشبيهات

لأعمال الكافرين : حول :

الرماد - الريح التي اشتدت به - اليوم العاصف -

سراب ببيعة - الظمان الممّوم - الظلمات - البحر المحي -

الأمواج التي تغشى البحر - السحاب المعتم - الهبّاء

المنثور .

وهذه العناصر وإن كانت يجمعها معنى عام وهو فناء أعمال الكافرين

وطاقتها وأنها لا حقيقة لها ولا منفعة فيها فهي لا غاية مضمحلة ، عند

شدة الحاجة إليها إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضاً ومعنى تتميز

به يتناسب مع السياق القرآني الذي وردت فيه .

فالتشيل الأول : وهو قوله تعالى :

كَرَّمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .

يهتم ببيان جملة أحوال ومشاعر منها :

١ - بيان معنى الهلاك والاحتراق لهذه الأعمال وعدم الانتفاع

بها يدل على ذلك كلمة رماد .

٢ - بيان أنها أعمال تناهت في الكثرة مما يزيد من شدة الحسرة

ينبيء عن ذلك تنكير كلمة (رماد) .

٣ - بيان تبدد أعمالهم وذهابها كل مذهب بحيث لم يبق لها
أثر يبين عن ذلك قوله تعالى :

* اشتدت به الريح *

وفيها تجسيد لشدة العذاب وراة شدة العصف .

٤ - بيان عجزهم عن استدراك ما فات ينبيء عن ذلك كلمة (رما د)
وقوله تعالى :

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ

وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البالغة .

٥ - أن زهاب الريح برما د أعمالهم وتبددها دلالة على بعدهم
في الضلالة يبين عن ذلك قوله تعالى :

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ

بينما يهتم التحليل الثاني في سور النور ببيان جملة أخرى من الأحوال
والمشاعر منها :

١ - بيان وهم الأمل المقصود الذي تعلق به الذين كفروا ورجوه
من هذه الأعمال يدل على ذلك كناية (سراب) وفيها تجسيد
للخداع والوهم والضياع .

٢ - بيان أن ظهور حقيقة هذا الأمل وأنه وهم إنما يكون عند شدة
حاجتهم إليه دل على ذلك كلمة (بقية وطمسآن)

٣ - بيان أن الذين كفروا سعوا سعيًا حسبيًا وراء هذا الأمل
الوهم الخادع دل على ذلك قوله تعالى :

* حتى إذا جاءه *

٤ - بيان أن الواقع كان على النقيض من المتوقع . دل على ذلك
قوله تعالى :

وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ قُوفَةً حِصَابًا

فأما التمثيل الثالث فإنه يركز على بيان :

١ - خلوا أعمالهم من نور الحق لكنها أعمال فاسدة باطلة لأنها
غير مبنية على إيمان بالله والعمل لوجهه الكريم يدل على
ذلك كاه كلمة (ظلمات) .

٢ - بيان أن تلك الظلمة انطبعت على قلوبهم فحالت بينها
وبين رؤية الحق . يدل على ذلك :

أَوْ ظَلَمْتَ فِي الْأَعْيُنِ

٣ - بيان أن ظلمة الأعمال في تضاعف وتزايد وانها ظلمات متراكبة
متراكمة تتردد في صدورهم . يدل على ذلك قوله تعالى :

بِأَنفُسِهِمْ مَوْجٌ مِّنْ قَوْفِهِمْ مَوْجٌ

٤ - بيان أنها أنواع من الأعمال الفاسدة كالاتقادات الباطلة
والفتن وزائل النفس وغير ذلك مما تموج به قلوب أهل الباطل .

يدل على ذلك
ظلماتها تتردد في صدورهم

٥ - بيان أن ظلمات أعمالهم بلغت السحاب فلا سماء تبصر ولا أرض

وأن ذلك مثال للرين والطبع على القلوب يدل على ذلك

قوله تعالى : **مَنْ تَوَلَّى سَفْهًا**

٦ - بيان أن قلب الكافر يصبح من كرة تلبسه بسظلمات أعماله

لا يعقل ولا يبصر يدل على ذلك قوله تعالى :

لِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَأُهَا

٧ - بيان أن أعمال الكفار لا حقيقة لها ولا وجود وإنما هي ظلمات

يدل على ذلك قوله تعالى :

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ

ويهم التشبيه الرابع ببيان :

١ - بيان ضالة أعمال الكافرين وحقارتها وأنها شيء لا يعبا به

ولا يلتفت إليه تشله كلمة هباء .

٢ - بيان تنافر أعمالهم وتمزقها كل ممزق بحيث لم يترك لها أثرا

تدل عليه كلمة (منشورا) .

وهكذا يتضح لنا أن كل تشبيه يهتم بإبراز معاني وأحوال وشاعر تتفق

مع السياق الذي ورد فيه .

١ - ففي سورة إبراهيم تجسد أن (الرماد) وهو ما يبقى

بعد احتراق الشيء يتلاءم مع جهنم .

وهذا الشهيد المكفهر الذى اشتدت به الريح في يوم عاصف فلا يكاد المرء يستسيغ يلع هواءه الممزوج برماد وفتح عينيه أو أذنيه / يتناسب مع العذاب الذى لا يستسيغه الكافر ولا يكاد ينحدر من حلقه .

فبين هذه العناصر من التلاؤم والتناسق ما ترى وكلها معاني

تدل على المحق والسحق و عدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك .

كما تتلاءم هذه العناصر من ناحية الجزالة والقوة والشدة

وتتألف موادها مع السياق الذى وردت فيه والذى يحوطه عذاب غليظ .

٢ - تأمل كيف اختتمت الآيات هنا بقوله تعالى :

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .

لأن المراد تأكيد محقق

هذه الأعمال وضياعها وتبديدها .

بينما جاء النظم في سورة البقرة لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا

لأن المراد تأكيد عدم قدرتهم على شيء وعجزهم عن إدراك

ثواب ما عملوا .

٣ - وهذا التشبيه وان كان يشترك مع قوله تعالى :

* وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا * من ناحية بيان

تبدد أعمال الكافرين وتمزقها بحيث لم يبق لها أثر إلا أن هذا التشبيه

الثاني يتميز عن الأول بدقة بعناصره وورقتها وليونتها لتمثل معنى الضالكة

والحقارة ثم التناثر والذهاب بها كل مذهب وأن هذا يتناسب مع السياق

الذى تنزلت فيه الملائكة وأتسى أمر الله يفشاء هذا الجلال والرهبة

والكبرياء فتناسب أن تكون أعمالهم مقابل ذلك في منتهى الضعف وغاية الوهن .

كما أن وصف الأعمال بهذه الضالة والوهن والحقارة يتلاءم مع قوله تعالى :
﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَتَوَعَّتُوا كِبِيرًا ﴾ وفي الحديث (يُحَسِّرُ الْمُتَكَبِّرِينَ
يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان) . (١)

فناسب أن تكون أعمالهم التي هي صورة لذواتهم كذلك .

لأن الجزاء من جنس العمل .
٤ - وقد يكون من أسرار التنوع في تشييل أعمال الكافرين بالرماد

- والله أعلم - أن الكفار الذين تشلهم هذه السورة الكريمة على صعيد واحد

حيث يجمعهم باطلهم وجاهليتهم لما أرادوا بالمة الحنيفة المثلة في

أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) شرا وذلك حين ألقوه في النار فجعلها

الله بردا وسلاما ناسب أن يلقوا جزاء يجانس أعمالهم ويتناسب مع اسم

هذه السورة الكريمة التي يدل اسمها على مقصودها .

٥ - كما جاء تشبيه أعمال الكافرين بالسراب والظلمات متناسبا

ومتناسقا مع السياق الذي وردت فيه .

لأنه سبحانه لما ذكر حال المؤمنين وما هم عليه من نور ويقين

والحامل لهم على ذلك الفوز العظيم والنعيم المقيم الذي يصيرون إليه ذكر

مقابل ذلك مآل الكافرين والحامل لهم على هذا الخسران السمين فناسب

أن يعطف هذا المعنى على ذلك عطف القصة على القصة ليكون بينها

هذا التناظر البديع .

(١) الأديب المفرد لبخارى ، باب اللبرص ١١٣ .

التقابل

٦ - ثم تأمل/ البديع بين هذا الذي أقام حياته على وهم

وسراب وبين أولئك الذين أقاموها على نور من ربهم فزادهم نورا.

٧ - قارن بين هذا الظمان المتوهم الذي ألهمه سراب

بقية ففضى عمر ساعيا لا هنا وراءه حتى أهلكه الظما عندما جاءه ولم

يجده شيئا.

وبين أولئك الرطبة قلوبهم المخيبة المنية إلى ربها بالغدو

والآصال تشبها لأنفسهم وابتغاء مرضاته فأنى تلهيهم تجارة أو بيع عن

ذكر الله؟.

٨ - ثم قارن بين العاقبتين فهناك عطاء واسع يغير حساب

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وها هنا غضب جم وتوفية حساب :

وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ رُفُوفَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ

٩ - كما تجد هذا التناسب والتقابل يمتد من ناحية

أخرى من السياق المقابل للمثل فترى هذا الظامي وحده في شدة الرضا

وهو يتحرق ظمأً ويتلوى كندا بينما الوجود حوله رى خصب يمطر وابلسه

ويصيب برده من يشاء. (١)

(١) انظر الآية ٤٣ / سورة النور .

١٠ - ثم تأمل كيف يمتد هذا التناسق والتقابل بين هذه الظلمات في قلب الكافر وكيف تتضاعف وتتكاثر بحيث إذا أخرج يده لم يكدرها .
وبين ذلك النور في قلب المؤمن وكيف يترابط فيتزايد فهو نور قـد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم يبق مما يقوى النور وبزیده إشرافاً وبمده باضاءة بقية . (١)

١١ - وازن بين هذه القلوب المعرضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف تتكاثر فيها الظلمات . (٢)
وبين تلك العقلة على بيوت الله كيف يتضاعف فيها النور والإيمان .

١٢ - ثم تأمل هذا التقابل العجيب بين هذه الظلمات في ذلك العمق الغائر والتي ختم عليها فلا تقوم فيها حياة لأعمال وبين

(١) الكشاف ٣/٦٨ .
(٢) انظر آية ٤٨ / سورة النور .

قدرة الله في ذلك العلو والشاهق على بعث الحياة من بين ركام السحاب وإخراج النور من بين ظلمات الدجى الفاسق .^(١)

١٣ - وبعد فإن ما نقف عليه من هذا السبك البارع والنظم

الجليل والتناسق اليبديع الذي لا يتناهى حسنه ومجاله وفضله وجلاله إنما هو ما يتقاطر إلينا من هذا الفيض السخي والخير الخصب من مآدبه الله التي لا يشبع منها العلماء . ولك أن توازن بين هذين التمثيلين وكيف جمع الله فيهما بين أمور متضادة لتعبر عن ضياع أعمال الكافرين وعدم نفعها وهذا من يديع أسلوب القرآن الكريم الذي يمثل لك الشيء بالشيء وضده .

وازن بين (سراب بقيعة) يقابله (بحر لجي) .

وبين هذه القيعة المجربة ليس فيها قطرة ماء .

وبين بحر لجي يفيض ماء .

بين شدة الضوء هناك وشدة الظلمة هنا .

ومع ذلك فالعاقبة واحدة فهناك **لَمَجِدَّةٌ شَيْئًا** وهنا : **إِذَا أَخْرَجَ**

يَدَهُ لَمْ يَكِدْ لِرَمَاهَا فالروية والبصيرة قد طمست والأعمال قد ضاعت

وفنيت والهلاك محقق به من كل جانب .

(١) انظر آية ٤٧ / سورة النور .

١٤ - كما تعود أسرار التنوع في تشبيهات أعمال الكافرين بالسراب

والظلمات إلى المواد اللغوية التي بنيت منها التشبيهات فنلاحظ مثلاً :

أن عناصر التشبيه الأول وهي (السراب القيعة الظمان) بينها هذا التجاذب

الشديد والتقارب الديدع الذي يوء كد الوهم ويضاعفه ، تأمل كيف يغرى

هذا السراب ذلك الظامي ، فيعطفه نحوه ويجذبه إليه .

كما نجد هذا التقارب والتلاؤم بين عناصر التمثيل الآخر من (ظلمات

وحرلجي يغشاه موج) ليوء كد شدة الظلمة وتضاعفها .

الفصل الخامس :

التشبيه الذي يمثل أوصاف المخالفين
من المتنافسين وأسرار تنوعه .

المدخل :

ورد ذكر النفاق والمنافقين في القرآن الكريم في عدة مواضع

ومأساليب بلاغية مختلفة يبين فيها سبحانه أن النفاق مرض في القلب

بحول بين صاحبه وبين نور الحق وصحة اليقين قال تعالى :

فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (١)

وأن ما يظهره المنافقون من نور الإسلام في الدنيا لا يحو ولا يزيل ظلمة

قلوبهم ، وتعظم حاجتهم إلى هذا النور في كرب يوم القيامة :

أَيُّومَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا

أَنْظِرُونَا نَقْتَبِسَ مِنْ نُورِكُمْ (٢)

ولما كان أمر هذه الطائفة خطيراً وبلاؤها عظيماً جلى سبحانه حقيقة

أمرها وما تنطوى عليه دخائل نفوسهم وما هم فيه من حيرة وشك في مثلين

بديعين يرى من خلالهما التخييل في صورة المحقق والمتوهم في معرض

المتقين والغائب كالمشاهد (٣) ليكون في ذلك أبلغ تأكيد وأعظم تقرير

(١) البقرة / ١٠٠

(٢) الحديد / ١٣

(٣) انظر الكشاف / ١ / ١٩٥

على سوء حالهم وفساد سريرتهم وخسران عاقبتهم .
وسأقف بإذن الله وتوفيقه في هذا الفصل على أسرار التنوع
وراء تشبيه المنافقين بالذى استوقد ناراً وبأصحاب الصليب-

قال تعالى :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي
أَسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ
فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ سَمَّ بَصُرَتْ عَنْهُمْ فَمَهُمْ لَا يُرْجَعُونَ
﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصْبَحَهُمْ فِي سَاءِ مَا أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كَمَا
أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

من أسرار المناسبة :

تمتد المناسبة بين سورة البقرة وآخر سورة الفاتحة فما أجمل

هناك فصل هنا ، وهذا من بديع أسلوب القرآن الكريم .

فقد تناولت سورة الفاتحة الحديث عن ثلاثة أصناف من الناس

على وجه الإجمال بينما تناولت البقرة هذه الأصناف بشيء من التفصيل (١) .

فبدأت ذلك بنفي الريب عن كتاب الله المبين ، ثم بينت حال

ومآل الذين آمنوا به واهتدوا بهداه وهم المتقون ، ثم بينت صفة

وعاقبة الكافرين الذين طبع على قلوبهم فهم لا يوفون ، ثم أتت ذلك

بذكر المنافقين الذين خالط قلوبهم الريب والتبست أقوالهم وأفعالهم

فخف أمرهم وعظم بلاؤهم فأبان الحق سبحانه عن أحوالهم بما هتك

من سرايرهم وكشف من ضمائرهم ليكون الناس على بينة من أمرهم وليكون

في ذلك دعماً لهم وزجراً .

(١) انظر نظم الدرر ١ / ١ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

مَشَاهِمٌ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا . . . وقعت هذه الجملة موقع

البيان والتقدير من الجمل الماضية لذلك لم تعطف عليها وكان بينهم
بين ما قبلها كمال اتصال . (١)

ثم تأمل كيف جاء المشبه به صورة فردية وهي قوله تعالى :

” كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا “

مع أن المشبه هي حالة جماعة المنافقين ويكاد يغلب هذا على أسلوب القرآن

الكريم في أمثاله التي يعبر بها عن المخالفين وأحوالهم وأعمالهم .

فذلك الظمان اللاهث وراء السراب في حرقة الصحراء ، وذلك

السابح في ظلمات بحر لحي (إذا أخرج يده لم يكذب يراها) (٢) ، وهذا

الصفوان الأجرد وسط طبيعة ثرة خصبة تتفجر ينابيعها (٣) بالحياة ،

(١) التحرير والتنوير / ١ / ٣٠٢ .

(٢) سورة النور / ٣٨ - ٤٠ .

(٣) سورة البقرة / ٢٦٤ .

كفها صور فردية تعبر عن جماعة المخالفين وأعمالهم وأحوالهم ، ولعل
حكمة مجيئها على هذه الهيئة هو أن في هذه الصورة مزيد إيهام وتنفير
وكان صاحبها وحده وسط هذه الأهوال والحيرة والشك يتخبط ويعاني
وذلك أشد وقعا عليه وأنكى له .

وتلك هي حقيقة هذه الفئة الذين لا جماعة لهم في الواقع

* تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى * (١)

ثم تأمل ما وراء * (استوقد) من الكد والكدح والطلب والإلحاح
في حصول ذلك والتأكيد والحرص عليه والحث والاستدعاء له ووراء ذلك
الحاجة الطحة لهذا الطلب والاستيقار .

ثم تأمل كيف يكون انطفاءها - مع حاجته هذه إليها -

أنكى له . (٢)

" ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها " . (٣)

في تنكير (نار) ما يوحي بأنها نار عظيمة ارتفع لهبها وسطوع ضوءها

(١) الحشر / ١٤

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/٣٠٠ .

(٣) الكشف ٢/١٩٧ ، البحر المحيط ١/٧٥٠ .

حتى أضاءت ما حولها . (١)

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ

جملة مفرعة على جملة استوقده . (٢) وأضاء . يأتي متعدياً وهو الاصل كما

في قول الشاعر :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

دَجَسِ اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزَعُ ثَابِقَهُ

ويأتي قاصراً (لازماً) بمعنى صار ذا ضوءٍ كقول الشاعر :

يضيء سناءً أو مصابيحاً راهباً

أَمَالَ السَّيْطُ بِالذَّبَالِ الْمُفْتَسِلِ

والآية لا تضيق عن هذين المعنيين أي فلما أضاءت النار الجهات حوله

وهو يعني ارتفاع شعاعها و سطوع لهبها أو فلما أضاءت النار واشتعلت

وكثر ضوءها وهاط في نفسها . (٣)

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

تأمل كيف أخرج الكلام هنا على خلاف مقتضى الظاهر وهذا من

(١) انظر الكشاف ١/١٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١/٣٠٧ .

(٣) المصدر السابق ١/٣٨ .

بديع أسلوب القرآن إذ أن مقتضى الظاهر والسياق أن يقول (ذهب الله بنوره وتركه) ليعود الضمير على (الذي استوقد ناراً) ولكن جمع الضمير، والتعبير (بالنور) عوضاً عن (النار) أوحى بهذا الانتقال البديع الذي يدل على أن الله سبحانه أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين . (١)

وقريب ما ذهب إليه ابن عاشور ما جوزه الكشاف من اعتبار قوله

تعالى :

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

استئنافاً وأن التمثيل ينتهي عند قوله تعالى :

فَلَا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ

ويكون جواب (لما) محذوفاً دلت عليه الجملة المستأنفة. (٢)

(١) التحرير والتنوير ١/٣٠٩ .

(٢) الكشاف ١/١٩٩ .

وينبه صاحب الكشاف إلى النكت البلاغية وراء هذا الحذف فيقول :
(وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة
التي تحصل عليها المستوقد بما هو أبلغ في اللفظ في آراء المعنى
كأنه قيل :

" فلما أضاءت ما حوله خمدت فيقوا خابطين في ظلام متحيرين
متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار " (١)
ومعنى (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) أى أطفأ نارهم .

وفي التعبير عن (النور) بدل (النار) لأنه المقصود من
إيقاد النار . كما أن المقصود من التجارة الريح فالريح هو الشرة المرجوة
كما أن النور هو الغاية المقصودة .

والمشابهة بين الإسلام الذي أظهره بقولهم: (آمنا) وبين
النور قائمة ، وقد شاع استعمال النور في التعبير عن الإسلام في القرآن
الكريم .

كما شاع استعمال الظلمة في الكفر .

ثم تأمل ما وراء إسناد الذهاب إلى الله سبحانه وتعالى من
أن الذي ذهب بنورهم هو القوى العزيز الذي لا راد لما
أخذ ولا مرسل لما أمسكه (١) فهو أشد في تحقيق الذهاب وتأكيده .
ولأن تعدية الفعل بالباء فيه معنى الاستصحاب والإسك وفي
ذلك من المبالغة والتأكيد ما فيه . (٢)
ومنها أنه حدث بأمر خفي أو أمر ساوي لأن الكل بخلقه
تعالى . (٣)
ومنها أيضا إشعار بغضب الله عليهم إذ أطفأ نارهم وذلك
لأنهم استوقدوها لغير مرضاة الله وهي إما نار مجازية كمنار الفتنة
والعداوة للإسلام .
أو حقيقية أوقدها الخوفا للفساد والإفساد . (٤)

-
- (١) روح المعاني ١٦٦/١ - الكشاف ٢٠١/١
(٢) انظر أبو السعود ٥١/١
(٣) المصدر السابق .
(٤) انظر الكشاف ٢٠٠/١ - روح المعاني ١١٥/١

(وتركهم في ظلمات لا يبصرون)

تأمل ما وراء (تركهم) من الرمي والطرح والنيد كأنهم كالشيء
الذي لا يعبأ به ولا يلتفت إليه ولا يخطر ببال . (١)

ثم تأمل كيف أكد شدة هذه الظلمات وتضاعفها وتراكمها
وتراكمها وإطباقها بحيث لا ينفذ فيها بصر وذلك بجمعها وتكثيرها
واتباعها بقوله (لا يبصرون) .

ثم إنك إذا عدت إلى هذا الجمع في (ظلمات) وجدت أنه يشير
إلى أحوال كثيرة من أحوال المنافقين كل حالة منها كأنها ظلمة فكفرهم
ظلمة وكذبهم ظلمة واستهزاءهم بالمؤمنين ظلمة وهكذا . (٢)

ثم تأمل ما وراء حذف مفعول (لا يبصرون) فكأنه أوهم بأن
الفعل غير متعد وفي ذلك إيحاء بأن حاسة البصر عندهم كأنها معطلة
ثم تأمل كيف يتناسب هذا مع قوله تعالى في السياق السابق :

(٣) . وَيُكْفِّرُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَمْ يُبْصِرُوا

(١) انظر الكشف / ١ / ٢٠٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير / ١ / ٣١٢ .

(٣) البقرة / ١٥ .

«والعمه في البصيره كالعمى في البصر وهو التحير والتردد» (١)

وإذا ما عدت إلى هذه الجملة وهي قوله تعالى :

وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ

تجدها تقريراً وتوكيداً للمضمون جملة :

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وليس في ذلك تكراراً لأن الكلام ينمو وتكثر فوائده بهذا التكرار إذ أن

هذه الجملة بالإضافة إلى أنها تؤكد معنى الجملة السابقة إلا أنها

تضيف إلى ذلك معنى التحقير والازدراء في (تركهم) وشدة الحيرة

والتخبط في هذه الظلمات التي جمعت ثم نكرت ليزيد ذلك من

هولها وشدتها وإطباقها ثم عن البصر والبصيرة وسط ذلك كله في

قوله :

لَا يُبْصِرُونَ ۝ صُمُّ بَصَرِي ۝ أَنَّىٰ قَدِمْ لَا يُرْجَعُونَ .

ثم تأمل قول الزمخشري في معنى هذه الآية إذ يقول : (٢)

(١) أبو السعود ٤٧/١

(٢) الكشاف ١/٢٠٣ - ٢٠٤

" كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن الإصاغة إلى الحق سامعهم وأبو أن ينطقوا به ألسنتهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما أيفت شاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس (١) والإدراك كقوله :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرتُ به

وإن ذكرتُ بسوءٍ عندهم أذنوا

وعن ابن عباس : صم بكم عمي لا يسمعون / ولا يبصرونه ولا يعقلونه . (٢)

وقوله تعالى :

صم يَكْرَهُ

أخبار لمبتدأ محذوف ، وحذف المسند إليه في مثل هذه المقامات أعرجرت

عليه لغة العرب وكان السياق يشتد ويحتد ، فيكون للإيجاز مع الحذف

هذا الوقع الشديد التأثير في النفس والحس .

وقوله تعالى : لا يَرْجِعُونَ ، فيها عدة وجوه منها :

" أي لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها . (٣)

(١) أيفت : أصابتها آفة .

(٢) الطبري ١ / ١١٤ .

(٣) الكشاف ١ / ٢٠٧ .

ومنها : " أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم

لا يخرجون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون " (١)

ومجيء الجطة الاسمية يفيد ثبوت ذلك ودوامه واستمراره .

ثم تأمل كيف أثرى حذف المتعلق في قوله (لا يرجعون) المعنى وأفساد

أنهم لا يرجعون عن أحوال كثيرة .

ثم إنك إذا ما عدت إلى هذه الآية وجدتها تقريراً وتأكيذاً للمضمون

ما قبلها وإيداناً بأنهم مستمرون في ظلماتهم لا يخرجون منها لأنهم فقدوا

أدوات المعرفة وآلات الحس التي يستدلون بها على طريق النجاة أو

يشعرون بها أنهم في خطر وفساد .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ

فهم في غيبهم يعمهون وفي ظلمات قلوبهم ونفاقهم يترددون فأنى يرجعون .

وقد ذكر المفسرون (٢) لهذا التشيل وجوهاً كثيرة وذلك لأن

التشيل في القرآن الكريم لا يقتصر على وجه واحد للشابيهة بل هو مبني

على الطي والدمج والثناء والخصوية والإيجاز والاكتمال وتعدد وجوه

(١) الكشاف ٢٠٧/١

(٢) انظر البحر المحيط ٧٦/١ والفخر الرازي ٨١/١

الشبه والعلاقات الدقيقة التي تربط المشبه بالمشبه به والتي لا تظهر إلا أثناء التحليل المتأنى والمدارسة والمتابعة والتذوق الواعي البصير للمعاني الكلم وسراعر النظم.

من تلك الوجوه التي ذكرها المفسرون لهذا التشيل قولهم :
(إن الذي يستوقد النار^١ إنما يستوقدها ليسمدفع بها الأذى عن نفسه ويحميها فإذا انطفأت عنه كان قد عرض نفسه للهلاك وكشف عنها ستار الأمن وهذه حال الناطق الذي يحقن دمه بالإسلام ويبيحه بالكفر .
ومنها أنه يهتدى بنور الإسلام فإذا ارتكس ونكص فقد زال عنه ذلك النور فضل وتاه وغشيتة ظلمة كفره ونفاقه .

ومنها أن المستضيء بهذه النار إنما يستضيء بنور خارجي لا ينبع من ذات نفسه وداخل قلبه أي نور ستعمار فظلمة نفسه لا تزال كما هي على أن ما حوله مضاء متقد .
ولما كان هذا الضوء ضوء خارجي لا يحوطه سياج يحميه كان عرضة للذهاب والهلاك فإذا انطفأ ضل صلعبه وهلك فهو مثال لمن أقربلسانه ولم يلج إيمانه قلبه فكان إيمانه كالمستعمار .

ومنها أنه شبه إقبالهم على المسلمين بالإضاءة وإدبارهم وتوليهم إلى شياطينهم بضدها .
(١)

وإذا كان المراد بالمشبه منافقي اليهود كان وجه الشبه هو
استفتاحهم على أعدائهم وما كانوا يستنصرون به عليهم بحال المستوقد
ناراً فلما بعث عليه الصلاة والسلام كفروا به وناقوا فذهب عنهم ذلك
النور. (١)

والمهم هو وصف شدة الحيرة والتخبط والتردى لمن يكون له
نوراً ويستوقد ناراً لغاية ما ثم تطفأ ناره فيصبح أشد حيرة منه قبل
ذلك لأنه عرف ثم وأبصر ثم عن ^{أنكر} وعلم ثم جهل فلا إِبصار لهم ببصر
ولا بصيرة. (٢)

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر اليقاعي نظم الدرر ١/٢٠٠ .

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ

وَالصَّيْبُ : السَّحَابُ الْمُخْتَصُّ بِالصُّوبِ وَهُوَ فِعْلٌ مِّنْ صَابَ

يَصُوبُ قَالَ الشَّاعِرُ :

* فَكَأَنَّمَا صَابَتْ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ * (١)

وَالصَّيْبُ : المَطْرَ الَّذِي يَصُوبُ أَي يَنْزِلُ وَيَقَعُ وَيُقَالُ لِلسَّحَابِ

صَيْبٌ أَيْضًا قَالَ الشَّمَاخُ :

* وَأَسْحَمُ دَانَ صَادِقُ الرَّعْدِ صَيْبٌ * (٢)

قال الزمخشري " شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به ، وشبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة من الإقزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق .

والمعنى أو كمثل ذوى صيب والمراد : كمثل قوم أخذتهم السماء

على هذه الصفة فلقوا بمنها ما لقوا " (٣)

(١) مفردات الراغب مادة (صوب) .

(٢) الكشاف ٢١٤ / ١ .

(٣) المرجع السابق ٢٠٩ / ١ - ٢١٠ .

ومجيء الكاف مع حرف العطف (أو كصيب) فيه إشارة إلى

إخلاف الحالين المشبهين .

والمراد بالصيب هنا القرآن أو هدى الإسلام وتشبيهه بالغيث

ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول :
(مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ الْكَبِيرِ الْغَيْثُ / أَصَابَ
أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ . .) (١)

وهكذا يتضح لنا مجعلاً أن هذا التمثيل تصوير لأحوال نفوس

المنافقين حين يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون

إلى كتاب الله وحين يلقون المؤمن فيتظاهرون أمامهم بالإيمان ثم ما

وراء ذلك ما يختلج في صدورهم ————— وما يجاذب نفوسهم

حين يستمعون إلى آى الوعيد لا مثالهم وآى البشارة للمؤمن وما يقولونه

لحظة آمن ثم ينكصون عنه إذا ما خلوا إلى شياطينهم . وغير ذلك

من المعاني والأحوال التي يبين فيها ويجليها الوقوف المتأني أمام

معاني الكلمات .

(١) مختصر صحيح البخارى للإمام زين الدين الزيدى رقم ٧٠ ص ٤٠ .

فورا تنكير صيب : إيجاء بأنه نوع من المطر شديد عظيم وسخي
كريم فاضل من أرجاء السماء وغمر الوجود .

ثم تأمل كيف أفادت الكلمة بمارتها (صوب) وبمخارج
حروفها وطريقة بنائها من الصاد إلى الياء المشددة والياء عن شدة
الانصباب والخير الذي عمّ وفاض . (١)

وشدة الصيب تستدعي شدة الظلمة التي تكاثفت من كثافة
السحب وكثافة الانسكاب بالإضافة إلى ظلمة الليل .

ثم تأمل ما وراء هذا القيد (من السماء) من الإشارة إلى
علو مصدره وسمو مورده وصفائه ونقاؤه وإحاطته وعمومه ، وأنه صيب
عام نازل من غمام مطبق آخذ بالافاق . (٢)

فِيهِ ظَلَمَتْ وَرَعْدٌ وَبُرْقٌ

تأمل كيف يصور لك التشثيل هذه الجوانب التي طغت على
نفوسهم فانخلعت لها قلوبهم جزعا وصمت آذانهم رعبا وكادت أبصارهم
أن تخطف إنّه الحق الذي تجلجل به السماء وتتغشى رحمة الوجود

(١) انظر (أبو السمون) ١ / ٥٢ - ٥٣ .

(٢) انظر الكشاف ١ / ٢١١ .

لم ينلهم منه إلا ظلمات ووعده ورقه .

ثم تأمل ما وراء هذه الظلمات من الإيحاش والغمة التي تعترى

نفوسهم إنها ظلمات الشبهات والشكوك، والريب الذي يخالط قلوبهم . (١)

ثم تأمل ما وراء هذه الظرفية (فيه ظلمات) من الإشارة

إلى شدة هذا الصيب والتهويل والتعظيم لآمره بحيث طفت ظلماته

فهي غالبية على غيرها من ظلمة الليل والغمام وهذا أعظم في بيان شدته . (٢)

ثم ذلك الرعد القاصف والبرق الخاطف يقرع أسماعهم وكان

يعني أيضا رهم من زواجر القرآن ووعده ووعيده . (٣)

أو أن هذا البرق الشديد اللمعان هو ما يشرق من نور الحق

وضيائه وسط ظلمات نفوسهم وشبهات قلوبهم .

(١) انظر التحرير والتنوير ٣١٧/١

(٢) انظر (أبو السعود) ٥٣/١

(٣) انظر الكشاف ٢٠٩/١ - ٢١٠

وهكذا نقف على جلال التمثيل في القرآن ودقته حين يصور

لك كيف أحاط هذا الفزع والجزع والهول والرعب بجميع منافذ الحس

لديهم فأطبق عليهم من ظلمات تغتال بهولها ووحشتها نفوسهم

ورعد وصواعق تعوم آذانهم ويرق يكاد يخطف أبصارهم فإذا هم فسي

شك وحيرة بين مشي وقيام وتبصر فظلام .

ثم تأمل كيف تتوالى الأحوال فتستأنف الجمل الحالية التي

تكشف عن دقائق نفوسهم وما يختلج في صدورهم إذ :

يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ

تأمل هذا التناسب الديدع والتدرج في التصوير وهذه الحركة

الخارجية حركة أيديهم المضطربة الفزعة تلج آذانهم ثم ما وراء ذلك

من حركة قلوبهم الوجلة المذعورة التي ترتجف حذر الموت .
(من الصواعق والحذر والموت)

ثم تأمل هذه الكلمات/ وكيف أضفت جو الرعب والهلع وشبح الموت

والهلاك بالإضافة إلى شدة الحيرة والتخييط .

المرسل في جعلهم

ثم تأمل ما وراء هذا المجاز / أصابعهم في آذانهم، والمراد : رؤوس الأصابع

من المبالغة في التصوير الذي ينيب عن مبلغ الخوف والحذر . يقول

الزمخشري :

وهذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها

كقوله تعالى :

فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
وَالسَّارِقَةَ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا (١)
وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

اعتراض راجع إلى المنافقين وهو في رجوعه يتناسب ويتلاءم

مع قوله تعالى :

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ
حيث رجع إلى المشبه . (٢)

ووراء ذلك أن حذرهم وما صنعوا لا يغني عنهم شيئاً ولا ترد

حيلهم بأس الله بهم .

ثم تأمل ما وراء التعبير (بالكافرين) وإظهاره موضع الضمير
من الإشارة إلى أن ما أصابهم وما دهمهم من الأمور الحالكة والخطب
العظيم بسبب كفرهم .

-
- (١) الكشاف ٢١٧/١ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٢١/١ .

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ (١)

يكاد : يقارب (يقال كَادَ يَفْعَلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ فَعَلَ) (١)

والخطف : (وَالْإِخْتِطَافُ الْإِخْتِلَاسُ بِالسَّرْعَةِ) . (٢)

وفي الأساس (وَمِنْ الْمَجَازِ الْبَرْقُ يَخْطِفُ الْبَصَرَ) . (٣)

ثم تأمل ما وراء كلمة (يخطف) من تكرر ذلك واستمرار تجدده فهم

في رعب دائم ، وعدم أمن أو يقين إلى صحة إيمانهم .

يقول أبو السعدي : " إيراد (كلما) مع الاضائة (وإذا) مع الإظلام

للإيذان بأنهم حراس على المشي مترقبون لما يصححه ، فكلا وجدوا

فرصة انتهزوها ولا كذلك الوقوف ، وفيه من الدلالة على كمال التحير

وتطايير اللب ما لا يوصف " (٤) وذلك في قوله تعالى :

كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ شَوْفِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا

(١) الراغب مادة (كيد) .

(٢) الراغب مادة (خطف) .

(٣) الأساس للزمخشري مادة (خطف) .

(٤) أبو السعدي ٥٤ / ١ .

ذلك
وما يوه كد/ هذه الظرفية في قوله : «سَوَّأَ فِيهِ» :

إذ أن المشي في محل البرق وموضع إشراق ضوئه .

والمعنى : مشوا لأجل الإضاءة فيه ، وفي ذلك إشارة إلى

ضعف قواهم ومزيد خوفهم ودهشتهم وشدة حيرتهم لذلك لم يشير

القرآن إلى سرعتهم في ذلك ، وفي حذف مفعول (أضاء) ما يشير

إلى فرط الحيرة وأنهم كانوا يخطون يخط عشواً ويمشون كل مشى . (١)

وَإِذَا أَذْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا

أى وقفوا متحيرين غاية التحير، والظلمة بعد شدة الضوء

ولمعان البرق تكون أشد وصاحبها أعظم حيرة من ذي قبل .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

تأمل هذا الكلام البديع وكيف أشار إلى أن الرعد والبرق

الشبه بهما قد بلغا غاية القوة ومنتهى الشدة بحيث لم ينعمهما

من إتلاف سمع هؤلاء المنافقين أصحاب الصيب والذهاب بأبصارهم

إلا مشيئة الله وقدرته سبحانه وذلك لحكمة يريد بها .

(١) روح المعاني ١٧٦/١ وانظر البحر المحيط ١/٩٠ .

وهذا يعني أن المنافقين لشدة نفاقهم وترددهم وشكهم
واستهزائهم بالمؤمنين وإعراضهم عن الحق تكاد أسماعهم وأبصارهم
* أن تتلف فلا ينتفعوا بها ولكن الله أبقاها لهم استدراجاً لهم
وإملاءً ليزدادوا إثماً وضياءً . (١)

وفي ذلك من التهديد لهم والوعيد ما فيه . التهديد
بأنهم إن لم يقلعوا عن كفرهم ونفاقهم فإنَّ الله قادر على أن يطمس
قلوبهم ويختم على أسماعهم وأبصارهم فلن يهتدوا إذا أبدا .

من أسرار التنوع في التشبيه الذي يمثل أوصاف المخالفين من المنافقين :

رأينا كيف أن الوقوف أمام الكلمات والجمال وساءلتها ، ومحاولة

الكشف عما وراءها من سرائر النظم وبيدع المعاني هو الذي يجلى لنا

أسرار التنوع وراء كل تشيل .

فمعناصر التمثيل الأول ومواد تتكون من الذي يكذب ويلج في طلب

الاستيقاد - أي المستوقد نارا - والنار والإضاءة لما حوله ثم انطفاء تلك النار

وخمودها والظلمات التي ظلوا فيها لا يبصرون عندما ذهب الله بنورهم

وانعدام حواسهم التي يبصرون ويسمعون ويتكلمون بها فهم لا يرجعون ،

يقابل ذلك في التمثيل الثاني " أصحاب الصيب " .

والصيب البالغ الشدة وما فيه من ظلمات ورعد وصرق و صواعق

ثم حركاتهم المضطربة من وضع أصابعهم في آذانهم واحتلاج صدورهم

حذر الموت ومشيههم تارة ثم قيامهم أخرى في ضوء البرق .

وتم قدرة الله عليهم وإحاطته بهم وإبقا سمعهم وأبصارهم لحكمة

يريدها مع تهديدهم بأن الله قادر على الذهاب بها .

يقول ابن القيم :

" ف ضرب المنافقين بحسب حالهم مثلين : مثلا ناريا ومثلا مائيا

لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور والماء

مادة الحياة وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمنا
لحياة القلوب واستنارتها ولهذا سماه روحا ونورا وجعل قابلية أحياء في
النور ومن لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات". (١)

١ - الصورة الأولى أو التمثيل الأول يمثل قوما لهم حاجة ماسة
إلى استيقاد نارٍ وأنهم بعد الجهد والنصب والطلب أضاءت لهم
النار ما حولهم وتبينوا وأبصروا فهم أهل علم ومعرفة أي بعد أن عرف
المنافقون طريق الإسلام وأدركوا أنه الحق والهدى غليت عليهم عصبيتهم
وجاهليتهم ونزعتهم لتقليد آباءهم فاتبعوا شهواتهم فذهب عنهم الإسلام
وأطفئت فيهم نور الفطرة وتعطلت قواهم الحسية والشعورية فهم بمنزلة
الصم البكم العمي .

بينما التمثيل الثاني: يركز على هذا الخير الذي فاض وهم الوجود
ويؤكد أن مصدر هذا الهدى والنور الذي أنكره الناكرون إنما هو من
مصدر إلهي سام لا ريب فيه ولكن ظلمات الشك والريب حالت بينهم وبين
هذا الخير والانتفاع به على أنهم وجه فهم قوم مترددون بين مجلس رسول
الله صلى الله عليه وسلم وسماع آيات القرآن وبين شياطينهم الذين إذا خلوا

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ١/٥٠-١٥١ .

بهم قالوا لهم (إنا معكم، إنما نحن مستهزئون) فيصائرهم وعقولهم ضعيفة
ولضعفها تشدد (عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيته
وخطابه الذي يشبه الصواعق) . (١)

التنوع أن
٢ - من أسرار / التمثيل الأول يوء كد زهاب الله بنورهم وتركهم في ظلمات
لا يبصرون بينما لا يزال القوم في التمثيل الثاني حيارى مترددين بين

إبصار وإظلام .
التنوع أن
٣ - من أسرار / التمثيل الأول يوء كد الله سبحانه وتعالى فيه بأنهم لا يرجعون
عن ضلالتهم التي اشتروها أو لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه فهم
... قد ضلوا ولا عودة لهم .

بينما يهدد القرآن الكريم أصحاب الصيب بأنهم إن ظلوا على نفاقهم
فإن الله قادر على الذهاب بسمعهم وأبصارهم ، وأنه سبحانه إنما يدع
لهم آساعهم وأبصارهم مستدرجا لهم ليطمادوا في غيهم وطغيانهم وفي
ذلك من الاستهزاء بهم والتهكم مافيه : يقول تعالى :

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْمُدْحَى

فَمَارِحَتْ تَجَرُّهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

(١) اعلام الموقعين ابن القيم ١ / ١٥٠ .

(٢) البقرة / ١٥ - ١٦ .

تأمل إلى هذه التجارة التي هي رأس مالهم وإلى الهدى والعلم

الذي كانوا يحرصون عليه أشد الحرص كيف باعوه وجعلوه سنا للضلالة .

٤- من أسرار / التنوع أن المثل الناري في الصورة الأولى يركز على أن الضوء خارج عن

مستوقده منفصلاً عنه ولو اتصل ضوءها به ولا يسه لما ذهب فهو ضوء مجاوره

لا ملابسه ومخالطه (١) وهو ضوء أرضي استوقده صاحبه يمثل كلمة

الإيمان التي قالوها مخادعة ورياء .

بينما الضوء في المثل المائي ضوء سماوى لا يدلهم في إيقاده

يمثل النور الذي يغشاهم عند حضورهم مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماعهم

لآيات الكتاب ولكن ظلمات صدورهم وما هم فيه من شك وحيرة يحول بينهم

وبين الانتفاع به .

٥- من أسرار التنوع أنه بنى التمثيل الأول على الأفعال الماضية وكأنها

صورة قامت وتحققت وتمت فلا عودة لهم .

بينما يمثّل التمثيل الثاني صورة حاضرة متجددة مستمرة وكأنها

مأثرة أمام أعيننا لا يزال البرق فيها يضيء تارة ويظلم عليهم أخرى ولا يزال

القوم فيها حيارى مترددين يعانون أشد أنواع الظلمات والحيرة والشك -

والتخبط لأن البرق لا يخطف إلا بصر من كان في ظلمة شديدة وهول رهيب.

(١) انظر التفسير القيم ص ١١٦ .

ويرى صاحب الكشاف :

" أن الصحيح الذي عليه علماء البيان أن التمثيلين جميعا من
جملة التمثيلات المركبة دون المفردة ^{لا يشككن} لواحد واحد هوشي * يقدر تشبيهه
به وهو القول الفحل والمذهب الجزل " (١)

والذين يذهبون إلى أن التشبيه الثاني أبلغ من الأول كالزمخشري
وأبوحيان وغيرهما لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأثر وفضاعته وأن
العرب يتدرجون من الأهلون إلى الأفظظ (٢) غابت عنهم حقائق سبق
منها :

أن كل شبيه في القرآن الكريم في موضعه بليغ بيل هو الأبلغ
وليس في القرآن بليغ وأبلغ أي ليس في بلاغته تفاوت وإنما يأتي مراعاة
لمقتضى الحال والسياق والمعنى الذي جسي * به لتقريره .
والقرآن ينتقل من الصورة الأقل تركيبا إلى الصورة الأكثر تركيبا
وخصوصية لأن هذا هو منطق اللغة والعقل والفترة .

(١) الكشاف ١/ ٢١١ .

(٢) انظر الكشاف ١/ ٢١٣ والبحر المحيط ١/ ٨٥ .

فالصورة الأولى أجملت لهم عاقبتهم وما هم فيه من عدم الانتفاع
بنور الإسلام . والثانية كشفت عن دخائل نفوسهم بصورة أدق وما
يعتريهم عند سماع القرآن وعندما يخلون إلى شياطينهم وتردد هم فسي
حيرتهم وشكهم ونفاقهم .

الفصل السادس :

الشتبهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث
وأسرار تنوعها .

المدخل :

أفاض القرآن الكريم في الحديث عن أحوال الناس عند البعث
وفي يوم القيامة وقد ورد ذلك على طريق الحقيقة كما ورد عن طريق
التشبيه والتشيل .

قال تعالى . :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كَمَا إِذَا زُلْزِلَتِ السَّمَاءُ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①
تَرَوْنَهَا نَذْهَلُ كُلَّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَانٍ حَمَلًا
حَمَلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَهُمْ يَسْكَرُونَ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ
شَدِيدٌ ①

وقوله تعالى :

يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكُمْ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ②

وقوله تعالى :

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ③ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ④
وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ⑤

(١) الحج / ١ - ٢٠

(٢) ق / ٤٤

(٣) النبا / ١٨ - ٢٠

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُوحٍ فِي

الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ①

كما ورد على طريق التشبيه :

فَقَالَ تَعَالَى : فَنُوحٌ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُوحٌ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ①

يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُوحٌ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ①

وقال تعالى : يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ ② وَذَكُونُ الْجِبَالُ

كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ③

يَوْمَ يَكُونُ

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ ② وَذَكُونُ الْجِبَالُ

كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ③

وسأقف بإذن الله على أسرار التنوع وراء كل صورة من صور التشيل :

والملاحظ أن العناصر أو المادة اللغوية التي تجمع بين هذه

التشبيهات هي الجراد المنتشر ، كأنهم إلى نصيب

يوفضون ، الفراش المبتوث .

(١) الكهف/ ٩٩ .

(٢) القمر / ٥٧ .

(٣) القارعة / ٢ - ٣ .

(٤) المعارج / ٤٣ - ٤٤ .

وهي وان كان يجمعها معنى عام /إسراعهم إلى الداعي خاشعة
أبصارهم في غاية الذلة والضعف والوهن والتهالك والتهافت
إلا أن كل صورة تنفرد بمعان وإيحاءات تتناسب مع السياق الذي
وردت فيه.

قال تعالى :

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خُشَعًا
أَبْصُرُهُمْ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾

من أسرار المناسبة :

تتميز سورة القمر بآنها حطة رهيبية عنيفة على الكذابين

بالنذر من تهديد ووعيد وإعتذار وإنذار وهول راجف وفزع مزلزل :

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿١﴾

ابتدأت بالحديث عن الساعة وأنها قريبة جدا وقدست بين يديها آية

تدل على إكرام لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - لا إثباتا لنبوته لأن

نبوته ثابتة بنزول القرآن .

تأمل ما وراء أَهْرَبَتِ السَّاعَةُ من تحقق وقوعها وأن ما سيقع

هو عند الله واقع لا محالة .

ثم تأمل ما وراء انشقاق القمر من صدره الله تعالى في آية

من أعظم آيات الله في الكون فإن كان القمر ينفطر ويتشقق استجابة

لامر الله فكيف بهذه القلوب الجاهلة المعرضة تنكر وتكذب وتدعي

أن ذلك سحر مستمر :

(٢) فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ سُوءًا

(١) القمر / ١٨ .

(٢) البقرة / ٧٤ .

وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا
سحر مستمر ○ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ○ وكل أمر مستقر ○
ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مذبذب ○ حكمة بلغة فأنع
الندوة ○

تأمل إلى موقفهم من آيات الله في الكون ومن الحق الذي بلغ
الغاية والنهاية في الحكمة والهداية والبيان ما زادهم إلا إعراضا
وتكديبا اتباعا لأهوائهم لا استنادا إلى حجة هذا في الوقت الذي
تجد فيه كل ما في الكون يسير لغاية يستقر إليها ونظام يقوم عليه وثبات
واستقرار في كل سنن من سنن الكون والحياة حتى وظائف الأجسام والأعضاء
لا سلطان للأهواء عليها فهذا الاستقرار يتجلى في كل شيء وفي كل أمر
من بين أيدينا وخلفنا إلا هو إلا الكافرين هم المضطربون المخالفون
لسنن الله في الوجود والمنقادون لأهوائهم تتجازبهم كيف تشاء فدعهم
حتى يأتي يوم ينتهي فيه كل شيء إلى مستقره فتأمل حالهم ومصيرهم
في ذلك اليوم. قال قتادة: ^(٢) "إن الخير يستقر بأهل الخير والشرب بأهل
الشر، وقيل يستقر الحق ظاهرا ثابتا والباطل زاهقا زاهبا". ^(٣)

(١) القمر / من آية (١) إلى آية ٥ .

(٢) في ظلال القرآن ص ٣٤٢٨ الطبعة التاسعة .

(٣) انظر البحر المحيط ١٧٤/٨ .

من أسرار اللغة والنظم :

فَقَوْلُهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا ①

تأمل التناسب والتقابل البديع فكما أعرضوا عنك يا محمد وعن الحق الذي جئت به رحمة وهدى فأعرض عنهم وتولى عنهم في أحلك ساعاتهم وأعسر أيامهم .

* أو فأعرض عنهم فإن الإنذار لا يجدى فيهم * (٢)

والنكر - الإنكار ضد العرفان ويقال أنكرت كذا ونكرت وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره وذلك ضرباً من الجهل . . . والنكسر : الدهاء والامر الصعب الذي لا يعرف * (٣)

وفي قوله (شي * نكر) وجوه منها :

* أي يوم يدعو الداعي إلى الشيء الذي أنكروه * (٤)

وقيل (نكر) أي منكر لا ينبغي أن يكون أو يقع لأنه يرد بهم في الهاوية . (٥)

-
- (١) القمر / ٦٠
(٢) البحر المحيط ٨ / ١٧٤
(٣) الراغب مادة (نكر)
(٤) تفسير النفر للرازي ١٦ / ٣٤
(٥) المصدر السابق .

فهو أمر صعب وشاق عليهم كالحساب والوقوف بين يدي الله
يوم القيامة ولم تكن نفوسهم قد تهيأت لتصوره والإيمان به واعتقاده ،
ففاجأها واغتالها لهوله .

خُشِعَا أَبْصَارَهُمْ

تأمل كيف وصف الأبصار بالخشوع ولم يصف به قلوبهم لأن
خشوعهم هنا عن ذلة وإهانة من شدة الهول فهم أذلاء ، وقدّم الحال على
الفعل لمزيد الاهتمام به . (٢)

فروء هذه الكناية الواصفة خُشِعَا أَبْصَارَهُمْ ما في البصر
الخاشع من معنى الاستسلام والخضوع الدائم الملازم لهم في ذلك اليوم
يقول الطبري :

" وإنما وصف جل ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر
أجسامهم والمراد به جميع أجسامهم لأن أثر ذلته كل ذليل وعزة كل
عزیز تتبين في ناظره دون سائر جسده " . (٣)

-
- (١) القمر / ٥٧ .
(٢) انظر روح المعاني ٩ / ٨٠ .
(٣) الطبري ٩ / ٥٣ .

(١) يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مَنْتَشِرٌ

تأمل ما وراء يخرجون من استحضار ذلك المشهد العظيم
الذى يكون عليه الناس حين يخرجون من قبورهم في جوم الهسول
والخوف .

كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مَنْتَشِرٌ

ثم تأمل كيف يركز التشبيه هنا على معنى الكثرة والتوج والانتشار
على غير نظام مع تسليط الضوء على معنى التخاضل والضعف والوهن الذى
هم فيه والمتجلى في أبصارهم الخاشعة .

يقول ابن فارس :

نشر * أصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى فَتْحِ شَيْءٍ وَتَشَعُّبِهِ * . (٢)

والجراد : معروف * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

وَالْقُمَّلَ * . (٣)

ويجوز أن يجعل أصلاً فينشق من فعله جَرَدَ الأَرْضَ ويصح أن

يقال سعى بذلك لجرده الأَرْضَ من النبات * .

(١) القمر / ٥٧ .

(٢) المقاييس مادة (نشر) .

(٣) الأعراف / ١٣٣ .

قال تعالى :

فَذَرَهُمْ مُخَوِّضُونَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ
الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً
أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي
كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

من أسرار المناسبة :

حينما نتأمل المناسبة بين نهاية السورة الكريمة وهي قوله

تعالى :
فَذَرَّهُمْ
يَخُضُّوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝ يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَشَعَةً
أَبْصَرُهُمْ تَرَهَقُهَا ذَلَّةٌ ذَلَّتْ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ

وبين بدايتها وهي قوله تعالى :

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ

نقف على هذا التناسب البديع ورد العجز على الصدر السدى

يوء كد فيه سبحانه أن هذا العذاب سيحل بالكافرين ولا
يستطيع أحد رده ، والذي أصابهم بسبب طغيانهم وجحودهم وتمردهم
على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم يتدرج الحديث عن ذلك اليوم الموعود الذي يتحقق فيه
هذا الوعيد . وفي هذا الجوالطيء بالرهبة والخشية تصعد الملائكة إلى
السماء تنزل بأمره ووحيه . ثم ترى الجبال تتطاير وتتناثر كالعيسن
المنفوش ، والسماء تذوب كالسهل ، والكل في هم شاغل ، وفزع هائل -

وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمًا

ولا يثبت في ذلك اليوم العظيم إلا الذين يصدقون بيوم الدين
والذين يصف القرآن الكريم كيف كان تصديقهم لذلك اليوم تطبيقا عمليا
على حياتهم قلبا وقالبا روحا وجسدا :

(١) **أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمَاتٍ**

ثم يعرض مقابل ذلك النعيم والتكريم حال الشركين الذين يسرعون الخطى
في الدنيا إلى مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام مادي أعناقهم إليه ،
مقبلين بأبصارهم عليه ^(٢) لا رغبة في هديه ونوره ولكن استهزاءً بسه
وبأصحابه .

قال المفسرون : * كان الشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه
وسلم حلقا حلقا يسمعون كلامه ويستهزئون به وأصحابه ويقولون إن دخل
هو الجنة - كما يقول محمد - فلندخلها قبلهم ، فنزلت الآية ^(٣) .
ثم قارن إسرعهم في الدنيا استهزاءً بالدين وإسرعهم في الآخرة ،
وكيف يستهزئ الله تعالى بهم فيقول :

يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِصُونَ

حيث شبه حالة إسرعهم إلى موقف الحساب بحالة إسرعهم وتسايقهم في
الدنيا إلى آلهتهم وطواغيتهم وفي هذا من التهكم بهم والسخرية والازدراء
ما فيه .

-
- (١) المعارج / ٣٥ .
(٢) انظر الكشاف / ٤ / ١٦٠ .
(٣) انظر تفسير أبي السعود ١٩٥ / ٥ وتفسير الخازن ١٥٢ / ٤ .

من أسرار اللغة والنظم :

الخوض : هو الشُّرُوعُ في الماءِ وَالْمُرُورُ فِيهِ وَكَثُرَ مَا وُرِدَ فِي الْقُرْآنِ

فِي مَا يُدْمَمُ الشَّرُوعُ فِيهِ . (١)

والنصب : من نَصَبُ الشَّيْءِ وَوَضَعَهُ وَضَعًا نَاتِقًا كَنَصَبِ الرُّمُحِ وَالْبِنَاءِ

وَالْحَجَرِ وَالتَّصِيبُ الْحِجَارَةَ تَنْصِبُ عَلَى الشَّيْءِ . (٢)

* وهو كل ما نصب فعبد من دون الله . (٣)

يوفضون : مضارع أوفض .

* أوفض إيفاضاً أسرع . (٤)

ثم تأمل كيف تأتي كلمة (كلا) ردعاً لهم عن الطمع في دخول

الجنة وعلّة ذلك أنهم ينكرون البعث والجزاء .

ثم يأتي الأمر والنهي للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يترك ما أمه

من أمر عنادهم وكفرهم ويدعهم في خوضهم ولعبهم . (٥)

(١) الراغب مادة (خوض) .

(٢) الراغب مادة (نصب) .

(٣) الزمخشري ، ١٦٠ / ٤ .

(٤) المقاييس مادة (وفض) .

(٥) انظر التحرير والتنوير ٢٩ / ١٨١ .

حَتَّىٰ يَلْقَاوَا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿١﴾

انظر ما وراء هذا التعبير من رحلة طويلة فيها ما فيها من جهد
وتعب ومعاناة وعمر طويل أضاعوه فيما لا يجدي ولا يثمر ثم هم يلاقوا
يومهم الذي يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب
يوفضون .

ثم تأمل الحال التي آكوا إليها بعد تكبر وعناد في الدنيا إلى
يوم القيامة
منتهى الضعف والذلة والهوان وهم يسرعون الخطى إلى الداعي/مستبقيين
كأنهم يستبقون إلى أنصابهم . (٢)

يقول ابن عاشور : وفي هذا التشبيه إيحاء إلى أن إسرائيل
يوم القيامة إسراع دح ودفع جزاءً على إسرائيل للأصنام . (٣)
وقارن بين إسرائيل لمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً
مادين أعناقهم إليه مقبلين بأبصارهم عليه وبين إسرائيل يوم القيامة
خاضعين خاشعين من الذل (ينظرون من طرف خفي) خَشَعَةً أَبْصَارَهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

(١) المعارج / ٤٢ .

(٢) الكشاف / ٤ / ١٦٠ .

(٣) التحرير والتنوير / ٢٩ / ١٨٣ .

والرهق : من رَهِقَهُ الامرُ غَشِيَهُ بِقَهَرِهِ . (١)

كما أن من لطائف التشبيه الإيحاء / التعب والمشقة والجهد
الذي يبذلونه أو بذلوه لا يطائل من وراء السعي إلى الانصاب بجانب
لأن ما يوحيه من معنى الذل والمهانة والخضوع يوحى أيضا بأنه سعى
إلى حجارة لا تضر ولا تنفع وأنه سعى لا ثمرة من وراءه وكذلك هم يوم
القيامة ما يوء كد أنهم لن يسعوا إلى شيء إلا للعذاب والهلاك +

(١) الراغب مادة (رهق) .

قال تعالى :

الْقَارِعَةُ ۝^١ مَا الْقَارِعَةُ ۝^٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝^٣
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝^٤ وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝^٥

من أسرار المناسبة :

سورة
تتحدث/القارعة عن القارعة وأهوالها والآخرة وشدايدها وما يقع
فيها من أحداث عظام وأهوال شداد كخروج الناس من قبورهم وانتشارهم
وكثرتهم كالغراش الميثوث المتهافت هنا وهناك وما يحدث للجبال من تطاير
ونسف كالصوف المنبث .

أن
ثم تأمل كيف قرن الناس إلى الجبال إشارة وتنبيه إلى/تأثير
القارعة في الجبال هذا التأثير فما عساه يكون حال الناس فيها .
ثم يتحدث عن الجزاء على الأعمال وأنها تقاس بثقلها
وخفتها في الميزان .

وسميت القارعة لأنها تفرع القلوب والأسماع بهولها .
ومناسبتها لما قبلها لأنه لما ذكر سبحانه وقت بعثرة القبور (١)
فكان مناسبا ذكر يوم القيامة . (٢)

(١) في السورة التي قبلها - العاديات آية ٢٩ .

(٢) انظر البحر المحيط ٥٠٦/٨ .

من أسرار اللغة :

القرع : "ضرب شيء على شيء" (١)

"والقرع الضرب بشدة واعتماد ثم سميت الحادثة العظيمة

من حوادث الدهر القارعة ...

ومن أسماء يوم القيامة القارعة . وأما سر تسميتها ففيه وجوه منها :

أن القارعة هي التي تفرع الناس بالأهوال والإقزاع ، وقيل تفرع أعداء

الله بالعذاب والخزي والنكال لأن الموءنين آمنون (وهم من فرغ

يومئذ آمنون) . (٢)

يقول ابن عاشور :

" وأطلقت القارعة على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات

كقوله تعالى :

(٣)

وَلَا يَنْزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُصِيبَهُمْ مِمَّا صَبَّحُوا بِقَارِعَةٍ

وقيل : تقول العرب قرعت القوم قارعة إذا نزل بهم أمر فظيع ولم أقف

عليه فيما رأيت من كلام العرب قبل القرآن . (٤)

(١) الراغب مادة (قرع) .

(٢) الفخر الرازي (بتصرف) ١٦ / ٧٠ .

(٣) الرعد / آية ٣١ .

(٤) التحرير والتنوير ٣ / ٥١ .

والفراش * شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة
والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار.
قال جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطفى
وفي أمثالهم : أضعف من فراشه وأذل وأجهل .
وسمى فراشا لتفرشه وانتشاره * . (١)

* وقال الزجاج الفراش هو الحيوان الذي يتهاوت في النار وسمى
فراشا لتفرشه وانتشاره * . (٢)

والمبشوث : * الباء والثاء أصل واحد وهو تفريق الشيء وإظهاره يقال
بشوا الخيل في الغارة وبت الصياد كلابه على الصيد والله تعالى خلق
الخلق وبشهم في الأرض لمعاشهم وفي القرآن وَزَرَأْنِي مَبْشُوثًا (٣)
أي كثيرة متفرقة . وبثت الحبيبت أي نشرته * . (٤)

والمهن المنفوش : (النفش نشر الصوف ونفش الغنم انتشارها
والنفش بالفتح الغنم المنتشرة) . (٥)

-
- (١) الكشاف ٢٧٩/٤ .
(٢) الفخر الرازي ٧٠/١٦ .
(٣) الغاشية / ١٦ .
(٤) المقاييس مادة (بث) .
(٥) الراغب مادة (نفش) .

تأمل هذا البدء المهلوم الذي فيه من التشويق والترغيب إلى

معرفة ما سيكون ، القارعة ، ما القارعة .

ثم تأمل هذا القرع المفزع والهول الرهيب الذي ترى فيه الخلق

على غير نظام في ضعف وذلة وسجيء وذهاب مستطارون مستخفون في حيرة

الفراس الذي يتهافت على الهلاك وهم يسرعون إلى الداعي الذي يدعوهم

إلى المحشر . (١)

ثم انظر إلى التناسق البديع بين شدة القرع ومنتهى الضعف والذلة

والهوان الذي آل إليه الناس في ذلك اليوم وذهابهم إلى غير جهة على

غير نظام ، لأن شدة القرع وعظم الهول يدعو لعدم الانضباط والتهالك

والتهافت .

وهذه الكاف في (كالفراس المبتوث) توحى بأنهم أذل من

الفراس لأن الفرّاش لا يعذب وهم يعذبون .

ثم تأمل كيف جاءت جملة :

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ

بياناً للإبهام الذي في قوله تعالى * ما القارعة *

وقوله : وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٢)

تهويل إثر تهويل .

(١) انظر روح المعاني ٠٢٨٢/١٠ وانظر التحرير والتنوير ٣٠/١١٥

(٢) التحرير والتنوير ٣/٥١٢

ثم انظر كيف جاء هذا التعبير البديع وهذا التقابل العجيب بين

هذين الكونين : كون الناس (كالفراس البثوث) وهو ايجادهم بعد

عدم وبعثهم بعد موت ، وكون (الجبال كالعين المنقوش) في

انتشارها وتفتتها واضمحلالها فهو كون يوءن بزوال وفناء فهذا عالم

يولد ويظهر وآخر يزول ويرحل ، والكل في حالة زهول وفزع وتطاييسر

وخفه وضعف وزله . (١)

ثم تأمل كيف تقاس الأعمال في ذلك اليوم العظيم بثقل الموازين

وكيف يتقابل مشهد الخفة والتطايير بمشهد الثقل والرضى والاطمئنان :

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ

وأما الكافرون فما أشبه أعمالهم بهم في خفتها وتطاييرها وهويها

في نار جهنم :

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ

نَارُ حَامِيَةٍ

من أسرار التنوع :

ومذ لك نخلص إلى أن التشبيه لا حوال الناس عند البعث وان كان يشترك في معنى عام وهو وصف ضعفهم وذلتهم وهوانهم مع كثرتهم وانتشارهم وإسراعهم الخطى نحو الداعي في جو رهيب من الهلع والفرع المحاط بهم إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا ومعنى يتلاءم مع السياق الذي وردت فيه .

١ - التشبيه في سورة القمر :

يصف أهوال يوم القيامة حين يدعو الداعي ، فينبعث الموتى من قبورهم ويخرجون منتشرين في هذا المشهد الرهيب وهو يركسز على خروج الناس من جوف الأرض وانتشارهم على ظهرها كالجراد المنتشر في الكرة والتدافع وجولان بعضهم في بعض وتموجهم واضطرابهم ويتلاءم مع السياق السابق الذي وصف عدم انضباطهم في الدنيا وذلك باعراضهم عن سنن الله في الكون ولشريعته وهديه ونوره فكانوا عرضة للأهواء تتجاذبهم وتتناوشهم من كل مكان فهم اليوم كذلك لا يأمنون من الفرع الأكبر بل يضطرون ويتماوجون ويجول بعضهم في بعض من شدة الهول والفرع .

بينما التمثيل في سورة المعارج : يركز على طريقة إسراعهم

في ذلك اليوم وذكّانهم إلى نصب يوفضون» لأنّ الجو والسياق حولهم مليء
بالرهبة والخشوع والخضوع حيث تنزل الملائكة بأمره ووحيه .

ثم هو يقابل بين إسرائعهم في الدنيا بمجلس رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - مستهزئين به وأصحابه ، وبين إسرائعهم في الآخرة إجابة
للداعي في رهبة وخضوع واستسلام مطلق يتناسب مع جو العبودية والخضوع
والرهبة لله سبحانه وتعالى .

فكان التمثيل في سورة القمر في يوم القيامة عامة والتمثيل في سورة

المعارج في موقف خاص من مواقفه .

التنوع أن التشبيه

٢ - من أسرار / في سورة المعارج وصف أبصارهم بأنها (خاشعة) على وزن

(فاعلة) لتفيد دوام خشوعها وخضوعها ، ولأنّ تخاذل النفس وتماسكها

إنما يظهر في أحوال البصر .

بينما وصف البصر في سورة القمر بقوله : (خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ)

زيادة في التهويل والتقريع لأنهم يدعون إلى شيء نكروا وشديد صعب

شامل الضمتين على الحرفين الأول والثاني وما فيها من معنى ارتفاع

الشدّة . (١)

(١) انظر التصوير البياني ، د / محمد محمد أبو موسى ص ٢٩٠ .

أن
٣- من أسرار التنوع/التشبيه في سورة المعارج يؤكّد بطلان سعيهم وأنه سمي
لا شرة من ورائه لأنه أشبه يسعى من سعى لمن لا يملك بهم ضرا ولا نفعا
فهم يسعون " كأنهم إلى نصب يوفضون".

بينما نجد أن التشبيه في سورة القارعة :

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

يتناول بجانب الكرة والانتشار على غير نظام معنى التخازل
والوهن والضعف الذي يكون عليه حال الناس عند ابتعاشهم من قبورهم فسي
ذلك المشهد الذي يقرع القلوب بهوله .

وبين أنهم تخاذلوا أشد التخازل بحيث لم يبق فيهم
من قوى بقية / وتماسك فصاروا كالفرش المبعوث وهذا يتناسب مع شدة القرع وهول
الموقف ، والفرش مثل في الوهن والضعف ومثل في الخفة والحماسة
والتهافت والطيش .

التنوع أن
٤- من أسرار / التشبيه الأول في سورة القمر وصف الجراد بالانتشار بينما التشبيه

في سورة القارعة وصف الفراش بالبت، وبينهما فرق . والفرق بين البت والانتشار
أن الانتشار فيه فضل تماسك لا يوجد في البت، ولذلك تقول العرب :
نشر عليه ثوبه ولا تقول بثه .

هـ - من أسرار التنوع الفرق بين الصياغتين فالمبثوث مفعول من بث وقع عليه

البث والمنتشر اسم فاعل من انتشر حدث منه الانتشار.

فهم في التشبيه الأول كالجراد الذي ينتشر بنفسه وهو يتناسب مع *

* أعجاز نخل منقر * (وهشيم محمطر) وهكذا.

بينما التشبيه الثاني كالفرش المبثوث أى الذى يبثه غيره وهو

يتناسب مع تلك الجبال التي تفرق وتنفس ويتحلل ألوانها وأصباغها وتتراعى

ألوانا شتى فتكون مثلاً في الخفة وفي اختلاف الألوان وهكذا تتناسب

مع الفرش المبثوث. (١)

(١) انظر التصوير البياني ، د / محمد محمد أبو موسى ص ٣٠ .

لِسَانِ عَمَّه

الخاتمة

قامت هذه الدراسة على إدراك أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم وكان لا بد للوقوف على ذلك من إمعان النظر في آيات التمثيل ومدارستها كلمة كلمة وجملة جملة وترسم كل ذلك توسما واعيا في ضوء السياق الذي وردت فيه ومحاولة استخراج ما وراءها من فيوضات وأحوال وأسرار .

والإحاطة بكل أسرار التنوع أمر خارج عن طاقة البشر وإنما وقفنا على ما فتح الله به علينا وما تقاطر منها إلينا .

ففي الفصل الأول : انتهت فيه بعد التحليل والمدارسة والموازنة

الى أن تشبيهات الحياة الدنيا وإن كانت تشترك في معنى عام وهو تشبيه حال الدنيا في نضرتها ومهجتها وافتتان الناس بها ثم ما توؤل إليه من الهلاك والفناء إلا أن لكل تشبيه معرضا ومعنى يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه واستقى منه .

فالمثل الأول في سورة يونس يهتم ببيان من يبغى فسي الأرض ويفتر بالحياة الدنيا ويشدد تعلقه بها ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها . ويبين عن أنهم قد بلغوا في الفتنة بها غايمة الطغيان حتى ظنوا القدرة عليها والتمكن منها وفيه إبراز لسلطان العلم الذي سخره الله للبشر فحادوا به عن الجادة حين توهموا أنهم العالمون بالدنيا المتحكضون منها .

فهو مبني على التفصيل والتحليل لتغلغل هذه الحياة الدنيا في قلوب القوم ثم ما آل اليه حالهم حين باغتهم أمر الله ، بينما نجد أن التمثيل الثاني في سورة الكهف مبني على الطن والدمج ، لأنه هنا يركز على جانب سرعة زوال هذه الحياة الدنيا الذي يكاد ينطق بالتعبير عنها هيئة المشبه به بجمله الثلاث القصار وأن هذا يتناسب ويتلاءم مع السياق الذي تحدث فيه سبحانه عن اغترار المشركين بأموالهم وأولادهم وافتخارهم بها على فقراء المسلمين - وظنهم أنها لن تبيد أبدا * وَمَا سَاءَ أَظُنُّ أَنْ نَبِيدَهُمْ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً فناسب هذا التقابل البديع بين طول الأمل في البقاء وانكار البعث مع قصر الحياة الدنيا وسرعة الفناء .

في حين أن التمثيل الثالث في سورة الحديد يهتم ببيان شدة الإعجاب بالحياة الدنيا من حيث هي لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر بالأموال والأولاد / حالت بينهم هذه الأمور عن المسارعة لطاعة الله والإنفاق في سبيله لأنهم إنما يستبقون المال لإنفاقه في لذائذها وشهواتها ، هذا بالإضافة إلى فروق ودقائق أخرى ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

وفي الفصل الثاني ظهر لي أن تشبيهات الإنفاق في سبيل الله وإن كانت تشترك في معنى عام ألا وهو مضاعفة الأجر والثواب . إلا أن التشبيه الأول يهتم بالمضاعفة الحسابية التي تتمثل في جَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ . بينما يبرز التمثيل الآخر للإنفاق في سبيل الله أشرا آخر للإنفاق ، وهو ما يعود به الإنفاق على نفس صاحبه بحيث تعتاد الخير

فلا يصدر عنها إلا فضائل الأعمال ويصبح الإنفاق سجية من سجاياها إن أصابها وابل أشمرت وأمرعت وإن لم يصبها وابل فطل أي فهي مرعسة ثمرة وفيه حث على تكرير الإنفاق لتربية هذه الملكة .

كما ظهر من أسرار التنوع في هذا الفصل الانتقال من الصورة البسيطة التركيب في المثل الأول إلى الصورة الأكثر تركيباً وخصوصية ويعود ذلك لتكاثف الأحوال وراء المعاني حيث النفوس مليئة مفعمة بمعانسي العطاء والخير مبتغية وجه الله وفيه تدرج في تربية النفس لأن الأمور المحسوسة هي أول ما تدركه ثم ترتقي إلى ابتغاء مرضاة الله، بينما نجد أن تشبيهات الإنفاق رفاء الناس والمصحوبة بالمن والاذى، ونفقات الكافرين وإن كانت تشترك في معنى عام وهوبيان إحباط العمل وإبطاله وضياعه إلا أنها تتميز بمعان تتناسب مع السياق الذي وردت فيه والعلامة التي من أجلها كان إحباط العمل، فالمرائي الذي مثله **صَفْوَانٌ عَلَيْهِ رَبَابٌ** لم تشر أعماله أصلاً لخلوقه من الإيمان بالله الذي يرجو به ثواباً أو يخشى عقاباً فعلته وآفته تشر أصل العقيدة وجوهرها .

بينما المان والمؤذي بلغت نفقتهما غاية الوفرة والكثرة والخصومة ثم طرأ عليها ما أحبطها وأفسدها وهو أحوج ما يكون اليها .
أي أن صدقته وقعت صحيحة ثم بطلت بالمن والاذى بينما المرابي لم يأت بالعمل مقبولاً صحيحاً بل أتى به باطلا مردوداً .

ومن أسرار التنوع بين هذه الجنة التي أصابها إعصار فيه نار فاحترقت وبين تلك الريح الشديدة البرودة ^{التي} * أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته * وأن الإعصار الذي فيه نار أشبه بحرقه المن والاذى

وتميزته لا^١ وأصر المحبة وإشعاله الحقد والبغض في النفوس، فناسب أن يكون الجزاء من جنس العمل .

أما الريح الباردة فهي أشبه بالموء منين الأشداء على الكافرين الذين أهلكوا حرث هوء لاء الظالمين الذي بذلوه لمحاربة الله ورسوله فالحرث هنا في أجواء شديدة الحرارة والاتقاد^{لأنها} لأشغال الفتنة والفرقة بين المسلمين ومحاربة دين الله فناسب أن تكون هذه الريح الشديدة البرودة لإطفاء نار الكفر والبغض وإخماد شوكة المشركين إلى جانب فروق دقيقة ولطائف عجيبة ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

وفي الفصل الثالث انتهيت إلى أن تشبيهات الحق والباطل وإن كانت تشترك في معنى عام هو بقاء الحق وزوال الباطل واضمحلاله إلا أن كل تشبيه منه يتميز بتناول جانب من جوانب هذا المعنى لم يتناوله غيره .

فالتشبيه الأول يمثل الحق إبان نزوله من السماء وكيف تلقته تلك الطائفة الموءمنة واستجابت له فتصدى لها أهل الباطل بالتكذيب والانكار وقد جاء التعبير عنه بالأفعال الماضية (أنزل - سالت - احتمل) التي أفادت تحقق وقوعه وأنه تمثيل لصورة قامت وتمت .

بينما التمثيل الثاني جاء التعبير عنه بلفظ المضارع فسي (يوقدون) ليدل على صورة متجددة ومستمرة يلايس الباطل فيها معدن الحق ويشتغل فيه ولكن الشدائد والمحن التي تمثلها عملية الإيقساد على معدن الحق تطرد زيد الباطل فلا يلبث أن يزول ليبقى جوهر الحق الصافي المثل له بالماء النافع والمعدن الذي تتخذ منه الحليسة والمتاع .

ثم تأتي النتيجة المترتبة على نزول الحق وقائه في الأرض وهي
تثبيت جذور شجرة التوحيد في القلب الممثل لها بالكلمة الطيبة واجشاث
كلمة الكفر والشرك الممثل لها بالكلمة الخبيثة .

كما نلاحظ أن من أسرار التنوع مراعاة التمثيل لأحوال البيئة
المعاشية . . حيث تجد الصورة الأولى الممثل بها الحق أقرب إلى
أهل البادية، بينما الثانية هي من واقع الحضرة وتشارك الألفاظ بجرسها
وقوتها أورخاوتها في التعبير عن ذلك .

وفي الفصل الرابع انتهيت إلى أن تشبيهات أعمال الكافرين وإن
كانت تشترك في معنى عام ^{وهي} أنها باطلية لا غية لا منفعة فيها ولا خيسر
يرجى منها مهما عظمت وكثرت إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا
ومعنى تتميز بها تتناسب وتتلاءم مع السياق الذي وردت فيه .

فالتشبيه الأول **حَكَرَ مَا فِي أَشْتَدَّ يَدِ الرِّيحِ** يدل على المحق

والسحق وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك وفي عناصره من الجزالة
والقوة ما يتناسب مع المعنى الذي سيق له وهو وإن كان يشترك مع قوله
تعالى **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** فسي
بيان تيدد أعمال الكافرين وتمزقها بحيث لم يبق لها أثر إلا أن الثاني
يتميز بدقة عناصره ورقتها لأنها تمثل معنى الضالة والحقارة ثم التناثر
والذهاب بها كل مذهب وهذا المعنى يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه .

كما لاحظنا أسرار التنوع وراء تشبيه أعمال الكافرين بالسراب ،
والظلمات لأنها وردت في سياق يتحدث عن حال المؤمنين والحامل لهم
على ذلك الفوز العظيم ثم ما يصيرون إليه من نعيم مقيم فذكر مقابل ذلك

مآل الكافرين من الخيبة والخسران المبين ثم عطف عليه الحامل لهم على هذا الخسران وهو غلو أعمالهم من نور الحق وتلبسهم بالظلمات .
ومن أسرار التنوع أيضا أن السراب يمثل أعمالهم الحسنة والظلمات تمثل أعمالهم الفاسدة كالفتن والكفر والشرك وذنابل النفوس وغيرها .

ولاحظنا التناسق البديع بين المثليين وسياق الآيات حيث ترى هذا التقابل الرائع بين من أقام حياته على وهم وسراب وسعى لاهثا وراءه حتى وجد الله فوفاه حسابه وبين الذين أقاموها على نور من ربهم فزادهم نورا .

كما نجد التقابل بين هذه الظلمات في قلب الكافر وكيف تتكاثف وبين ذلك النور في قلب المؤمن وكيف يتضاعف وقد تناصرت فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت وهكذا . . .

إلى غير ذلك من الفروق والدقائق التي تجلت في ضوء التحليل والمدارسة والموازنة .

وفي الفصل الخامس وقفت على أن تشبيه النافقين بالمستوقد نارا وبأصحاب الصيب وإن كانا يشتركان في معنى عام وهو صياهم فيه من شدة الحيرة والتردد والتخبط لانطماس بصائرهم وتشككهم في دين الله إلا أن لكل تشبيه سياقه ونسقه الذي يتميز به .

فالصورة الأولى تمثل قوما لهم حاجة ماسة إلى استيقان نار ، وإنهم بعد الجهد والنصب أيضا ت لهم فتبينوا وعرفوا فهم أهل علم

بعد أن ضلوا
ومعرفة ثم إنهم/عرفوا أنكروا/ وغلبت عليهم جاهليتهم فذهب الله بنورهم وتركهم
في ظلمات لا يبصرون .

بينما التمثيل الثاني يبين عن هذا الخير الذي فاض عليهم ولم
ينتفعوا به ولم يصيبهم منه إلا صواعقه ووعده وقرقه أى هذا الهول والفرع
الذي أحاط بهم من كل جانب ونفذ إليهم من كل حاسة .

التمثيل الأول يؤكده الله فيه أن القوم لا يرجعون عن غيهم
وضلالتهم ، بينما الثاني لا يزال القوم فيه حيارى مترددين بين مشي وقيام
وتبصر وظلام .

وفي الفصل السادس وقفت فيه إلى أن تشبيهات أحوال الناس عند
البعث وان كانت تشترك في معنى عام وهو وصف ذلتهم وضعفهم وهوانهم
وتهالكهم وتهافتهم ذلك اليوم إلا أن كل صورة تنفرد بمعان وإيحاءات
تناسب مع السياق الذي وردت فيه .

ففي سورة القمر يصفهم بالجراد المنتشر في تدافعهم وتزاحمهم
واضطرابهم وعدم انضباطهم وذلك يتناسب مع السياق الذي وصفهم فيه تعالى
في الدنيا بأنهم كانوا غير منضبطين لشريعة الله تتجاذبهم الأهواء وتتناوشهم
من كل مكان .

والتمثيل الثاني يركز على طريقة إسرعهم في ذلك اليوم وكأنهم
إلى نصب يوفضون لأن السياق حولهم مليء بالرهبة والخشوع تنتزل فيه
الملائكة بأمر الله ووحيه وهو يقابل بين إسرعهم في الدنيا لمجلس رسول الله
صلى الله عليه وسلم مستهزئين به وأصحابه وبين إسرعهم يوم القيامة
إجابة للداعي في خضوع واستسلام مطلق .

وفي سورة القارعة يركز التشبيه بجانب التعبير عن الكثرة والانتشار على غير نظام معنى التخاذل والوهن والضعف الذي يكون عليه حال الناس عند البعث ويبين عن أنهم تخاذلوا أشد التخاذل وذلك يتناسب مع شدة القرع وهول الموقف .

ومع تلك الجبال التي أضحت كالعهن المنفوش في اختلاف الوانها وخفتها .

ومن الأصول التي وقفنا عليها وراء أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم (١) تناول المعنى الواحد في كل مرة من جانب من جوانبه التي تتلاءم مع الغرض الذي سيق له والسياق الذي ورد فيه .

(٢) الانتقال في تنوع التشبيهات من الصورة البسيطة التركيب إلى الصورة الأكثر تركيباً وتعقيداً تدرجاً في إقناع النفس وتلاوياً مع تكاثف الأحوال ووفرة المعاني وسخائها .

(٣) التعبير عن المعنى الواحد بصورتين متضادتين أو متقابلتين ، كالمثل المائي والناري والماء والنار عنصران يغلبان على أكثر تشبيهات القرآن ، فالماء هو الحق الذي نزل من السماء فسالت به أودية بقدرها . وهو الصيب الذي أصاب القوم من هدى القرآن وخيره ولكنهم لم ينتفعوا به وهو الوابل الذي أزال التراب عن الصفوان / زكت به الجنة ذات الربوة وهو الماء الذي اختلط بنبات الأرض لتمثيل الحياة الدنيا وهو الغيث الذي أعجب الكفار نباته .

وهو السراب الذي تراءى للظمان .

وهو البحر اللجج الذي تكاثفت فيه الظلمات .

والنار هي النار التي استوقدها المستوقد ليستضي بها ،
وهي النار التي أحرقت أعمال الكافرين فأصبحت رمادا تشتد به
الريح ، وهي النار التي أوقدت على معدن الحق لتذهب زبد الباطل ،
وهي ضمن الجائحة التي جعلت ما على الأرض حصيدا في تمثيل
الحياة الدنيا أوهشما تذروه الرياح .

وهي النار في الإعصار الذي أحرقت الجنة ذات الأنهار
والأشجار والشمار .

ومن الصور المتقابلة أيضا التعبير عن المعنى الواحد بأجواء حارة
جافة كسراب بقيعة، وأجواء رطبة ندية كبحر لحي .

(٤) كما أن من أسرار التنوع وأصوله مراعاة أحوال البيئة المعاشية
والحضارية كالتعبير بصورة مستقاة من البادية وأخرى من الحضر في تمثيل
الحق والباطل .

(٥) من أسرار التنوع وأصوله مراعاة المستوى الفكري والحضارى والتقدم
العلمي .

فصورة السراب الذي تمثل للظمان صورة عامة تراعي مستويات
الإدراك الأولى لدى الناس .

أما تمثيل البحر اللحي وتكاثف ظلماته تحتاج إلى قدر عظيم من
الروئية والتأمل والتفكير فضلا عما وراءه من الإعجاز العلمي في القرآن والذي
لم يدرك إلا في العصر الحديث.

٦ - من أسرار التنوع وأصوله أن يبني التمثيل مرة على التحليل والتفصيل وأخرى على الطي والدمج تلاو، ما مع السياق الذي ورد فيه والفرض الذي سيق له .

٧ - من أسرار التنوع وأصوله الانتقال من الحس الى المعنوى وذلك لأن الأمور المحسوسة أول ما تدركها النفس ثم ترتقي بعد ذلك كالتمثيل للانفاق في سبيل الله في صورة المضاعفة الحسابية لا ثارة محنوز الطمع في الربح ثم الانتقال الى ابتغاء مرضاة الله لأن النفس هنا زاخرة مفعمة بمعاني الخير زاكية مبتغية وجه الله والنفقة وارفة الظلال دائمة الاثمار .

٨ - من أسرار التنوع وأصوله أن لكل مثل بناو، ونظمه وعناصره ومعانيه وظلاله التي تتناسب مع السياق الذي ورد فيه فالماء المخطط بنبات الأرض يتلاءم مع الرياح الطيبة والبحر، والهشيم الذي تذروه الرياح يتلاءم مع الجنة الخاوية على عروشها . والظلمات التي تتكاثف في بحر لحي تتناسق مع النور الذي يتضاعف في مشكاة فيها مصباح وهكذا .

ومعد فالحمد لله الذي وفقني لخدمة كتابه الجليل والكشف عن بعض أسرار بيانه ولا يزال القرآن الكريم مأدبة الله التي لا يشبع منها العلماء ينطوى على لطائف وأسرار لا تتناهى نرجو الله الكريم أن يهدي إليه حملة العلم وطلابه ليفتقوا كمامه ويستخرجوا ودائعه .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

وقل ربي زدني علما ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مَنْزِلَةُ الْمَصَابِيحِ وَالْمُرَاجِعِ

المصادر والمراجع

- الأُدب المفرد
للإمام الحافظ محمد بن اسماعيل البخارى رضي الله تعالى عنه ، دار
أساس البلاغة مكتبة الحياة - بيروت لبنان .
تأليف الإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري
تحقيق عبد الرحيم محمود
دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .
- أسرار البلاغة
تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني
دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .
- أسرار التكرار للكرماني
لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني
دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا
ط / الثالثة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م . دار الاعتصام .
- الاتقان في علوم القرآن لشيخ الاسلام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ،
ط / الرابعة ١٣٩٨ - ١٩٧٨م .
- الإعجاز البلاغي
د / محمد محمد أبو موسى
ط / الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م
الناشر مكتبة وهبه .
- إعجاز القرآن للباقلائي
أبي بكر محمد بن الطيب
تحقيق السيد أحمد صقر ط / الرابعة
دار المعارف .

- اعلام الموقعين عن رب العالمين

تأليف شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف

بابن قيم الجوزية

- حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه

محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيروت لبنان .

- الاٲثال في القرآن الكريم

د / محمد جابر الفياض

ط / الاٲول ١٩٨٨ م

(ب)

- بديع القرآن

لابن أبي الإصبع المصري

تقديم وتحقيق د / حفني محمد شرف ، ط / الثانية ، دار نهضة مصر

للطبع والنشر القاهرة .

- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب

الفيروزآبادى - توزيع دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة .

المكتبة العلمية بيروت لبنان . تحقيق : الاستاذ عبد العظيم الطحاوى .

- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية .

د / محمد محمد أبو موسى

مكتبة وهبة ، القاهرة .

(ت)

- تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن

لابن أبي الإصبع المصري

تقديم وتحقيق د / حفني محمد شرف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي

القاهرة ١٣٨٣ هـ .

- التصوير البياني

دراسة تحليلية لمسائل علم البيان

د / محمد محمد أبو موسى

ط / سنة ١٩٨٠ م - مكتبة وهبه القاهرة

- تفسير أبي السعود

المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

للإمام أبي السعود محمد بن محمد الصّادق

- دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

- تفسير البحر المحيط

لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي

ط / الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- تفسير ابن كثير

أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

ط / سنة ١٩٨١ م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- تفسير التحرير والتنوير

تأليف الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

الدار التونسية للنشر .

- تفسير الفخر الرازي

المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب

للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر

ط / الأولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- تفسير القرآن الحكيم (المنار)

محمد رشيد رضا ، ط / الثانية .

دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

- التفسير القيم

للامام ابن القيم

جمع محمد اويس الندوي ، تحقيق محمد حامد الفقي

دارالعلوم الحديثة بيروت لبنان

- تلخيص البيان في مجازات القرآن

تأليف الشريف الرضي

تحقيق وتقديم د / علي محمود مقلد

منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

(ث)

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

للرمانى والخطابى وعبد القاهر الجرجاني

تحقيق محمد خلف الله و د / محمد زغول سلام

ط / الثالثة ، دار المعارف بمصر

(ج)

- الجامع لأحكام القرآن

أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي

دار احياء التراث العربي بيروت .

- جامع الاصول في أحاديث الرسول

تأليف الامام مجد الدين أبي السعادات المبارك ابن محمد

ابن الأثير الجزري

تحقيق : عبد القادر الأرئووط ، ط / ٣٩٢ (هـ / ١٩٧٢ م)

نشر وتوزيع مكتبة الحلواني و مطبعة الملاح ومكتبة دارالبيان .

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن
تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري
دار الفكر . بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

- الجامع الصحيح

للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري

دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان .

- الجمان في تشبيهات القرآن : لابن نايقا البغدادي
الدكتور: مصطفى الصاوي الجويني ، الناشر منشأة المعارف الاسكندرية .

- حاشية الشهاب المسماة عناية القضاوي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي
دار صا در بيروت .

- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز
الخطيب الاسكافي برواية ابن أبي الفرج الاردستاني ،
منشورات دار الافاق الجديدة بيروت ، ط/ الرابعة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

- دلائل الاعجاز

تأليف الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد

الجرجاني النحوي

قَرَأَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ محمود محمد شاكر

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(ر)

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للذَّهَبِيِّ

١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م دار الفكر بيروت .

(ص)

- صحيح البخاري

للإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة

ابن يَرْدَزْبَةَ الْبُخَارِيُّ الْجَعْفِيُّ

دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع .

- صفوة التفاسير

تأليف محمد علي الصابوني

دار القرآن الكريم بيروت .

- الصورة في التراث البلاغي

مجلة كلية اللغة العربية ، أم القرى السنة الثانية

١٤٠٤-١٤٠٥ هـ

(ظ)

- الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن

تأليف د / عبد العليم عبد الرحمن خضر ، دار السعودية للنشر والتوزيع .

عمدة القارى شرح صحيح البخارى للشيخ الامام بدرالدين أبي محمد (ع)

محمود العيني ، دار احياء التراث العربي بيروت لبنان .

(غ)

- غرائب القرآن وغرائب الفرقان

نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابورى

تحقيق إبراهيم عطوة عوض

مطبعة مصطفى البابي الحلبي

ط / سنة ١٩٦٤ م القاهرة .

(ف)

- في ظلال القرآن

سيد قطب - دار الشروق . ط : التاسعة .. ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .

(ك)

- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل

تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي

دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

(ل)

- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)

علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن
طبعة دار الفكر .

(م)

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

تحقيق المجلس العلمي بفاس ، ط/ الثانية ٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م
- مختصر صحيح البخاري

تأليف الامام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي
تحقيق ابراهيم بركة ، دار النفائس ، ط/ الثانية ، ٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م
- مختصر صحيح مسلم

للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري

تحقيق محمد ناصر الدين الألباني

المكتب الاسلامي بيروت .

- معاني القرآن

تأليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء

عالم الكتب بيروت .

- معجم مقاييس اللغة

لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا

تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- المفردات في غريب القرآن

تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني

تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني

دار المعرفة بيروت لبنان .

من
الإعجاز البلاغي للقرآن

د/ صباح عبيد دراز

دار التوفيقية للطباعة بالأزهر

- من أسرار التعبير في القرآن - صفاء الكلمة -

د/ عبد الفتاح لاشين ، ط/ دار السريخ

- من بلاغة القرآن

تأليف أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .

(ن)

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

للامام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي

ط/ الأولى ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م

مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن الهند .

- النظم القرآني في سورة الرعد

تأليف محمد بن سعد الدبيل

عالم الكتب .

- نيل الأوطار - شرح منتقى الأخبار للشوكاني للمحمد بن علي الشوكاني ،

ط/ ١٩٧٣م ، دار الجيل بيروت ، شرح وتعليق : منير آغا الدمشقي .

فہرست المرقومین

فهرس الموضوعات الاجمالي

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
أ- ح	المقدمة
٢٧-١	التمهيد : جهنم العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع الفصل الأول : التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا
٨٧-١	وأسرار تنوعها
	الفصل الثاني : التشبيهات التي تمثل الإنفاق وأسرار
١٦٠-٨٦	تنوعه ويتضمن الإنفاق في سبيل الله والإنفاق المشوب بالمن والاذى أو الرياء أو الكفر
	الفصل الثالث : التشبيه الذي يمثل الحق والباطل وأسرار
٢١٩-١٦١	تنوعه
	الفصل الرابع : التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين
٢٧٧-٢٢٠	وأسرار تنوعها
	الفصل الخامس : التشبيه الذي يمثل أوصاف المخالفين
٣٠٩-٢٧٨	من المنافقين وأسرار تنوعه
	الفصل السادس : التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند
٣٣٦-٣١٠	البعث وأسرار تنوعها
٣٤٧-٣٢٧	الخاتمة
٣٥٧-٣٤٨	المصادر والمراجع
٣٥٨	فهرس الموضوعات الاجمالي